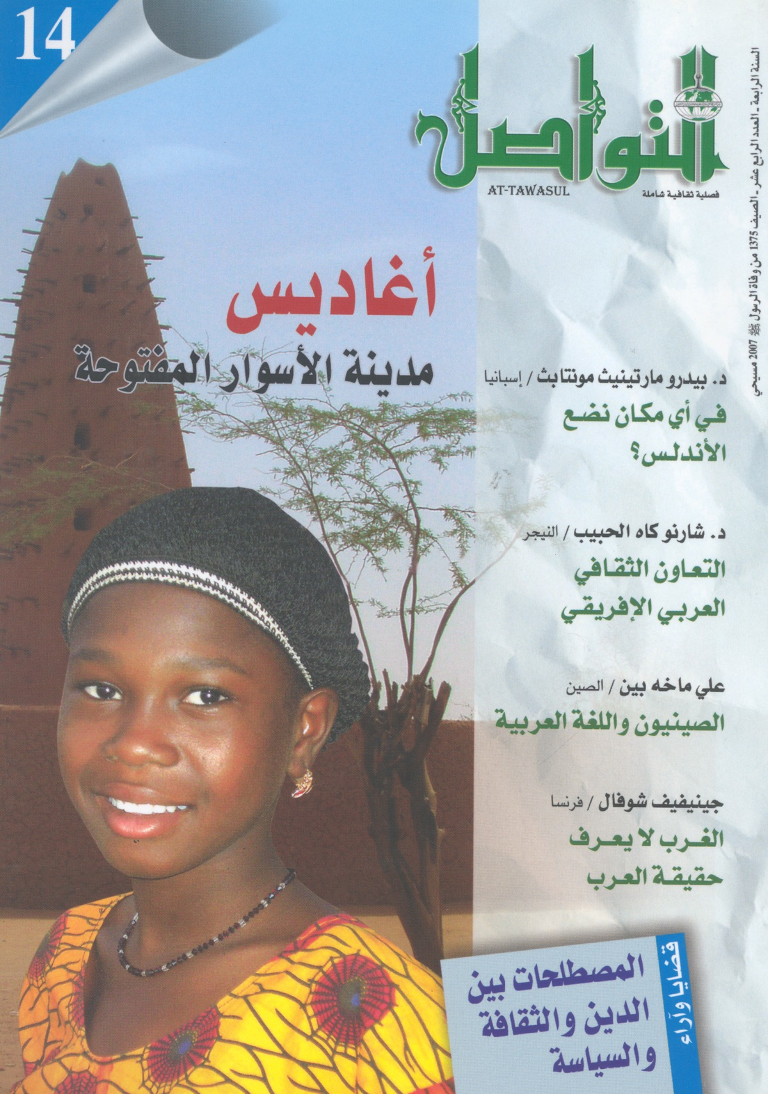
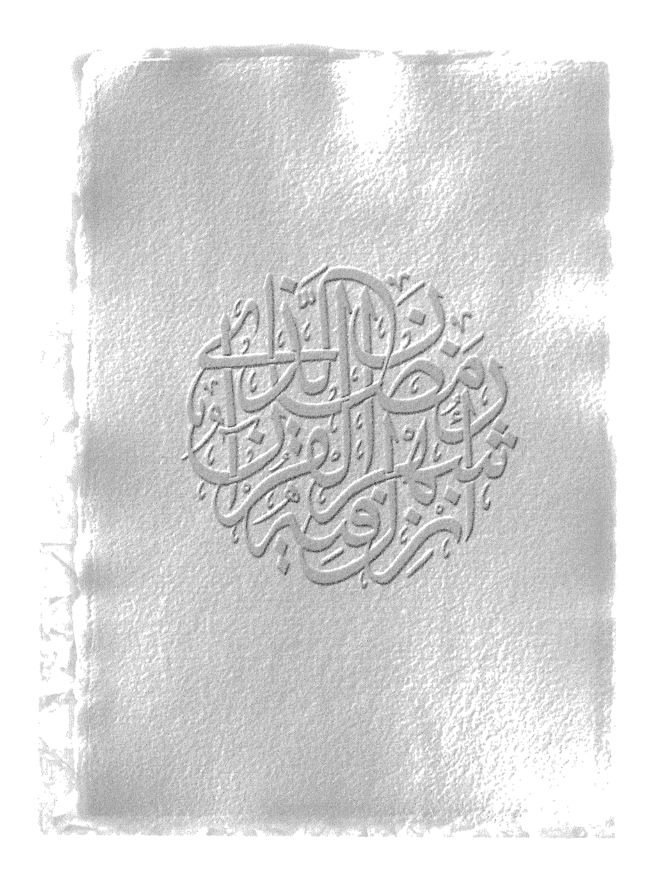


14
التواصل
AT-TAWASUL
فصلية ثقافية شاملة
السنة الرابعة - العدد الرابع عشر - الصيف - 1375 من وفاة الرسول ﷺ 2007 مسيحي
أغاديس
مدينة الأسوار المفتوحة
د. بيدرو مارتينيث مونتابث / إسبانيا
في أي مكان نضع الأندلس؟
د. شارنو كاه الحبيب / النيجر
التعاون الثقافي العربي الإفريقي
علي ماخه بين / الصين
الصينيون واللغة العربية
جينيفيف شوفال / فرنسا
الغرب لا يعرف حقيقة العرب
قضايا وآراء
المصطلحات بين الدين والثقافة والسياسة


شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن



أمين هيئة التحرير

المصطلح: صناعة وتصديراً واستهلاكاً

١

المصطلحات، منتجات يتداولها الناس شأنها في ذلك شأن أي منتج آخر، وهي كغيرها من المنتجات تمر بمراحل التصنيع والتسويق، يعلن عنها ويروج لها بهدف الاستهلاك، والمصطلح باعتباره (مُنتَجًا) فإنه محكوم بقوانين يحددها المنتِج، ويساهم في تحديدها إلى حد كبير مهندسون وخبراء واستشاريون، ولأنه (مُنتَج) فإنه محكوم بقوانين السوق في حالتي التصدير والاستيراد، والمصطلحات لا تختلف عن أي (مُنتَج) آخر، فهي نتيجة أبحاث ودراسات وجهود بحثية علمية متأنية.

وليس صحيحا أن المصطلحات تولد من رحم الصدفة، كما أنه ليس صحيحا أن تسويق المصطلحات التي يتم إنتاجها يأتي بناء على الطلب، وليس صحيحاً كذلك أن تسويق المصطلح يكون لمجرد العرض في واجهات المحلات الإعلامية: (صحف، مجلات، كتب، إذاعات ...)، ولذا فإن كل مصطلح يتم إنتاجه يُسوَّق وفق إستراتيجية مدروسة بالنسبة لمنتِجه ومسوِّقه ومروِّجه وبائعه، وهو - شأنه في ذلك شأن أي (منتج) آخر - يقدم بهدف الاستهلاك، وتحكمه قوانين السوق، وهي في ما يتعلق بالمصطلحات الإعلامية: (السوق الإعلامية).

ومثلما لا يستطيع من لا يملك المواد الأولية والقدرة على التصنيع من صنع أي منتَج، وليس أمامه من خيار إلا استهلاك ما يقدم له، فإن من لا يملك قوة فكرية وسياسية وعلمية وحضارية لا يملك إلا أن يستهلك ما يقدم له، وقديما قيل: (فاقد الشيء لا يعطيه) وأظن أنه من الأفضل القول: (فاقد الشيء لا يستهلكه)، بل يسعى إلى الحصول عليه من مصدره، وهنا نتحول إلى قوانين العرض والطلب، وقوانين السوق، وقوانين أخرى لا تراعي في كثير من الأحوال وضعية المستهلك، مما يستدعي الدعوة إلى إنشاء ما بات يعرف بـ(جمعيات حماية المستهلكين)، هذا بالنسبة للمنتجات التي يتم استهلاكها، لكن الأمر بالنسبة للمصطلحات يختلف تماماً، فهي منتجات لا تقع تحت طائلة حقوق الملكية، وكلما انتشرت كان ذلك أفضل بالنسبة لمصدرها، وهي هنا على خلاف المنتجات الأخرى التي تحميها قوانين عديدة...

وإذا كانت المنتجات تخضع كما يقال - دون التأكد من حقيقة وصحة ودقة ما يقال - لمواصفات قانونية وصحية وتصنيعية تحفظ سلامة المستهلك، فإن عدداً لا يحصى من المصطلحات التي تم تصنيعها وتصديرها وترويجها دون معرفة مصدرها على وجه الدقة، مصطلحات صنعت في أروقة لا تحمل عناوين محددة، ولا تعمل وفق تراخيص رسمية، ولا تقع تحت طائلة أي قانون من قوانين السلامة وعدم إلحاق الأذى بالمستهلك، وهنا تكمن الخطورة، خطورة عدم معرفة مصدر المنتَج، عدم معرفة مواصفات التصنيع، عدم معرفة طرق استخدامه، عدم معرفة طرق الصيانة.

وإذا كانت أضرار بعض المنتجات ربما يمكن التغلب عليها من خلال البحوث والدراسات الغذائية والطبية، واستكشاف وسائل الوقاية من أضرارها، فإن الوضع يختلف تماماً بالنسبة للمصطلحات، فهي لا تخضع أساساً لمواصفات السلامة الصناعية، بل على العكس من ذلك، صنعت هذه المصطلحات لتحدث كل أنواع الضرر الفكري والخلقي والحضاري والاجتماعي.

ليس من الممكن - على سبيل المثال - رفع قضية تعويض ضد مصطلح ما، ساهم في إلحاق الضرر بحضارة أو ثقافة أو مجتمع أو معتقد، وليس من الممكن - على سبيل المثال - الاحتكام لمواصفات التصنيع لتحديد الخلل الذي يحمله هذا المصطلح أو ذاك، وليس من الممكن - على سبيل المثال - الدعوة إلى إنشاء (جمعية حماية مستهلكي المصطلحات).

الأمر المهم هنا هو البحث عن إجابات لجملة من الأسئلة من بينها: هل صناعة المصطلحات مرتبطة بالقوة أم بالتقدم؟ هل صناعة وتسويق المصطلح مرتبطة بالثراء الفكري والعلمي والثقافي والحضاري أم بالقوة قبل كل شيء؟ هل استهلاك المصطلحات نابع من الحاجة لها، أم من الوقوع في شرك الوهن والضعف الحضاريين؟

أسئلة عديدة يخيل لنا - للوهلة الأولى - أن الإجابة عنها سهلة وميسرة، لكن الحقيقة غير ذلك، الحقيقة هي أن أسئلة كهذه تتطلب بادئ ذي بدء معرفة أماكن تصنيع المصطلح، ومكوّناته ومراحل تصنيعه، ومواصفاته، ومراحل تسويقه...

في هـذا العـدد

التواصل
AT-TAWASUL
تصدر عن
جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
السنة الرابعة ـ العدد الرابع عشر
الصيف 1375 من وفاة الرسول ﷺ
2007 مسيحي

المراسلات باسم
أمين هيئة التحرير
طريق السواني ـ كلم 5
هاتف: 4800730 / 48084615
بريد مصور: 4800736 - 4800730
ص.ب: 86086
طرابلس ـ الجماهيرية العظمى

البريد الالكتروني
INFO@AT-TAWASUL.INFO
ARAA@AT-TAWASUL.INFO

الموقع على شبكة الانترنت
WWWW.AT-TAWASUL.INFO
WWWW.AT-TAWASUL.NET
WWWW.AT-TAWASUL.ORG
WWWW.AT-TAWASUL.COM

شـــروط النـشــر فـي مجـلـة

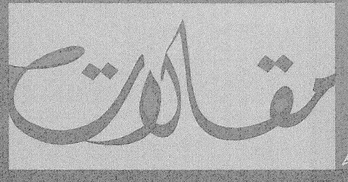


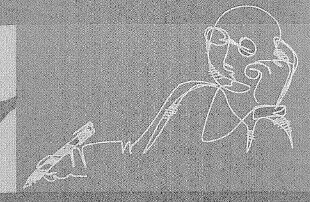
ترحب مجلة التواصل بكتابات المفكرين والمثقفين العرب والمسلمين وغيرهم الذين ينشدون التواصل المعرفي من خلال لغة الحوار والنقاش المستنير بعيداً عن التعصّب بجميع أشكاله، وسعياً لدرء أسباب الخلاف والفرقة، مع الالتزام بأسس العقيدة الإسلامية وثوابت الدين في المعالجات الفكرية والثقافية. وتحقيقاً لهذه الأهداف يشترط لقبول نشر البحوث والمقالات:

- أن يتسم البحث بالجدّة والموضوعيّة، وأن يتّبع في كتابته الأساليب المنهجية في البحث العلمي من تسلسل منطقي في العرض، وتوثيقٍ للمصادر والمراجع.
- أن يُراعى تخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في البحوث التي تتضمنها.
- أن يكون البحث أو المقال خِلواً من الأخطاء اللغوية والإملائية، مع مراعاة علامات الترقيم وضبط الكلمات التي تحتاج إلى ضبط.
- ألاَّ يكون البحث أو الدراسة المقدمة للنشر في (التواصل) جزءًا من أطروحة ماجستير أو دكتوراه.
- ألاَّ يكون البحث قد سبق نشره في مطبوعة أخرى.
- أن يكونَ البحثُ أو المقال مطبوعاً، أو مكتوباً بخطٍّ واضح.
- ألاَّ يقلّ عدد كلمات البحث أو الدراسة عن 8000 كلمة ولا يزيد على 12000 كلمة.
- ألاَّ يقلّ عدد كلمات المقال عن 4000 كلمة، ولا يزيد على 6000 كلمة.
- أن يُرفقَ الباحثُ ببحثه سيرته الذاتية.
- في حالة الترجمة لا بدَّ من أن يرفق النصّ المترجم بلغته الأصلية.

ملاحظات:

- للمجلة الحق في اختيار العدد المناسب لنشر البحوث المجازة.
- ترتيب نشر البحوث في المجلة يخضع لاعتبارات فنية.
- لا تردّ البحوث إلى أصحابها سواء أنشرت في المجلة أم لم تنشر.
- تعرضُ الأعمال المقدّمة للمجلة على لجنة تقويم النصوص فيها لإجازتها.
- تمنح البحوث والمقالات المجازة مكافآت مالية مناسبة.


مقالات



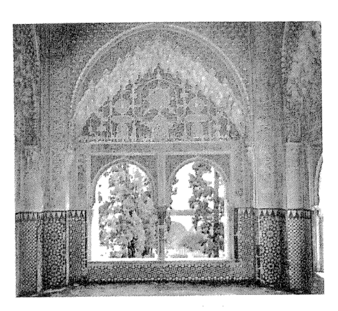
في أي مكان نضع الأندلس؟

أ. د. بيدرو مارتينيث مونتابث*

ترجمة: خليل صدقة**

من الواضح أن هناك محاولة جديدة، تهدف إلى التشكيك في أهمية التراث الذي خلفته الحقبة العربية الإسلامية في إسبانيا، ليست هذه هي المرة الأولى، التي يتم فيها إعادة طرح هذا الموضوع، للجدل والنقاش، لأغراض مشبوهة؛ في الواقع إن النقاش الجديد والقديم حول هذا الموضوع، غالباً ما تترتب عليه نتائج غير إيجابية، تدفعنا إلى القول، بأن الجدل فيه، حق يراد به باطل. نعم، لقد جرت العادة على طرح هذا الموضوع، بين الحين والآخر، وهذا دليل واضح، على أننا لم نحسم أمرنا بعد، في تقييم هذا الإرث، لكن الشيء المقلق الآن، هو أن النقاش لا يرقى إلى نفس المستويات العلمية، التي سادت خلال جدل بين أمريكو كاسترو وسانش البرونوف، وقد يكون ذلك دليلاً آخر على محاولة التعرية التي يتعرض لها تراثنا الثقافي.

لقد كُتب وقيل الكثير الكثير، عن هذا الموضوع، وتطرقت له مصادر متعددة ومتنوعة، لأغراض شتى، منها المخلص، ومنها المشكك، الكل - من شتى القطاعات الفكرية والأدبية والصحفية - دأب على إدلاء دلوه، في هذه المسألة، وهذا بقدر ما هو برهان على الأهمية التي تستقطبها وتستحوذ عليها القضية،

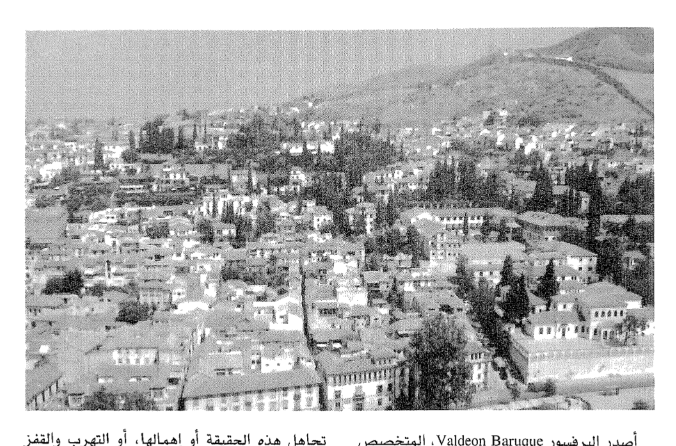


نافذتان في قصر الحمراء

يعتبر أيضًا، محاولة لتفسير كونه موضوعًا دائمًا، في ساحات البحث والتأصيل والتغريب من قبل تيار الإسلاموفوبيا الجديد، وقد وصل الحد إلى إقحام رئيس سابق لحكومة إسبانية نفسه، في هذا الموضوع بتصريحات، أقل ما يقال عنها، بأنها تنم عن الجهل أو الغرابة، ودليل واضح على وجود رغبة في إعادة النظر، أو تأويل الحقيقة التاريخية، خدمة لمصلحة أنانية؛ إن إقحام رئيس الحكومة السابق، نفسه في هذا التيار، برهان على التأثير السلبي والنشاز، والسوء الذي تلعبه الأيديولوجية في دعوات المراجعة للتاريخ.

* باحث، أستاذ جامعي، رئيس جمعية المستعربين الإسبان / إسبانيا.

** صحفي ومترجم / إسبانيا.



أصدر البرفسور Valdeon Baruque، المتخصص في تاريخ العصور الوسطى، كتابًا في الآونة الأخيرة، يحمل عنوانًا، ينم عن الفحوى والمغزى الذي يحمله: مفهوم إسبانيا: بين الوحدة والتعدد، على ضوء إعادة الفتح.

أعتقد بأن طرحَ هذا المفهوم لإسبانيا التاريخية، في إطار التعددية الانفرادية والعزلة، له مغزى كبيرًا في هذه الظروف، لأنه يمثل محاولة للبحث عن الهوية.

ليكن واضحًا منذ البداية، أنني لست قلقًا بشأن مسألة الهوية، ولكنني أعلم جيدًا بأن هذا الموضوع، قد ينحرف بالمرء إلى متاهات وتعقيدات جنونية، خاصة إذا ما ارتبطت بالتعصب القومي، ولكني على قناعة من أن مسألة الهوية والقومية، تعتبران مصدرًا رئيسًا للجدل الكبير الدائر في الوقت الراهن، وعليه فإن تجاهل هذه الحقيقة أو إهمالها، أو التهرب والقفز عليها، قد يؤدي إلى نتائج سيئة للغاية، أسوة بالنتائج التي تترتب على الإفراط أو المبالغة في الاهتمام بهذه المسائل، وأوضح هنا بأن موقفي في هذه المسألة، يتمشى مع طرح البرفسور Alvarez Jonco، الذي يؤكد: «على الخاصية الهلامية للهوية الجماعية، وضيق العلاقة المرتبة عليها، في إطار الهدف المنشود».

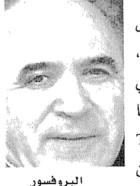
انطلاقًا من هذا الواقع غير القابل للجدل، فيما يتعلق بوحدة (تجانس) أو تعدد مصادر الهوية الإسبانية، أطرح الأسئلة التي لم تطرح حتى الآن بوضوح كاف، عندما يتعلق الأمر بالأندلس أو بإسبانيا الإسلامية، والأسئلة الأساسية التي لم يتجرأ الكثيرون على طرحها: هل تعتبر الأندلس جزءًا من الهوية الجماعية الإسبانية أم لا؟. ما هي الأسس والحجج والأدلة، التي تحدد طبيعة الجواب على هذا السؤال، سواء كانت الإجابة بنعم أولا؟. أكرر وأقول: إن هذا هو المدخل الأساسي، لأي نقاش حول هذا الموضوع، وكل محاولة لتجاهل هذا الأمر، أو تأجيل الخوض فيه، أو

تهميشه وإهماله والتهرب منه، يعتبر خطأ فادحًا؛ لأن المشاعر والعواطف التي تعتمر في النفوس تحت السطح، ستتخمر وتتفاعل بدون أن تجد متنفسًا لها، مما قد يوصل إلى الانفجار. لم يطرح هذا النقاش الفكري في إسبانيا بالشكل العلمي والموضوعي، المجرد من العاطفة؛ إن كل ما طرح حتى الآن، لم يعدو كونه أفكارًا سطحية وحيلاً وفتنًا وتهكمات متبادلة، والذي يبعث على القلق بأن الأمر قد يستمر على هذا المنوال.

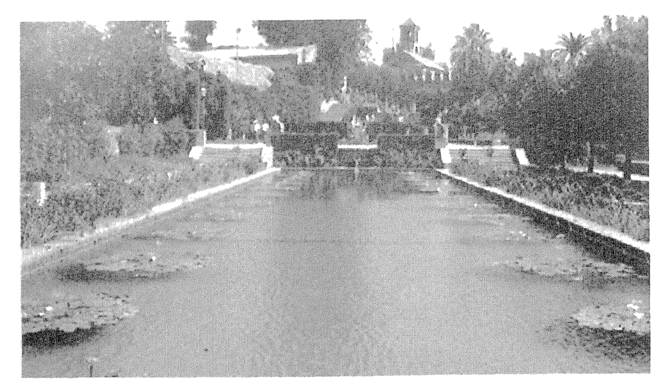
لن أحاول هنا وضع إجابات على هذه التساؤلات، كل ما سأسعى له هنا، مجرد تقديم أدلة وشواهد أعتبرها مهمة وواضحة، تؤكد على انطباعي، بأن الرأي السائد هو أن الأندلس لم يسبق أن اعتبرت جزءًا من الهُوية الإسبانية، أو على الأقل طرفًا أساسيًا في بناء هذه الهُوية.

ربما لم يتذكر الكثيرون الاحتفالات الضخمة، التي أقيمت عام 1992م، بمناسبة الذكرى المئوية الخامسة، لما يسمى اكتشاف القارة الأمريكية، وتزامن ذلك الحدث، مع ذكرى سقوط آخر معاقل المسلمين في إسبانيا مدينة غرناطة، أو ما يطلق عليه إعادة الفتح، لقد حظيت تلك الاحتفالات بالرعاية من قبل أعلى مؤسسات الدولة الإسبانية، جئت بهذا الموضوع هنا، لأشير إلى إصدار مجلدين فاخرين في تلك المناسبة، الأول: بعنوان الأندلس 92، والثاني: (سفراد 92). لقد جلب انتباهي آنذاك، العنوان الذي حمله كل واحد من تلك المجلدين، الأول الذي يعنى بالأندلس، يتحدث عن الإسلام في إسبانيا، أما الثاني فكان عنوانه (إسبانيا اليهودية). أذكر أنني تساءلت وقتها، ولا زلت أتساءل، عن سر هذا التضارب في الطرح، وما إذا كان مجرد خطأ لغوي أو ما يوصف بزلة لسان، أو خطأ مطبعي؟ أم أن ذلك يخفي في ثناياه أغراضًا غير معلنة، تنم عن مشاعر دفينة، تخدم مصالح معينة؟ لا أستطيع الرد على هذه التساؤلات حتى الآن، ولم يقدم لي أي مسؤول ردًا شافيًا على ذلك، لكن التفاوت في النظرة بات مكشوفًا، ويتمثل في أن (سفراد) جزء من إسبانيا، أما الإسلام فهو مجرد عملية نقل وافدة، جاءت وذهبت أدراج الريح، ولكل طرف الحق في استنباط العبر من مجرد عبارة واحدة.

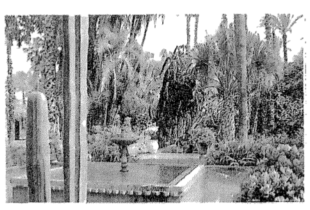
كنت أعتقد بأن الأمر قد ولى، ولكنني أرى بأنه ليس كذلك، فقد شاركت الصيف الماضي، في دورة أكاديمية، عقدت في مدينة أشبيليا، تحت عنوان: (اليهودية والمسيحية والإسلام) نظمت من قبل جامعة الأندلس الدولية، وجمعية الثقافات الثلاث في المتوسط، والتي أشرف عليها بجدارة، البرفسور Tamayo-Acosta الذي لا أستطيع أن أحمله مسؤولية عدم التوازن أو الخلل في النظرة إلى هذه المسألة، لقد نبهت القائمين على الدورة، فور استلام مسودة البرنامج أو الجدول الدراسي، حول هذا الخلل، ولكن إنذاري لم يؤخذ في الحسبان؛ البرنامج اشتمل على حصتين كاملتين، حول تأثير التراث اليهودي في الثقافة الإسبانية، وحصتين حول تأثير التراث المسيحي في الثقافة الإسبانية، أما حول الإسلام فقد اقتصر على عنوان: (الإسلام في إسبانيا). والسؤال الذي يطرح نفسه على الفور، لماذا يتم الحديث عن التراث المسيحي واليهودي، وتأثيرهما في الثقافة الإسبانية، ولا يستخدم الشيء ذاته، للحديث عن الإسلام؟ لماذا ينظر إلى الإسلام، كثقافة وافدة منقولة غير اصيلة في إسبانيا؟، لم يجب أحد عن هذه الأسئلة مرة أخرى.


البروفسور
تامايو أكوستا

شاركتُ في مناقشة دولية حول شخصية بن خلدون وأعماله، نظمت في جامعة غرناطة، من قبل مؤسسة التراث الأندلسي، في تلك المناقشات خصص يوم



كامل، لمناقشة العلاقات بين الحضارات، وإمكانيات التحاور فيما بينها، وكانت إحدى المداخلات، قد قدمت من قبل موظف رفيع المستوى، في وزارة الشؤون الخارجية الإسبانية، الذي قدم شرحًا وافيًا وواضحًا، حول موقف الإدارة الإسبانية الحالية، من هذا الموضوع، ومن بين ما أشار إليه، خطة تأسيس البيت العربي في إسبانيا، وبيت (سفراد)، وعندما فتح باب الحوار، قدمت له الأسئلة التالية: هل ستعمل الإدارة الإسبانية على تأسيس البيت الأندلسي أيضًا، أم أن الأندلسي ستكون منضوية تحت لواء البيت العربي، وما إذا كان ذلك يعني بأن الأندلس تتبع جزئيًا لإسبانيا؟



لم ألق الرد على هذا السؤال، ولم يخطر على بالي أبدًا سؤال مثير، وربما محرج وخارج على الواقع، وهو: هل يعني ذلك بأن الأندلس، تنضوي تحت لواء بيت (سفراد*).

إنني في غنى عن تقديم مزيد من الأمثلة، التي تكشف عن هذا الطرح ولدي الكثير من الأمثلة.

حفيديّ الاثنين عرضا عليَّ منذ فترة وجيزة موضوعين مثيرين للجدل: (سرخيو) سألني: لماذا عندما يطرح أستاذ التاريخ الحقبة الإسلامية، يقول الغزو العربي أو الإسلامي لإسبانيا، ولكن عندما تطرح الحقبة الرومانية، لا يتم الحديث عن الغزو الروماني؟!. أما حفيدتي بلانكا، فوجهت السؤال التالي: أليس في الإسلام شيء مفيد يستحق أن ندعيه؟. قد يكون سبب كل ذلك، ناجم عن عدم نجاحنا في وضع الأندلس في المكان اللائق، لكي تتبوأ الدور المناسب، في تشكيل الهُوية الجماعية لإسبانيا، لازلنا نقترف نفس الخطأ مرة تلو الأخرى، ونجهل هُوية الواحدة أو الأخرى.

(*) سفراد: مصطلح يعني اليهود الشرقيين (التحرير).

الإسلاموفوبيا
ظاهرة تنمو في أوروبا

عبدالرحمن فروجا*

ترجمة: **محمد محمد العالم****



يعتبر الإسلام من أسرع الديانات انتشارًا في العالم، خصوصًا في أوروبا. إنني لا أقول هذا الكلام من قبيل الأماني ـ لكوني مسلمًا ـ إذ أثبتت الإحصاءات، التي نشرت من قبل مختلف المؤسسات الأوروبية المستقلة، هذه الحقيقة.

ويعزى نمو الإسلام في أوروبا، إلى ثلاثة عوامل، وهي: الهجرة، والنمو البشري (الديموغرافي) للمسلمين، والاعتناق. ويوجد تدفق مضطرد، للأجانب المسلمين ـ غير الأوروبيين ـ على شكل هجرات إلى أوروبا كل سنة؛ يأتي جلهم من دول إفريقية وآسيوية، وهم يبحثون عن حياة أفضل، في القارة «الغنية»، أو أنهم يفرون من الحروب، التي تمزق بلدانهم الأصلية.

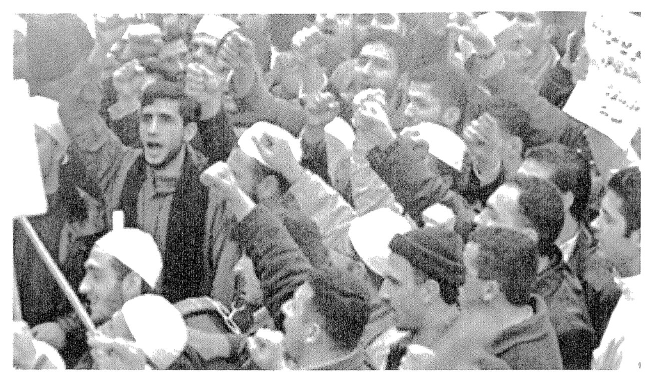
وعندما يقيمون في أوروبا، يشرع أولئك المهاجرون في تكوين أسرهم، وفي أغلب الحالات ينزعون لإنجاب أطفال أكثر من الأوروبيين غير المسلمين.

أضف إلى ذلك، حقيقة أن كثيرًا من الأوروبيين ـ غير المسلمين ـ قد هداهم الله إلى الطريق الحق، باعتناق الدين الإسلامي الحنيف، وهذا يضيف عاملاً آخر مهمًا، في انتشار الإسلام في أوروبا.

---

* كاتب / مالطا.

** صحفي ومترجم / ليبيا.



رفض إهانة الإسلام

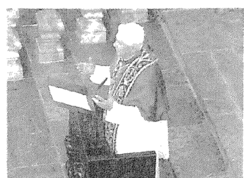
يحدث هذا، بالرغم من الصورة السيئة، التي يبرزها الإعلام الغربي، عن الإسلام، وأيضًا من خلال أولئك الذين يسمون أنفسهم مسلمين، في الوقت الذي يقترفون فيه أفظع الجرائم باسم الإسلام.

ولكن، ومع نمو الإسلام في أوروبا، تتصاعد وتيرة عامل آخر، وهو الظاهرة المسماة: الإسلاموفوبيا، وهي اصطلاح حديث نسبيًا. يتركب من شقين: الإسلام Islam، وفوبيا Phobia، وتعني: خوفًا دائمًا وشاذاً، أو كرهًا شديدًا، لشيء ما، هذا استنادًا إلى ما أورده، قاموس أوكسفورد Oxford Dictionary، للغة الانجليزية.

إذن الإسلاموفوبيا باختصار، يعني: الخوف من الإسلام، أو المقت الشديد له. ولكن لماذا ينمو الإسلاموفوبيا في قارتنا؟ إنه لمن الحقائق المسلم بها، أن للإسلام أعداؤه في أوروبا، أولئك الذين يقفون في طريقه منعًا لانتشاره، وأن أولئك الأعداء، يعملون ما في وسعهم للهجوم على الإسلام، أنى أتاحت لهم الفرصة ذلك؛ في محاولة منهم لإظهار هذا الدين بطريقة باهتة.

إن أعداء الإسلام في أوروبا، يفعلون أيضًا ما استطاعوا، لاستفزاز مسلمي أوروبا، محاولين استمالتهم للجوء إلى العنف، وهم يثبتون لأوروبا بفعلهم هذا، أن الإسلام دين يحض على العنف، وهذا ما يخدم أهدافهم بزيادة وتيرة الإسلاموفوبيا في أوروبا؛ وفي الأسابيع والأشهر الماضية، جرى استفزاز المسلمين إلى حدّ الهجوم على شخوصهم وعقيدتهم ظلمًا، مرارًا وتكرارًا، ونستحضر في هذا الصدد الأحداث الآتية:

❖ نشر الرسوم الساخرة أو الصور (الكرتونية) السيئة السمعة، عن الرسول الكريم ﷺ في صحيفة: بولندس بوستن Polandes Posten الدنماركية، وقد تم إعادة نشر تلك الصور، في صحف أخرى عبر القارة الأوروبية، وسوغ ذلك بمعزوفة حرية التعبير، لكن الحقيقة تقول: إن تلك الرسوم، كانت مثيرة للاشمئزاز، وقد أدينت من قبل ذوي النوايا الطيبة، من المسلمين وغير المسلمين على حد سواء، ولم يكن هناك شيء، يمكن للمرء أن يتعلمه من تلك الرسوم. أضف إلى ذلك، أن حرية التعبير ينبغي أن تتوقف،



بينيديكت السادس عشر



مسلمو أوروبا يحتجون

عندما تتعدى على حرية الآخرين؛ وعلى سبيل المثال: يمنع تداول الصليب المعكوف في أوروبا، جراء الذكريات التي يجلبها، لارتباطه بحقبة هتلر ونظامه النازي، وأيضًا لأنه مهين لليهود وللأوروبيين عمومًا، ولذلك لا أحد يقول إنه ينبغي السماح به، بسبب حرية التعبير. لماذا يستخدم مكيالان في هذا الصدد؟

❖ محاضرة البابا، بينيدكت السادس عشر Benedict Xvi، في جامعة ريغانزبورغ بألمانيا، بتاريخ الثاني عشر من سبتمبر 2006م، والتي أقتبس فيها، من إمبراطور بيزنطي، عاش في القرون الوسطى، ويدعى مانويل الثاني Manuel II قوله: إن الإسلام انتشر بحد السيف، مما أثار استياء الكثير من المسلمين، في جميع أنحاء العالم، عند تفسير مضمون محاضرة البابا، باعتبار أنه يؤيد الفكرة المغلوطة عن الإسلام، الزاعمة أنه يحض على العنف، وبالرغم من أن البابا، قال لاحقًا، إنه: «يأسف لأن ملاحظاته، قد أساءت للمسلمين» الأمر الذي، لم يرق إلى إعلان اعتذار حقيقي؛ وزار البابا بينيدكت السادس عشر، تركيا خلال شهر نوفمبر 2006م، وسط احتجاج كبير، حول تلك الزيارة، التي راءها الكثيرون أنها خطوة لرأب الصدع، الذي أحدثته المحاضرة، ويبدو أيضًا، أن البابا قد غير موقفه فيما يتعلق بانضمام تركيا للاتحاد الأوروبي، فقبل أن يعتلي السدة البابوية، ببضع سنوات، كان معارضًا لعضوية هذه الدولة في الاتحاد الأوروبي، وأورد أنه أخبر رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان، إبان وصوله، أنه يؤيد سعي تركيا لعضوية الاتحاد الأوروبي، ويؤمل أن زيارة البابا، قد ساعدت في تخفيف مدى التوتر بين المسلمين والمسيحيين.

❖ حظر الحجاب في الأماكن العامة في فرنسا، علاوة على ذلك، قررت الحكومة الفرنسية أيضًا، منع المسيحيين واليهود، من ارتداء الرموز الدينية، لكن هذا لم يكن له نفس التأثير، مثل الذي حدث للمسلمين، ففي الوقت الذي ليس مفروضًا دينيًا على المسيحي، أن يعلق الصليب، أو على اليهودي أن يرتدي القلنسوة التقليدية، فإنه من المفروض على المرأة المسلمة، تغطية رأسها، وبذلك فإن منع المرأة المسلمة، من ارتداء الحجاب في الأماكن العامة، يجعلها ترتكب الإثم، ولهذا فإن القرار يتركها أمام خيار واحد، هو البقاء في البيت. وهذا هو سبب احتجاج المسلمين بقوة، ضد هذا الحظر، في الوقت الذي كانت الاحتجاجات المسيحية واليهودية أقل صخبًا.

❖ نبقى في فرنسا، حيث قام عدد كبير من الشبان الفرنسيين، المنحدر أغلبهم من أصول مغربية وجزائرية، بشن حملة احتجاجات عنيفة، في باريس، ضد ما يدعونه من تفرقة وعدم توفر فرص العمل، ولقد أخذت الاحتجاجات منحًا عنيفًا حيث أحرقت السيارات والدُّور. مما دعا الكثيرين، من أعداء الإسلام، إلى توجيه اللوم إلى عقيدتنا جراء هذا العنف، حيث ادعوا، أن المجتمع المتعدد الثقافات،

محكوم عليه بالفشل. وعلاوة على هذه الأحداث الجسام، جرت هناك تطورات أخرى في أوروبا، مما ساعد أعداء الإسلام وزادت وتيرة الاسلاموفوبيا.

❖ تم اغتيال، تيو فان كوخ Theo Van Coghe، في هولندا، وكان كاتبًا ومخرجًا (سينمائيًا) وشكلت أعماله هجومًا على الإسلام، بطريقة جديرة بالازدراء.

لقد اغتاله شاب مسلم، ينتمي إلى أصول مغاربية، وفي الوقت الذي أدان فيه علماء الإسلام في أوروبا وخارجها، عملية الاغتيال، فإن الحادث قد أدى إلى الهجوم على عدد كبير من المسلمين في هولندا، وتم حرق مساجد وتخريب مدارس تخص المسلمين.

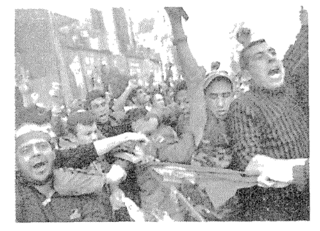
❖ تم سن قانون في الدنمارك، يمنع الأطفال الدنماركيين، العائدين إلى أبوين مهاجرين غير دنماركيين، من الحصول التلقائي على الجنسية الدنماركية.

وهكذا عندما يولد طفل في الدنمارك، لوالدين غير دنماركيين، فإنه ينبغي على الوالدين، أن يتقدما بطلب للحصول على الجنسية لطفلهما، مع العلم أنه يمكن أن يرفض الطلب. وعلى أي حال، ينبغي على المرء أن يتساءل، إلى أي دولة يمكن أن ينتمي ذلك الطفل؟ مع حرمانه من الحصول على الجنسية الدنماركية.

❖ توجد في ألمانيا جالية تركية كبيرة، ينظر إليها من قبل كثير من «القوميين» الألمان، على أنها تشكل تهديدًا للهُوية الألمانية.

❖ في بلجيكا حظر نشاط حزب سياسي، مناهض للإسلام، بسبب عدم قانونية الايديولوجيا العنصرية التي يتبناها، ومع ذلك فقد استغلت ثغرات في قانون البلاد، حيث قام مؤيدو ذلك الحزب، بتشكيل حزب آخر تحت مسمى جديدًا.

لعله من نافلة القول، أن أدبيات الحزب الجديد، هي تقريبًا نفسها التي تبناها الحزب الأصلي، عدا بعض التهذيب، لمنع الكيان الجديد، من أن ينال مصير سابقه.



عندما يرى المسلمون، كل هذا يحدث في أوروبا، فإنه من الطبيعي، أن يكون هناك رد فعل من قبلهم، ولسوء الحظ، يبدي بعض المسلمين ردود فعل عنيفة، الأمر الذي يخدم مصلحة أعداء الإسلام، بصورة كبيرة، لأنها تبرز حججهم، الزاعمة أن المسلمين غير متسامحين، وغير ديمقراطيين، ويقفون ضد حرية التعبير، وهم في الأصل متخلفون، علاوة على وصفهم بالإرهاب، وهي التهمة الجاهزة دائمًا ضد الإسلام؛ وحتى هنا، فإن أعداء الإسلام، يكيلون بمكيالين، فعندما يرتكب مسلم عملاً عنيفًا، فإنه ينعت بالإرهابي الإسلامي، وعندما يقوم مسيحي بنفس الفعل، فإنه لا يوصف بالإرهابي المسيحي البتة. وعلى سبيل المثال، لا توصف حركة (إيتا ETA) في إسبانيا، على أنها منظمة مسيحية إرهابية، والأمر ينطبق أيضًا على الجيش الجمهوري الايرلندي (IRA) في إيرلندا، فلماذا لا يتعاملون بنفس المكيال في الحالتين مع أنهما متطابقتان؟

رد الفعل الأوروبي لا يتوافق وما بات يعرف بالعقلانية

إن السؤال الأكثر أهمية، هو لماذا يحدث كل هذا في أوروبا؟

أصبحت ظلال من الشكوك، تشوب العلاقات بين

الغرب والعالم الإسلامي، منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر2002م، ويعتقد الغرب، أن هذا الأخير، ينوي خوض «الجهاد» ضده. أو كما يفسر في الغرب «الحرب المقدسة»، وذلك بغية جعل الغرب يعتنق الإسلام.

إن حقيقة كون الجهاد في الإسلام، لا يعني الحرب المقدسة، بل وإنه حرام في الإسلام، أن يتم إرغام أي شخص على اعتناق الإسلام، وهذا شيء غير معروف بشكل واسع في أوروبا، ومن ناحية أخرى، تنتاب العالم الإسلامي، مخاوف من أن الغرب يبيت النية لشن حرب صليبية جديدة، على غرار ما حدث في القرون الوسطى، وذلك لتدمير العالم الإسلامي.

تعزى أسباب الخوف لكل جانب، إلى عوامل بسيطة للغاية، وهي. أننا لا نعرف بعضنا البعض. فالمسلمون خائفون من المسيحيين، والعكس صحيح، لأن غالبيتهم لم يبادر بالجلوس والتحاور، من أجل معرفة الآخر، وإذا ما تم ذلك، فإن المسلمين والمسيحيين يمكن أن يبدءوا في بناء الثقة، فيما بينهم، ويشعرون بارتياح مع بعضهم البعض، وبالتالي يعيشون سويًا في سلام وانسجام.

أعتقد جازمًا، أنه إذا ما عرف غير المسلمين، الإسلام على حقيقته، فإنهم لن تكون لديهم اعتراضات، على حياة الأسرة المسلمة، واتخاذها جارًا لهم مثلاً، وسوف يتعلمون كيف يحترمون الإسلام، وأنا على يقين، أن العديد منهم، سوف يبادر باعتناق الإسلام.

لذا، ماذا ينبغي أن نفعل؟ هل لنا أن ننحى باللائمة على المسيحيين لكونهم لا يعرفون ديننا جيدًا؟، هل نتوقع منهم أن يكونوا أكثر تفقهًا في الدين، مما نفعل نحن؟ أو هل ينبغي علينا أن نفكر في واجباتنا، من أجل تحقيق تعايش سلمي، بين المسلمين وغير المسلمين، في قارتنا الأوروبية؟ يوجد العديد من الأشياء التي ينبغي أن نفعلها، ونلخصها فيما يلي:

❖ يجب ألا نبالغ، في موضوع الإسلاموفوبيا في أوروبا. صحيح أن الظاهرة موجودة، مثلما ذكرت آنفًا، ولكن من الصحيح أيضًا، أنه يسمح لمعظم مسلمي أوروبا بالممارسة الدينية بكل حرية، ولهم مساجدهم ومراكزهم الإسلامية، ومقابرهم ومدارسهم الخاصة بهم، والتي تمول من قبل الحكومة في بعض الأحيان؛ ولهذا وبالرغم من المشاكل الموجودة، فليس كلها باعثه على الشؤم والكآبة والحمد لله.

❖ ينبغي علينا أن نضرب أحسن الأمثلة، لغير المسلمين، عن الإسلام، وينبغي أن نفهم أن كثيرًا من الأعمال، التي يقوم بها مسلمون، وتم تفسيرها خطأ، من قبل غير المسلمين، نتيجة لسوء الفهم، إذ أن الإسلام ليس له علاقة بتلك الأفعال، ولهذا دعنا نظهر لغير المسلمين، كم هو جميل ديننا، وذلك عن طريق الأفعال التي نقوم بها.

ما أسباب الخوف من الإسلام؟ ولماذا يخافون من الإسلام؟؟

إن هذا يكتسي أهمية، خاصة بالنسبة للمسلمين لدى الرأي العام، لأنه ينظر إلى أعمالهم جميعها، وتفسر عن طريق آلاف، إن لم نقل ملايين البشر.

انه لمن الأهمية بمكان، أن يسعى المسلمون، لإفهام غير المسلمين، أن الإسلام دين سلام ومحبة، وتسامح واحترام، وليس عقيدة تحض على «الإرهاب» و«العنف»، كما يصور في الغرب، ومرة أخرى ينبغي القيام بذلك، عن طريق أفعال المسلمين أنفسهم.

إن اللجوء للعنف بغية الاحتجاج ضد ما يسيئون لنا، لا يساعد على تحقيق ذلك. إن تحطيم السفارات والكنائس، ومهاجمة الناس...إلخ، إنما يخدم قضية أولئك الذين وضعوا نصب أعينهم، تصوير الإسلام طبقًا لهذا السلوك، وفضلاً عن الحقيقة المهمة وهي أن الإسلام، يقف ضد ذلك كله، وأن الرسول الكريم



محمداً ﷺ لم يحض على العنف البتة، فدعونا لا نعطي أعداءنا الخنجر، الذي يمكن أن يحاولوا قتلنا به، لنثبت لهم أنهم مخطئون.

إننا بحاجة إلى الحوار، لنجلس سويًا، ونناقش بعضنا البعض. لندع المسلمين وغير المسلمين، يعرفون بعضهم البعض، ليس باستمالة أحد الطرفين إلى عقيدة الآخر، ولكن وببساطة، لنكتشف الأشياء الكثيرة، التي نشاطر فيها بعضنا البعض. وبهذا المنهج لن نكون خائفين من بعضنا، وسوف نتعلم بعد ذلك كله، أننا جميعًا بشر، يضحكون ويبكون، فيهم السعيد وفيهم التعيس، ومنهم من يشعر بالفرح وآخر يشعر بالألم، وأن ما يريده السواد الأعظم منهم، هو العيش في سلام، وتربية أبنائهم في بيئة آمنة.

إن جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، قد عملت ولا زالت تعمل الكثير، في مجال الحوار الإسلامي المسيحي، إن هذا يجعلني فخورًا بانتمائي إلى هذه الجمعية العظيمة.

وختامًا... وكمسلمين، نحن نعلم أن العالم سوف يكون في غالبيته سلمًا قبل قيام الساعة، وهذه نبوءة في القرآن الكريم، وفي أحاديث الرسول الكريم ﷺ.

يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [سورة الصف، الآية 9]

وقال النبي ﷺ: (والذي نفسي بيده ليصلن هذا الدين إلى ما وصل إليه الليل والنهار، فلن يكون هناك بيت ولا فلاة ولا مدينة إلا وصلها الإسلام).

ينبغي أن نقوم بجهدنا، طبقًا لهذه التعاليم، ونترك الباقي لمشيئة الله، فإن كان لنا إيمان، فلنكن على علم أن ما من أحد وقف ضد الإسلام، إلا وكان ضد مشيئة الله سبحانه وتعالى، ومن يفعل ذلك فلن يكون منتصرًا مطلقًا.



من مادية الله

أ. د. مهدي امبيرش*

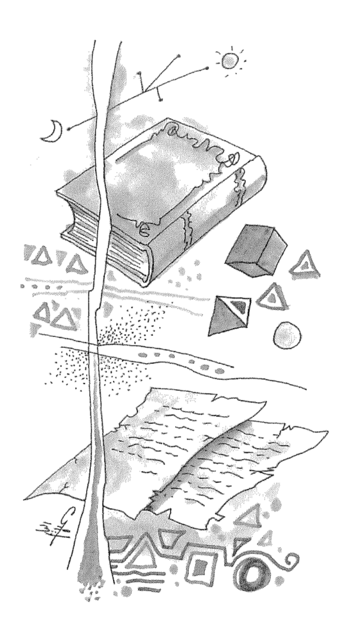
5 في القراءة

إذا كان الرقم (7)، والرقم غير العدد، ومن الرقم يأتي في العربية الرقيم، ففي الرقم إضافة إلى ذلك مفهوم العلامة، والمفهوم هو هذا الذي ينفتح على المعنى، أو على هذا البعد السابع، الغيبي، الذي نفهمه من أن القرآن نزل على سبعة أحرف، أو من هذا البعد الذي يعطيه الرقم (7)، والذي نجده يكاد يكون في ثقافات الأمم بعامة، في أديانها، وفي خرافاتها، وفي أساطيرها، وإن كانت الخرافات والأساطير تشير إلى أساس ديني وعقدي، فهي قصص عقدية تمت المبالغة فيها، ولهذا يقدم القرآن القصص القرآني مشروعًا للقراءة، ومشروعًا مضمونًا لهذه القراءة، حيث هذه القصص هي أحسن القصص:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [سورة يُوسُف، الآية: 3]

ودفع الجاحدين والكفار، وأن هذه القصص هي أساطير الأولين:

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [سورة الفُرقان، الآية: 5]



* باحث، كاتب، أستاذ جامعي، الأمين المساعد لجمعية الدعوة الإسلامية العالمية/ ليبيا.

مما يؤكد أن لهذه القصص أصولاً في الموروث الشعبي، وأن الناس قد سمعوا بقضايا البعث والحساب، والجنة والنار وما إليها، وإن كانت هذه الغيبيات، والأوامر والنواهي، قد شابتها، بحكم هذا التداول، وبحكم الإضافات، مبالغات واغراقات، أوصلتها حد الخرافات والأساطير، وبذلك فإن الوحي القرآني، يعيد هذه الحقائق الإلهية الدينية الشرعية، المتعلقة بحياة الناس في الدنيا، والغيبيات الأخروية إلى أصلها، بعيداً عن التحريف والتشويه والتأويل، بل لا يقدمها هكذا، باعتبارها الحقائق فحسب، ولا باعتبارها حقائق تروى بأسلوب حسن، بل هي أحسن القصص.

إن المفهوم هو بعض المعنى، أو قل: هو هذا المدرك أو القابل للإدراك، وفي ذهننا مفهوم الإدراك في العربية الذي هو اللحاق بـ، أو الإمساك بـ، والإدراك هو ضمن المتمكن وضمن الممكن، والمتمكن والممكن مرتبطان بالتظرف المكاني الزماني، أي بهذا الامتداد الذي يأخذه الفعل، في هذا الذي نطلق عليه المكان والزمان، أو بالتعبير القرآني الواسع، حيث إن الانسان - باعتباره محدوداً - لا يمكن أن يتحول إلى مطلق، ويظل المدرك أو القابل للإدراك، هو ضمن هذا الوسع، الذي هو مناط التكليف:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة، الآية: 286]

والكسب والاكتساب يقتضيان المسؤولية، والمسؤولية معرفة، ومن المسؤولية يبدأ مشروع المعرفة بطرح الأسئلة، ومن ثم حدد القرآن مسؤولية السمع والبصر والفؤاد:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾
[سورة الإسراء، الآية: 36]

والسمع والبصر والفؤاد ليس الأدوات، بل هذه القصدية التي يوجه الإنسان بها سمعه وبصره وفؤاده، سائلاً أم مسؤولاً، ولنا أن نضيف إلى مفاهيم السائل في العربية، أو السؤال في هذه الحالة، التي هي ضد الجمود والصلابة والتيبس، فكأن السؤال في حالة صيرورة، وحركة تعطي مشروع الفهم والوعي الإنساني مداه، نحو إدراك المعنى الذي هو المطلق، ضمن الإنسان، أو هذا الغيبي في الزمان غير المدرك بعد، الذي يقتضي الكشف والاستكشاف، وبذلك فإن المفهوم هو بعض المعنى، والمعنى هو المطلق الذي يتمظهر من خلال المفهوم، ومن خلال التظرف أو الممكن، وهذا يقودنا إلى أن المفهوم هو ضمن المعرفة، وأن المعرفة هي بعض العلم لا كله، وأن ما أدركه الانسان من هذا العلم، أو من هذا الغيبي هو القليل:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾
[سورة الإسراء، الآية: 85]

من هنا فإن القراءة تفتح للإنسان على مشروع العلم، من خلال التقدم في المعرفة ضمن هذا المفهوم أو المدرك أو الواسع، القابل بالتقدم في المعرفة إلى التوسع، مثلما هذه القابلية ممكنة على مستوى الانسان الفرد، بهذا البعد المحدود، إلا أنها مشروع إنساني منفتح على المستقبل، ولنا هنا أن نذكر بأن إشارة الفتحة في الخط العربي، هي خط أفقي (ـَ)، وهذا الخط الأفقي، يعطي هذه القابلية للانفتاح، ومن ثم - ومع التأكيد على العلاقة بين الإعراب والمفهوم والمعنى، حيث الإعراب هو فرع المفهوم، والمفهوم هو بعض المعنى - فإن الفتحة هي غير الضمة، وهي غير السكون، وهي غير الكسرة، هي مشروع منفتح على هذه الولادة المفهومية، وعلى مشروع الاستخلاف المفهومي، وصولاً

إلى استيفاء المعنى أو اكتمال المعنى، وهذا ما سنوضحه في دراسات قادمة.

إن هذه الفتحة، أو هذا السلب المفهومي، أو ما نطلق عليه بطرح السؤال، إنما هو إشارة إلى المعنى في ذهن الإنسان، إلى حالة القلق بسبب هذا النقص المفهومي، وهذا القلق هو من طبيعة الانسان نفسه:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾

(سورة الكهف، الآية 300)

والجدل هو هذه التقوية، بخلاف المفهوم الذي يقدمه البعض لمصطلح (الدياليكتيك في القاموس الأوروبي)، الذي يفهم منه التناقض، والنفي، والإقصاء، الذي يحتاج فيه منهج التفكير الأعجمي الأوروبي إلى البحث عن قالب تركيبي، حيث منهج التفكير الأعجمي، هو منهج مشرك من هذه الناحية، أي أنه لا يفهم الحقيقة إلا مركبة، ولا يفهم المركب إلا مفككًا ومحللاً، فالتحليل والتفكيك، مثلما التركيب، قد يصدق على الأشياء الفيزيائية، ولكن لا يصدق بالكامل على الإنسان، فالإنسان ليس محض شيء، بل هو مخلوق نفخ الله فيه من روحه، اجتاز بذلك الجمادات، بل ومن دونه من المخلوقات الحية من ذوات النفس.

الدياليكتيك في القاموس الأوروبي يفهم منه التناقض، والنفي والإقصاء

إن السلب فيه مفهوم الإيجاب، أي فيه هذا المفهوم للمشاركة، أو قل لهذه الولادة المفهومية، التي تقتضي الامتداد بالاستخلاف، وسنشير في دراسات قادمة إلى العلاقة بين الامتداد، والولادة، والماء، والبحر والحبر، والفرق بين الخط والكتابة؛ نعود إلى القول: إن السلب هو سلب، وهو بالمفهوم المتداول إيجاب في ذات الوقت، فما نطلق عليه السلب، هو امتلاء في السلب، وهو فراغ في الإيجاب، وما نطلق عليه الإيجاب، هو امتلاء في هذا الإيجاب، الذي هو نقص في السلب، ومن التقاء الاثنين يبدأ مشروع الولادة المفهومية، كما هو مشروع، أي ولادة أخرى، بما في ذلك الولادة البشرية، وإذا حاولنا أن نقارب بين الإشارة والعلامة، في هذه العلاقة الجدلية بينهما، فإن ما نرسمه في الخط على أنه الزائد (+)، هو ليس سوى هذا الخط الأفقي، الذي يلتقي مع الخط العمودي، ونقطة الالتقاء هي نقطة الولادة، تمامًا كما تلتقي نطفة الذكورة، ببويضة الأنوثة، وبهذا فإن الذكورة سلب في الأنوثة، ولكنها امتلاء وإيجاب في الذكورة، وذات الأمر بالنسبة للأنوثة، وهنا ننبه إلى أن الدراسات الحديثة، تعطي أهمية كبيرة لمفاهيم الإشارات، وإن كان اللسانيون المهتمون بالعربية، قد انتبهوا إلى ذلك منذ القدم، فالجاحظ، في كتابه «البيان والتبيين»، يوضح لنا، أن الإشارة هي فرع من فروع البيان، يسميه: البيان بالإشارة، فهذه الإشارة بذلك، مرتبطة بالعلامة، والعلامة ذات مضمون مفهومي، هو غيبي بالنسبة للمتلقي، وهنا نربط بين العلامة بهذا الامتداد الصوتي، الذي يعطيه الألف، الإشارة الخطية، والعلم، فبدون الإشارة، يظل المتلقي جاهلاً بالمعنى، الذي هو في حالة الغيبي، فلا غرو، ونحن نتحدث عن الشاعرية، وعن معاني الشعر، أن نقول: (إن المعنى في بطن الشاعر)، والبطن أو الجوف، كناية عن المجهول والغيبي والباطني، الذي يظهر من خلال الإشارات، صوتية كانت أم حركية ظاهرية، حيث الصوت حركة بعضها ظاهر وبعضها غير ظاهر، أم خطية، فكلها وسائل، مع أدوات تخرج هذا الباطن أو هذا السر وتظهره، وهو ما يربط بين مشروع القراءة القرآني، ومشروع الخط.

إن القراءة هي غير التأويل، والوحي القرآني عندما يأمر الرسول الكريم بأن يقرأ في قوله تعالى:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۞ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۞ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۞ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۞ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۞﴾

[سورة العلق، الآيات 1-8]

هذا الأمر، يعطي في قراءتي الخاصة، هذه الأبعاد التي رميت الوصول إليها، من خلال هذا المبحث في القراءة، والعلاقة بين القراءة والأدب والمأدبة، فهذه القراءة المأمور بها الرسول ﷺ، وبداهة المأمورون بها نحن، باعتبار الرسول الأسوة الحسنة، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيرًا:

﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾

[سورة الأحزاب، الآية: 21]

وهذه الأسوة تحكم علاقتنا بالرجاء من هذا الغيبي، وهذا الغيبي الذي هو الله واليوم الآخر، وارتباط ذلك بالذكر والذاكرة، ودور القراءة ووسائل التذكير، ومن ذلك الخط والقلم؛ أقول: إن آية قراءة لا تكون باسم الله، هذا إذا اعتبرنا القراءة هي فعل، أي فعل القراءة، الذي يرتبط بالمسؤولية التي أشرنا إليها، المسؤولية بمعنى السؤال، أي البحث عن المفهوم، والمسؤولية بمعنى الاتصال: اتصال القارئ، الذي هو غائب بالنسبة لصاحب المتن المكتوب، أي أنه غير مقصود بعينيه، إذا كان هذا المكتوب خطًا، هو غير متعين، وغيبة صاحب المتن عن القاري، إذا كان هو الآخر غير متعين، وبذلك تكون القراءة، محاولة لقراءة كل واحد منهما للآخر، أي قراءة ضمن الغيبي، وفي قراءة الوحي القرآني لأنه وحي هي قراءة لوحي من الغائب، الذي هو الله، والغيبة بمعنى الإطلاق والخروج من دائرة المحدود المكاني الزماني، وإن كان الموحى إليه معلوم له، وهذا هو الفرق بين الوحي والخط، أي بين الشريعة الموحى بها، التي هي القرآن، وبين الشريعة المخطوطة على ألواح، كشريعة بني إسرائيل، حيث فتحت شريعة بني إسرائيل المخطوطة، مجالا للتأويل التحريف، وهو سر تقديسهم للخط، في حين فتحت شريعة القرآن المشروع للقراءة، والقراءة على الأحرف السبعة، من أجل الفهم، ولكن هذه القراءة، لا تكون إلا باسم هذا الغيبي الذي هو الله، ومن ثم يكون هذا الغيبي، هو عالم الغيب من خلال مقاربة ضمن الممكن، هو عالم الشهادة، ومن ثم كان أمر الرسول الذي لم يخط من قبل القرآن من كتاب، ولم يتله مخطوطًا:

﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾

[سورة العنكبوت، الآية: 48]

ما الفرق بين الوحي والخط، بين الشريعة الموحى بها والشريعة المخطوطة؟

أمراً مفهومًا، فالقراءة هي غير التلاوة، والتلاوة هي هذا التعاقب المكاني الزماني، من قولنا: (يتلو بعضه بعضا)، فالرسول لم يتلُ شرائع من قبل، ولم يخط كتابًا بيمنه إذا فكان الشك والارتياب من هؤلاء المبطلين، ولكن القراءة هي قراءة باسم الله، تحفظ هذه القراءة من الانحراف والتحريف، وتحفظ صاحبها، وإن كانت تضعه باستمرار ضمن هذا المشروع المنفتح على القراءة، مشروع ولادة المفاهيم، ولادة شرعية في هذا الرحم، أو قل في مقتضيات الرحمة الإلهية، التي اقتضت أن يخلق الله بها الإنسان، وأن يعلمه البيان وأن يعلمه القرآن، أي يعلمه القراءة:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۞ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۞ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [سورة الرحمن، الآيات: 1-5]



التعاون الثقافي العربي الإفريقي

د. شارنو كاه الحبيب*

إن التعاون الثقافي العربي الإفريقي، ظهر منذ عهد تاريخي قديم، بل منذ ظهور العلاقات العربية الإفريقية، على مدى القرون التاريخية القديمة، التي كان يمثلها التجار العرب المسلمون، الذين كانوا يأتون من المشرق العربي إلى المغرب العربيّ، والمغرب الإفريقي، والغرب الإفريقي جنوب الصحراء، عابرًا في كل ذلك، من الشرق الأوسط العربيّ، إلى الشرق الإفريقي العربيّ، وغير العربي[1].

كان التجار العرب المسلمون، يمثلون هذا التعاون أحسن تمثيل، بحيث كانوا يغادرون بلدانهم، وهم يحملون بضائعهم المخلفة، من جلود وملح، وذهب، وأحجار كريمة، وكتب وقصائد عربية متعددة ومتنوعة، في أغراضها الأدبية والعلمية، وكتب دينية، ذات أغراض تعليمية، حيث عاشوا يمارسون تجارتهم، ويهتمون في نفس الوقت، بترغيب الناس في الشعر العربي القديم، وتعلّم الأسس الدينية كمبادئ التوحيد، والفقه وغيرهما، مما يجعلهم يعتنقون هذا الدين الحنيف.

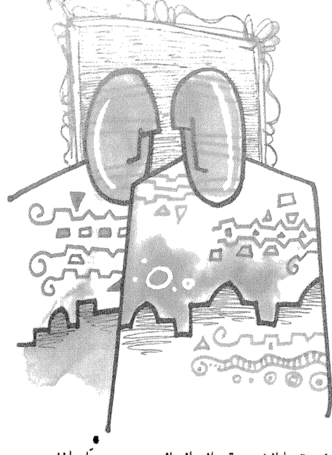
كانت قوافل أولئك التجار، تجوب العالم العربيّ من شرقه إلى وسطه، ثم إلى المغرب العربيّ، وصولاً إلى غرب إفريقيا جنوب الصحراء، مرورًا بالشرق الإفريقي وإفريقيا الوسطى[2].

وكان تقارب الحضارات والثقافات بين مواطني العالم العربيّ، ومواطني القارة الإفريقية، يسهل نشر الثقافة العربية في الأقطار الإفريقية، المتنوعة اللغات والقوميات، ولكن العامل الديني لعب دورًا أساسيًا مجديًا ومثمرًا، في توطيد التعاون الثقافي والعلميّ بين العالمين، العربيّ والأفريقي.

الدور الثقافي بين البلدان والممالك، في توطيد هذا التعاون الثقافي:

كانت بلاد الحجاز تلعب دورًا كبيرًا في توثيق التعاون الثقافيّ، بين العالم العربيّ والإفريقي، حيث كانت سوق عكاظ، محل لقاء الأجناس والشعوب والقبائل المختلفة، من أجل التبادل التجاريّ والعلمي والثقافي، وكان الشعراء يحضرون إلى هذه السوق، ويحملون منتجاتهم الشعرية وقصائدهم الأدبية، يعرضونها على الجماعة الحاضرة من التجار، وروّاد الأدب والثقافة، ويختارون من أحسن القصائد وأجودها، ثم يعلقونها على الكعبة الشريفة، بعد كتابة أحسن قصيدة بماء من الذهب[3]، ويعتبر ذلك أول

* أستاذ جامعي / النيجر.
(1) عبد الله البكري (1040 ـ 1094م)، المسالك والممالك، طبعة الجزائر.
(2) المصدر نفسه.
(3) انظر: المعلقات السبع.



لقاء ثقافي بين إفريقيا والعالم العربيّ، بتمثيل من الأحباش وسكان صومالي، وبقية دول شرق إفريقيا، التي كانت لها علاقة تجارية مع الحجاز، ونجد في شبه جزيرة العرب، واليمن، والعراق بكافة مدنه التاريخية، كبغداد، والبصرة، والكوفة، ولعبت مراكز بغداد والبصرة والكوفة، دورًا ثقافيًا كبيرًا، في العالم الإسلاميّ بأسره(4).

وهذا الإشعاع العلمي والثقافي، ظهر في الميادين المختلفة، من حيث التعليم اللغويّ والأدبيّ، وانتشار كتب النحو ودواوين الشعر والمختارات الأدبية والقصص المأثورة، ومحلها دليل ثابت على وجود تعاون ثقافي عربيّ إفريقيّ قديم.

الاتصالات الثقافية بين الممالك العربية والإفريقية:

كانت الممالك العربية في كل من الحجاز، ومملكة سبأ في اليمن، وكافة مراكز العراق، ذات اتصالات ثقافية عديدة، مع ممالك إفريقيا مثل: كانم، وسنغاي، وغانا، ومملكة تكرور، في غرب إفريقيا.

الشواهد الأدبية من الشعر العربي، تثبت وجود علاقات ثقافية متطورة، بين الأقطار المذكورة(5).

واشتهرت مدينة الإسكندرية في مصر، وبرقة وبنغازي وسبها في ليبيا، في ربط هذه العلاقات الثقافية، بين البلدان المذكورة، لوجود طرق ومسالك، لتمكين الاتصالات بين الشعوب والقبائل، من سكان تلك الممالك التاريخية القديمة، التي ما زالت حتى اليوم، تلعب دورًا إيجابيًا في الميدان الثقافي(6)، وتعتبر مدينة شنقيط في موريتانيا الحالية، همزة وصل بين إفريقيا الغربية، والعالم العربي، مرورًا بالمغرب الأقصى العربي.

التعاون الديني والثقافي بين تلك البلدان في العالم العربي والإفريقي:

ظهر التعاون الديني والثقافي بين تلك البلدان، منذ ظهور الإسلام في هذه الأقطار. وأثبتت الدراسات الجامعية والبحوث العلمية العديدة، بأنه ومنذ ظهور الإسلام في بلداننا الإفريقية، بدأت اللغة العربية والثقافة الإسلامية، تأخذ منهجها نحو الانتشار الديني والثقافي والاجتماعي(7). ولكون اللغة العربية لغة القرآن الكريم، ولغة العبادة لدى المسلمين، ساعد على التعاون الثقافي بين أفراد المسلمين، المتمسكين بهذا الدين الحنيف، مما جعل كل مسلم يتعلم القرآن

(4) تاريخ الأمم الإسلامية، محمد الخضري بك، دار الفكر بمصر.

(5) الأستاذ الدكتور: عبد الجليل التميمي وآخرين، ندوة الثقافة العربية الإسلامية بإفريقيا، جنوب الصحراء، غرب إفريقيا، نموذجاً، تونس زغوان 1997م.

(6) المصدر نفسه.

(7) د. أبابكر صمب: التأثير الثقافي الديني للعالم العربي في إفريقيا، جنوب الصحراء - إفريقيا العربية (ندوة الثقافة العربية الإسلامية)، تمبكتو، أغسطس 1997م، ص112 - 113.

الكريم، لأداء صلواته الخمس المكتوبة عليه، وعلى هذا الأساس فتحت الدول العربية جامعات عربية وإسلامية ومراكز ثقافية، لاستقطاب الشباب المسلم الإفريقي، والشباب المسلم العربي.

التعاون الثقافي بين الجامعات العربية الإسلامية، والدول الإفريقية:

يتمثل هذا التعاون الثقافي العربي الإفريقي، في فتح الجامعات العربية الإسلامية في العالم العربي، والجامعات الإسلامية في إفريقيا، وكذلك المراكز الإسلامية بين البلدان المذكورة.

فتحت هذه الجامعات أبوابها للراغبين في العالم، من الطلبة والأساتذة والباحثين، وقد ذهب هؤلاء بحثًا عن العلم، إلى كل من: القيروان في تونس، والقرويين في المغرب، وجامعة الأزهر في مصر، التي تم إنشاؤها منذ عهد الفاطميين.

التعاون العربي الإفريقي قديم قدم التاريخ الإسلامي.

وهذه الجامعات وغيرها، توجه إليها الأفارقة القدامى، لطلب العلم والبحث عن فوائده.

وقد عرف الاحتكاك الثقافي، بين المدارس والمراكز الإسلامية القديمة في إفريقيا، وبين هذه الجامعات، ويمكن إعطاء مثل حي في مدرسة القاضي عمر فال، أحمد بابا في تمبكتو بمالي، ومدرسة في بيسا نجوخور في السنغال، اللتان لعبتا دورًا كبيرًا في الاشعاع الثقافي، بمختلف الأقطار الإفريقية الغربية، كما لعبت دورًا مماثلاً للجامعة الإسلامية في صوكتو، ومركزها الإسلامي[8].

وهذا التعاون الثقافي، ساهم في نشر الثقافة العربية الإسلامية، في مختلف الأقطار الإفريقية في الشرق والوسط الإفريقي.

التعاون بين الجمعيات الإسلامية في العالم العربي والإفريقي:

ومنذ بداية الاستقلال عن الاستعمار الغربي، بدأت العلاقات الثقافية بين الدول الإفريقية والعربية، تظهر بشكل آخر، أكثر وضوحًا من السابق القديم، لوجود اتفاقيات علمية وثقافية، موقعة بين الحكومات المستقلة، حيث يتم بواسطة هذه الاتفاقيات، إرسال طلاب العلم إلى تلك الجامعات للدراسة، وعاد هؤلاء الطلبة إلى بلدانهم بتخصصات مختلفة، ومستويات علمية متباينة، وبعد عودتهم إلى بلدانهم انخرطوا في وظائف مهنية مختلفة، وبعضهم في وزارة الداخلية للتعاون الداخلي، والبعض الآخر في وزارة الثقافة للتعاون الثقافي، والغالبية العظمى في التعليم، في وزارات التربية لنشر العلم والثقافة العامة، بعضهم في المدرسة الوطنية لتكوين الأطر الإدارية، لتولية المهام والوظائف الإدارية والدبلوماسية في الخارجية[9].

المؤتمرات التعاونية الثقافية بين العالم العربي والإفريقي:

بعد استقلال الدول العربية والإفريقية في الستينات، وعلى وجه التحديد 1960م، بدأت المؤتمرات تعقد في كثير من الدول المعنية بهذا التعاون، وكان مؤتمر أكرا في غانا، الذي عقد في وقت ارهاصات

---

(8) د. شارنوكاه الحبيب: الأضواء على المراكز الإسلامية في السنغال، (ندوة الجامعات الإسلامية)، جامعة إمام عبدالقادر بقسنطينة، الجزائر، 1988م.

(9) المصدر نفسه..

الاستقلال، ومطالبته في عام 1958م، وشارك في هذا المؤتمر كل من: السودان، وليبيا، ومصر، والمغرب، وغانا، الخ. وكان هذا المؤتمر من أجل إيجاد سبل تعاون الدول، لتطوير الحالات السياسية، والاقتصادية، والعلمية، والثقافية. ومن هذه المؤتمرات أيضًا، مؤتمر دار البيضاء، لدراسة العلاقات العربية الإفريقية، والمغربية الإفريقية، وقد وصف علال الفاسي هذا المؤتمر بقوله: «أمّا عملنا للتعاون مع الدول الإفريقية، فقد دخل منذ مؤتمر الدار البيضاء في طريق واقعي، حتى صحّ للصحافيين الفرنسيين أن يكتبوا، بأن مؤتمر الدار البيضاء انقلب إلى منظمة للتعاون الإقليمي، بين أعضائه الأفارقة[10]، أما مؤتمر مونروفيا 1961م، فشاركت فيه حوالي إحدى وعشرون دولة عربية وإفريقية، وعن هذا المؤتمر، قال علال الفاسي منتقدًا: «مؤتمر مونروفيا الذي يضم أعضاء الرابطة الفرنسية، اجتمع ليؤيد الاستعمار ويتعاون ضد كفاحنا التحرري، ولكن صمودنا في موقفنا، زعزع الدعائم القائم عليها ذلك الارتباط الفرنسي الإفريقي(11)» وهذه المؤتمرات وغيرها عقدت من أجل إيجاد علاقات ثقافية وتعاون عام.

خاتمة :

إن التعاون العربي الإفريقي، قديم مثل قدم التاريخ الإسلامي في بلداننا الإفريقية، لأن التجار الذين كانوا يأتون إلى بلداننا، كانوا يبنون علاقة جيدة مع الإفريقيين، الذين كانوا يستقبلونهم ببضاعتهم، وأن الدول الإفريقية، كان لها اتصال تعاوني مع دول العالم العربي، من حيث تبادل الثقافة والحضارة والأدب والفن، والمدارس العربية الإسلامية في الحجاز، ونجد، والبصرة، والكوفة، ودمشق، وغيرها من المدن الكبرى، وكان نفس الحال في مصر، وليبيا، وبقية بلدان المغرب العربي، كالمغرب وتونس والجزائر، وبلاد الشنقيط المجاورة للسنغال.

ومن أبرز معالم هذا التعاون العربي الإفريقي، تعاون الجامعات العربية الإسلامية مع طلابنا الذين يتوجهون إليها بكافة أقطار العالم العربي.

وبعد تخرجهم يرجعون إلى بلدانهم لتولي مهام العمل الإسلامي وغيره، من الوظائف المتوفرة لهم في كثير من القطاعات العملية، ومنهم من يبقى في العالم العربي، للعمل في التدريس، أو في أعمال أخرى، وفي مجال الدعوة إلى الله .

المراجع

1 - عبدالله البكري (1040 - 1094م)، المسالك والممالك، طبعة الجزائر.
2 - المعلقات السبع.
3 - د. عبدالجليل التميمي (الثقافة العربية الإسلامية بافريقيا/ جنوب الصحراء غرب إفريقيا)، تونس زغوان 1997م.
4 - د. بابكر صمب: التأثير الثقافي الديني للعالم العربي في إفريقيا جنوب الصحراء وأفريقيا الغربية (ندوة الثقافة العربية الإسلامية)، تمبكتو، أغسطس 1997م.
5 - د. شارنو كاه الحبيب: الأضواء على المراكز الإسلامية في السنغال، ندوة الجامعات الإسلامية، جامعة إمام عبدالقادر بقسنطينة، الجزائر، 1988م.
6 - علال الفاسي: منهج الاستقلال. مطبعة الرسالة، الرباط، 1962م.

(10) علال الفاسي: منهج الاستقلال. مطبعة الرسالة، الرباط، 1962م..

(11) المصدر نفسه.

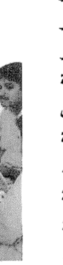


الدور الرائد للأوقاف الإسلامية

أحمد علي سليمان *

ظل الوقف الإسلامي على مدى ثلاثة عشر قرنًا من الزمان، صورة من أروع صور التعاون الإنسانين، وينبوعًا فياضًا من ينابيع الخير والعطاء، وعنصرًا إيجابيًا من عناصر التنمية الاجتماعية، ومظهرًا مشرقًا من مظاهر التعاون والتكافل؛ كما عمل على الاستقرار والطمأنينة، وإذابة الفوارق وسد الثغرات، بين فئات عديدة من أفراد المجتمع الإسلامي، بصور تحقق المتطلبات الدينية والدنيوية، بما يساعد على استمرارية المسيرة الإسلامية، نحو مجتمع مترابط ومتعاون ومتعاطف، تسوده المودة والتراحم والتآلف بين الناس، والحرص على نزع الشرور، وإحلال الخير والعمل الصالح في النفوس، لبناء مجتمع إسلامي يدافع عن قيمه ويحمي بنيانه، من جميع غوائل الحياة بما يواكب العصر، ويفي بمتطلبات ذوي الاحتياجات الخاصة من الفقراء والمساكين ومن لا عائل لهم، وذلك بإمداد ذوي المهارات بآلات الإنتاج والاستفادة منهم في عملية التنمية.

كما أن الوقف يعد من أهم الأنظمة في التنمية البشرية، لاعتبارات عديدة، منها: أن رسول الله ﷺ بدأ في تطبيقه منذ أوائل عهد الدعوة، بهدف إيجاد



مصادر دائمة للدخل القومي، في بلاد الإسلام، وتأمين الإنفاق منه على المصالح العامة... ثم أخذ الخلفاء الراشدون يتوسعون في تطبيقاته، فأخذ ينمو ويقوى في ظل التطورات التي حدثت في التاريخ الإسلامي، مع مختلف أنظمة الحكم في الدولة الإسلامية.

ولا يخفى على اللبيب أن الوقف نظام يتمشى مع مبادئ الحرية الاقتصادية، التي كانت الأساس في اقتصاد الدولة الإسلامية، فلم تكن الحكومات تتدخل في النشاط الفردي، ومن ثَمَّ فرض نظام الوقف نفسه، كنظام ضروري لمشاركة الفقراء الأغنياءَ، في الثروة بصورة مرضية من ناحية، ولرعاية المرافق العامة،

* رئيس قسم الإعلام والنشر برابطة الجامعات الإسلامية/ مصر.

ذات الطابع الخدمي، كالمساجد والمستشفيات والمدارس، من ناحية أخرى، والتي ربما لم تدخل في البرامج الحكومية بشكل ما. وكذلك فإن الوقف يشكل نظامًا تطوعيًا، لإعطاء الأغنياء جزءًا من أموالهم للفقراء، ابتغاء الأجر والثواب من الله تعالى، ولتشجيع المبادرات الفردية للنفع العام.

وقد تفنن المسلمون في تخصيص أوقافهم وتوجيهها، حتى بلغت ما لا يخطر على بال إنسان أن يفعله، فلم يترك المسلمون صغيرة ولا كبيرة، من الحاجات الأساسية للمجتمع الإنساني، إلا وأوقفوا عليها ما يسد خلتها ويدفع بها إلى الأمام، بنظام يطبق مبدأ التكافل الاجتماعي في الحياة بصورة موضوعية، تجعل من الواقع المعيشي للناس بكافة فئاتهم وطوائفهم واقعًا أغرب من الخيال...!!

ما هي طبيعة نظام الوقف في الإسلام؟

وسنركز في هذا المقال، على دور الوقف في تحقيق النهضة العلمية والتربوية والثقافية لدى المسلمين، من خلال المؤسسات التعليمية الموقوفة..

إن الحركة العلمية التي ازدهرت في عصور الإسلام لم تأت من فراغ، ولكن الناظر بعين الفحص الدقيقة، لابد وأن يُرجع هذا التراث العلمي إلى أسباب كثيرة، ولابد أن تكون أسبابًا خيِّرة، لأن العلم لا ينتشر إلا بالخير كما قال تعالى:

﴿...وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة، الآيه: 282]

فالعلماء المتقون، وجدوا لدى أنفسهم أن هذا العلم يدفعهم إلى أن يؤدوا أمانة الله فيه... ولما كانت حلقات العلم تضج بالطلاب، وجد أهل الصلاح والعبادة لدى أنفسهم، ما يدفعهم إلى بذل أموالهم لإنشاء مؤسسات تعليمية نظامية، تحمل راية العلم بكل دقة وإتقان، وبنظام محكم، فاقرضوا الله - من خلال أوقافهم - قرضًا حسنًا، بإنشاء المدارس، ووقفوا عليها الأوقاف الدَّارة، بما فيها من علماء وطلاب، كما أقاموا الكتاتيب والمكتبات والخنقاوات (❖)، ووقفوا عليها أيضًا الأوقاف المتعددة، لضمان استمراريتها، فغزا العلمُ - من خلال عالم جدير، وواقف كريم - جميعَ أنحاء العالم الإسلامي وبقاع الأرض كلها.

وفي هذه الإطلالة السريعة، سأسلط الأضواء على المساجد والكتاتيب والمدارس والمكتبات التي أوقفها أو أوقف عليها، أهل الخير والصلاح، والتي أدت إلى نهضة العالم الإسلامي في كل العصور.

أولاً: المساجد والكتاتيب:

إن المسجد في الإسلام لم يكن مكانًا للعبادة فحسب، وإنما كان إلى جانب ذلك مصدر إشعاع فكري وحضاري، فقد كانت المساجد تغص بطلاب العلم الذين يتحلقون حول العلماء والمدرسين، في فروع العلوم المختلفة، ومن ثَمَّ كان المسجد النواة الأولى للمدرسة في الحضارة الإسلامية، وأدى رسالته على أكمل وجه، وخرَّج الجمَّ الغفير من العلماء والمفكرين، وظلَّ المسجد يؤدي رسالته العلمية في كل عصور التاريخ حتى الآن. وأما الكُتَّاب فقد أقيم لتعليم الصبيان القراءة والكتابة والقرآن الكريم وبعض العلوم العربية والرياضيات.

وجدير بالذكر أن الكُتَّاب أُنشئ منذ عصر الصحابة، ويُذكر أن عطلةَ يوم الجمعة كانت بسبب أن أطفال الكُتَّاب، في المدينة، خرجوا يوم الخميس لاستقبال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهو عائد من رحلة فتح بيت المقدس، في مكان لا

❖ الخنقاوات: كلمة فارسية الأصل، مفردها خانقاهُ تعني رباطات الصوفية التي يقيمون فيها (التحرير).

يبعد كثيرًا عن دار الهجرة، ولكن الأطفال نالهم من السير على الأقدام في الذهاب والإياب عناء شديد، فأمر الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ ألا يذهب الأطفال إلى الكُتَّاب يوم الجمعة ليستريحوا مما نالهم من تعب وجهد، وصار الأمر بعد ذلك سنة لهم ولجميع العاملين في الدولة الإسلامية.

وكان الكُتَّابُ في بعض البلدان من السعة بحيث يضم مئات وآلافًا من الطلاب، فقد روي عن أبي القاسم البلخي أنه كان له كُتَّابٌ يتعلم فيه ثلاثة آلاف تلميذ، وكان هذا الكُتَّاب من السعة بمكان، الأمر الذي ألزمه أن يركب حمارًا ليتردد به بين طلابه، وليشرف على شؤونهم.

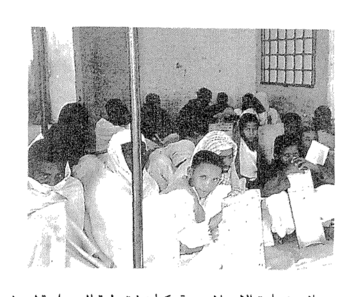
وقد كان هناك نوعان من الكتاتيب، وهما:

الكتاتيب الخاصة، وكان يقوم بإنشائها مَن يتخذ من التعليم حرفة له، ويأخذ عليه أجرًا، وكان يطلق عليه اسم المؤدب.

وأما كتاتيب الأيتام فكان ينشئها أهل الخير والعلم؛ لتعليم الأيتام والفقراء من أولاد المسلمين مجانًا، ويوقفون عليها الأوقاف الكثيرة، ويسير العمل فيها وفق شروط الواقفين، وتصرف فيها المعاليم النقدية والعينية لهم.

وواصل الكُتَّابُ القيام برسالته التربوية عبر عصور التاريخ، وعرفت المكتبة الإسلامية دراسات ومؤلفات كثيرة من معلمي الصبيان، تجلى فيها مدى الإحاطة بما يجب على المعلم نحو تلاميذه، وما يجب على هؤلاء التلاميذ نحو معلمهم، وقد بَزَّ فيها علماء التربية الإسلامية وغيرهم، من المهتمين بالدراسات التربوية، حتى في عصر النهضة العلمية الحديثة. وظلَّ الكُتَّابُ يؤدي رسالته التربوية، لا سيما فيما يتعلق بحفظ القرآن الكريم إلى عهد قريب. وقد كان من هؤلاء مَن يتم حفظ كتاب الله كاملاً وهو في العاشرة من عمره أو دونها.

وبذلك نستطيع أن نؤكد أن (الكُتَّابَ) في تاريخ



الحضارة الإسلامية، كان نقطة البداية لهذه الحضارة، لأنه كان يؤهل الأطفال لمواصلة الدراسة والبحث والتخصص العلمي الدقيق. فقد كان المسجد ثم المدرسة تستقبل هؤلاء الطلاب بعد أن يزودهم الكُتَّاب بمبادئ التحصيل، وصقل مواهبهم وتنمية قدراتهم العلمية، ثُم يقوم المسجد وكذلك المدرسة بأداء الرسالة العلمية كاملة نحو هؤلاء الأطفال، ليصبحوا فيما بعد قادةَ العلم والفكر ونشر العقيدة والمعرفة..

من هنا يتضح لنا أن الوقف أثَّر تأثيرًا كبيرًا في نمو الحضارة الإسلامية وازدهارها علميًا من خلال المساجد والكتاتيب الموقوف عليها، فنشأ جيل تربى وتعلم في هذه المؤسسات فكان منهم العلماء والمفكرون والأدباء الذين صنعوا الحضارة الإسلامية في عصورها المختلفة.

ثانيًا المدارس:

بدأ إنشاء المدارس بعد أن استقرت حركة الفتوحات الإسلامية نسبيًا، فلما تضاعف إقبال طلاب العلم على حلقات المساجد وأخذ التخصص العلمي الدقيق يظهر بين الدارسين والباحثين كَثُر بناء المدارس التي ملأت مدن العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، ويذكر التاريخ نفرًا من أمراء المسلمين كانت لهم اليد الطولى في إنشاء المدارس في مختلف

الأمصار، من خلال أوقافهم، منهم: (صلاح الدين الأيوبي) الذي أنشأ المدارس في جميع المدن التي كانت تحت سلطانه.. في مصر ودمشق والموصل وبيت المقدس.. كما تسابق العظماء والأغنياء والتجار في بناء المدارس والوقف عليها بما يضمن استمرار إقبال الطلاب على الدراسة فيها.. وكثير منهم جعلوا بيوتهم مدارس وجعلوا ما فيها من كتب وما يتبعها من عقارات وقفًا على طلاب العلم الدارسين فيها.

والحق أن المدارس التي كان الوقف وراء إنشائها كثرت كثرة هائلة ومدهشة، لدرجة أن (ابن جبير) - الرحالة الأندلسي - هَالَهُ ما رأى في المشرق من كثرة المدارس والغلات الوافرة التي تغلها أوقافها، فدعى المغاربة أن يرحلوا إلى المشرق... ويكفي برهانًا على ذلك أن الإمام الزاهد التقي الورع (الإمام النووي) لم يكن يأكل من فواكه دمشق طيلة حياته؛ لأن أكثر أغواطها وبساتينها أوقاف، وليس ذلك في دمشق فحسب؛ بل كان في غيرها. لقد كانت تلك المدارس مراكز إشعاع علمي وحضاري كل ذلك جاء ثمرة الأموال الموقوفة بهدف تنمية الدراسة العلمية والنشاط الثقافي.

هذا وقد جرت العادة أن ينشئ السلطان أو غيره المدرسة ثم يوقف عليها الأوقاف الواسعة ليمكن عن طريقها إدامة هذا الجهد التربوي واستمراريته، حتى يستطيع الشيوخ والطلاب التفرغ لأداء رسالتهم في اطمئنان وراحة بال، فالشيخ يأخذ راتبًا نقديًا كل شهر، ورزقًا كل يوم من خبز ولحم وغيره، وكسوة مرتين سنويًا (شتاءً وصيفًا)، وكذلك الطلاب. ومن هنا نستطيع أن نقرر أن التعليم في هذه المدارس لم يكن مجانيًا فحسب؛ بل كفل لهم المطعم والملبس والمسكن، فضلاً عن المقررات النقدية والعينية التي كانت تُصرف لهم وفق شروط الواقفين.

وكانت بعض المدارس بالإضافة إلى ما تقدمه لطلابها من علم ترعاهم صحيًا، فقد كان بجوار بعض المدارس مستشفى لعلاج المرضى من الطلاب والشيوخ بالمجان. ولم يقتصر أثر الأوقاف على التعليم فحسب بل تعدى ذلك إلى كافة جوانب العملية التعليمية، حتى ليمكننا القول بأن وثيقة الوقف كانت بمثابة اللائحة الأساسية للمؤسسة التعليمية والتي تضم الأسس التربوية للتعليم والشروط التي يجب أن تتوافر في القائمين بالتدريس ومواعيد الدراسة وطرق التدريس والكتب الدراسية وعدد الطلاب والإجازات السنوية (المسامحات) وإنشاء المدارس وإمدادها وتزويدها بالكتب وشروط خازن الكتب ووضع نظم الاطلاع والاستعارة... بما يكفل المحافظة على الكتب واستمرار أداء رسالتها... وما إلى ذلك من التنظيمات الإدارية والفنية والمالية.

وثيقة الوقف كانت بمثابة اللائحة الأساسية للمؤسسة التعليمية

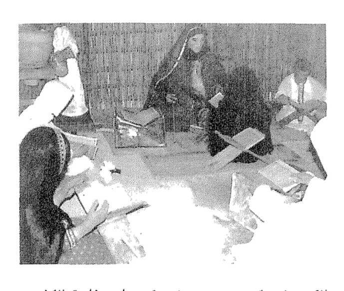
والواقع أن الأوقاف والأحباس التي كانت توقف على المدارس والمساجد والمكاتب والخنقاوات وغيرها هي التي دعَّمتها ومكنتها من الانتظام في أداء رسالتها. وإذا كانت الدراسة في تلك المدارس مفتوحة لكل راغب في العلم دون قيد أو شرط، وإذا كان طلاب هذه المدارس يتمتعون بكل الرعاية، فإن الأساتذة الذين يقومون بالتدريس فيها كانوا ينتخبون ممن شهد لهم الشيوخ بالكفاءة العلمية، وكان المتخرجون في هذه المدارس يُمنحون إجازة علمية باسم شيخ المدرسة، وهي تشبه المؤهلات العلمية في عصرنا الحاضر، وما كان للأطباء أن يمارسوا مهنة الطب إلا بعد نيل الشهادة أو الإجازة من كبير أطباء المدرسة. وكان العلماء والمدرسون في صدر الإسلام، لا يأخذون أجرًا على ما يقومون به من تعليم، وكانوا يرون أن هذا فرضًا عليهم، ولا يجوز أن يأخذوا عليه راتبًا، وكانوا يؤمنون بأن البخل بالعلم لؤم وظلم، والمنع منه حسد وإثم.

لقد أوقف العلماء، قدر المستطاع، على العاملين في حقل التعليم بمراحله المختلفة من حرث وبذر وتعهد وعناية وجني وحصاد، وذلك بمقدار ما يملك كل منهم من مال أو ثروة، فنجد بعضهم بنى كُتَّابًا أو مدرسة أو زاوية أو مسجدًا أو خانقاه. وأوقف عليها الأوقاف المناسبة لاستمرار العلم والعبادة فيها. ونجد البعض لم يتمكن من بناء مؤسسة علمية، فيتبرع عن طيب خاطر بكتبه وقفًا على طلاب العلم. والبعض الآخر وقف الدوي(❖❖) والأحبار على طلاب العلم ونسَّاخ الكتب.. والبعض من العلماء كان يتبرع بثياب بدنه لطلابه، وكان بعضهم يُولم لطلابه ويقيم لهم الموائد الفاخرة بين الحين والآخر، وكذلك في المناسبات كالأعياد والمواسم أو عند ختم شرح كتاب من الكتب، وغير ذلك كنوع من الصلات الطيبة بين الطلاب وشيوخهم.

لقد أثرت المدارس الموقوفة على الحركة العلمية والتربوية والثقافية تأثيرًا بالغًا، مما جعلنا نقف مشدوهين متعجبين أمام هذا العطاء الذي سال من أيدي المسلمين إلى شتى بقاع الدول الإسلامية فغمرها علمًا ورحمة ومودة وترابطًا للإسلام والمسلمين.

ثالثا المكتبات :

إن الحديث عن المكتبات وثيق الصلة بالحديث عن المدارس، فقد أدرك كل الواقفين للمدارس وحلقات الدرس في المساجد، أهمية الكتب في العملية التعليمية، وأن الاقتصار على تشييد الأبنية وتوفير هيئة للتدريس غير كاف، فاهتموا بوقف الكتب عليها، لتكون وسيلة ميسرة للتحصيل والمراجعة، توفر مادة علمية يستند إليها المعلم والمتعلم في وقت واحد، فأصبح من المعتاد وجود مكتبة في كل مدرسة أو جامع أو رباط، وقف على طلبة العلم وغيرهم، وترجع أهمية المكتبات إلى أن



الكتب لم تكن متيسرة ولم يكن باستطاعة الكثيرين شراؤها، نظرًا لارتفاع أثمانها، لأن الكتب قديمًا كانت عبارة عن مخطوطات باهظة التكاليف لارتفاع أثمان مواد الكتابة، من الأوراق والمداد بالإضافة إلى ارتفاع أجرة اليد العاملة في النسخ، وندرة هذه الطائفة، لذلك انتهز كل من كان خطه جميلاً فاشترك في عملية النسخ.

إن المكتبة لعبت دورًا مهمًا في تشجيع الحياة العلمية وتنشيطها، عبر العصور المختلفة التي ساد فيها انتشار المدارس، والتي ألحق بمعظمها مكتبات لتكون عونًا للأساتذة والطلاب في البحث العلمي.

وجود هذه المكتبات، أبعد الطلاب عن جشع بعض التجار ومغلاتهم في أثمان الكتب، فكان ثمن الكتاب يبلغ حدًا يتعذر على طالب العلم أو العالم الفقير شراؤه، فكيف إذا أراد أن تكون له مجموعة من الكتب في الفن أو العلم الذي يتخصص فيه؟.. ومن هنا كان قيام المكتبات في المجتمع الإسلامي منبعثًا من عاطفة إنسانية ونزعة علمية ودينية في وقت واحد.

ومع ازدهار حركة التأليف ونشاط الحركة العلمية في العالم الإسلامي وكثرة الدارسين وصعوبة الحصول على الكتب لعدد كبير من هؤلاء الدارسين، بدأ الشعور بأهمية توفير الكتب للراغبين في البحث يتعمق في

❖❖ الدُّوِي: مفردها دَواة وهي المحبرة التي يوضع فيها صمغ الكتابة (التحرير).



نفوس الحكام والولاة والعلماء والأثرياء، ووجد هؤلاء في الكتاب وسيلة من وسائل العمل الخيري من منطلق الرغبة في إشاعة العلم، والتغلب على مصاعب ومتاعب الحصول على الكتب لطلبة العلم، ونجم عن ذلك ظهور الوقف الخاص بالكتب والمكتبات، وتنوع هذا الوقف فشمل وقف مكتبات بأكملها ووقف كتب على المساجد والمدارس والمستشفيات والمراصد.

تزويد المكتبات :

أما تزويد المكتبات فكان يتم عن طريق عدة موارد، أهما:

1 ـ **الواقف**: وهو منشئ المدرسة عادة، وكان يحبس على خزانتها مجموعة كبيرة من الكتب والمصاحف التي تحويها خزانته الخاصة وغيرها من أدوات الكتابة.

2 ـ **الهدايا والهبات**: التي كان يقدمها بعض السلاطين والأمراء والعلماء والفقهاء وأهل النباهة والجاه والمال، وكذلك المدرسين بالمدرسة نفسها، وكانت هذه الكتب تحبس حفاظًا لها من الضياع، ولينتفع بها طلبة العلم الشريف على مدار العصور.

3 ـ **النسخ**: الذي كان يعتبر وسيلة لتزويد المكتبة، فكانت الكتب تنسخ بواسطة الناسخين والطلبة والصوفية المنزلين بالمدرسة أو الخانقاه.

4 ـ **الشراء**: من أسواق الوراقة وتجار الكتب، ويبدو أن شراء الكتب من ريع الوقف كان أحد الوسائل للحصول على المخطوطات والكتب النادرة التي يحتاج إليها الطلاب في الدراسة. ويلاحظ أن الكتب والمصاحف والربعات التي كانت تُزود بها خزانة المدرسة من خلال الطرق السابقة كان يكتب عليها لفظ (وقف). وهكذا انتشرت خزائن الكتب الوقفية منذ القرن الرابع الهجري، بحيث يمكن القول بأنه قَلَّمَا تخلو مدينة من كتب موقوفة.

وجدير بالذكر أن هذه المكتبات الوقفية كانت تخضع لأسلوب علمي في الإدارة والخدمة المكتبية، فهناك رئيس المكتبة، وكان يسمى خازن المكتبة، وهو دائمًا من أشهر علماء عصره، وهناك المناولون الذين يناولون الكتب للمطالعين، وهناك المترجمون الذين يترجمون الكتب من غير العربية إليها، والعكس، زد على ذلك النسَّاخ والمجلدين والخدم وغيرهم ممن تقتضيهم حاجة المكتبات. إن المكتبات الوقفية ساهمت

مساهمة جوهرية وفعالةً في التنمية العلمية والثقافية، حيث كانت قبلة لطلاب العلم تعينهم على التزود بكل جديد، وتوفر لهم فرص مواكبة الأفكار والآراء المدونة لمؤلفين ومفكرين من أرجاء العالم الإسلامي كله.

فهل سمعتم، أن مكتبة من مكتبات العالم في العواصم الكبرى الآن، مثل لندن وباريس وواشنطن تمنح طلبة العلم الغرباء والفقراء، الأدب والأموال؟ إنها حضارة الإسلام الإنسانية التي لا نظير لها في كل الحضارات التي عرفتها البشرية قديمًا وحديثًا.

وبعد، فإن دور الوقف في التنمية العلمية والثقافية في تاريخ الحضارة الإسلامية قام على الدعائم التالية:

أولاً: الاستفادة من المساجد في التعليم بإيجاد زوايا العلم وحلقات الدرس.

ثانيًا: تشييد المدارس وتعيين المدرسين فيها والإنفاق على طلبة العلم ومعلميهم.

ثالثًا: العناية بتوفير مصادر المعلومات في المساجد والمدارس والمستشفيات عن طريق المكتبات الوقفية. وإذا كان دور الوقف في التنمية العلمية قد قام على تلك الدعائم، فإن هذا الدور، حقق أمرين مهمين: ساعدا على أن تكون هذه التنمية شاملة لكل العالم الإسلامي، لأنها كفلت للعلماء والطلاب استقلالية عن هيمنة الدولة.

الأمر الأول: فهو إتاحة الفرصة لكل راغب في العلم مهما كان مركزه الاجتماعي، ومن ثم كانت المساواة في الدراسة للجميع وكان التنافس بين طلاب العلم - الذين مثّلوا كل قطاعات المجتمع - من عوامل نبوغ عدد كبير من هؤلاء الطلاب، بما أعطوا من علم وقوة دافعة لمواصلة التنمية العلمية عبر العصور والأجيال.

الأمر الثاني: وهو تمتع العلماء والطلاب بالحرية الاقتصادية، واستقلالهم عن أجهزة الدولة، وعدم حاجتهم المادية إليها، مما كان له أعظم الأثر في ازدهار الحياة العلمية ونموها، لأن هذه الحرية والاستقلالية وجهت العقول للابتكار والنافس العلمي بين المدارس والاتجاهات الفكرية المختلفة، فكثرت المؤلفات والأطروحات والمناظرات، مما حدا ببعض العلماء إلى وضع دستور للحوار العلمي والنقد المنهجي، أو ما عرف بأدب البحث والمناظرة.

وفي النهاية نؤكد بأن الحياة العلمية في تاريخ الحضارة الإسلامية ما كان لها أن تبلغ ما بلغت من العطاء والعبقرية لولا الوقف الإسلامي الذي كان من أسباب نهضة هذه الحياة وتنميتها، وما حققته من إبداعات استفادت منها كل الحضارات الإنسانية، مما قادتها إلى الحضارة المعاصرة.

المراجع

1 - أساليب العمل وتحليل نتائج بعض الدراسات الحديثة) ص19 بتصرف، ط المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) سنة 2000م.

2 - أ.د. جعفر عبدالسلام (الوقف... كيف يسهم في تحقيق التنمية وحل مشكلات المجتمع) مقال منشور في جريدة الأهرام بتاريخ 2002/8/26م.

3 - م.د. مجاهد توفيق الجندي (دراسات وبحوث جديدة في تاريخ التربية الإسلامية) ط دار المعارف سنة 1984م.

4 - أحمد علي سليمان (الدور الاجتماعي والثقافي للوقف في المجتمعات الإسلامية المعاصرة) ص36، بحث فاز فيه الكاتب بالمركز الثاني في مسابقة وقف نهوض الكويتي سنة 1999م.

5 - أ.د. محمد الدستوقي (الوعي الإسلامي) عدد 382 ص36، وغيرها من أعداد مجلة الوعي الإسلامي.

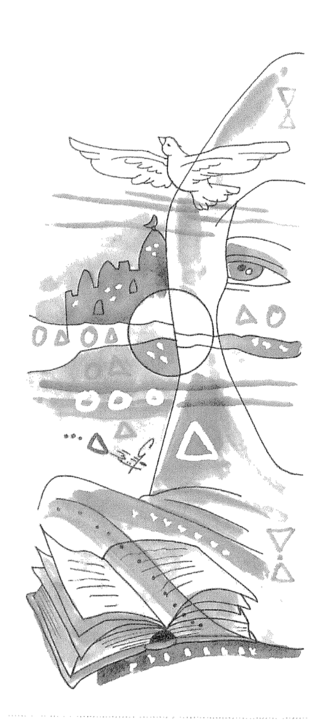
6 - أحمد علي سليمان (الوقف الإسلامي.. كيف أسهم في النهضة العلمية والحضارية) مقال منشور في جريدة الأهرام بتاريخ 2002/10/7م.

7 - أ.د.س عيد عاشور (مصر في العصور الوسطي) ط النهضة المصرية ص395، السخاوي (الضوء اللامع) ج8 ص196 - 163.



نظرة الإسلام إلى المرأة ... وتصحيح المفاهيم الخاطئة

أ. صلاح الدين الجعفراوي *



إن قضية المرأة، هي قضية كل مجتمع في القديم والحديث، فالمرأة تشكل نصف المجتمع، وهي أجمل ما في المجتمع من حيث العواطف، والمرأة أعقد ما في المجتمع من حيث المشكلات. ولهذا كان من واجب المفكرين أن يبحثوا في قضيتها دائماً، على أنها قضية المجتمع، أكثر مما يفكر بعض الرجال فيها، على أنها قضية جنس.. مجرد فاكهة، أو دمية يُلعب بها ثم تترك.

المرأة عبر التاريخ:

كان اليونان يحتقرون المرأة، ويعدونها رجساً من عمل الشيطان، فكانوا يبيعونها في الأسواق، كسائر السلع، ثم تبدلت حالها عندهم، واختلطت بالرجال، وشاعت الفاحشة، وصارت دُور البغايا مراكز للسياسة والأدب.

❖ وليس للمرأة عند الرومان أهلية مالية، ولا مكانة لها في الأسرة.

❖ وهي في شريعة حمورابي كالماشية المملوكة.

وجاء في شرائع الهنود: «ليس الصبر المقدّر، ولا الريح والموت، ولا الجحيم وسمّ الأفاعي والنار، أسوأ من المرأة».

* كاتب / ألمانيا.

والمرأة عند اليهود، في مرتبة الخادم، ولأبيها الحق في أن يبيعها، وهي قاصرة، واليهود لا يورثون المرأة، ويعتبرونها لعنة، لأنها أغوت آدم، وأنها أمرّ من الموت.

ويعدها النصارى مسؤولة عن الفواحش والمنكرات، وهي باب الشيطان، وعليها أن تستحي من جمالها، لأنه سلاح إبليس للفتنة والإغراء.

وقد هضمها عرب الجاهلية حقوقها، ولم تجد الإنصاف والكرامة والحقوق الكاملة، إلا في الإسلام، الذي رفع عن كاهلها وزر الإهانات، التي لحقت بها عبر التاريخ.. أعلن إنسانيتها الكاملة، وأهليتها الحقوقية التامة، وصانها عن عبث الشهوات، وفتنة الاستمتاع بها، استمتاعاً جنسياً حيوانياً، وجعلها عنصراً فعالاً في نهوض المجتمعات وتماسكها وسلامتها،

ما هي وضعية المرأة عند الرومان واليونان واليهود؟

فهي في نظر الإسلام، مثل الرجل في الإنسانية، والتدين، والعبادة، ودخول الجنة، ولها من الحقوق مثل ما للرجل، وقرر نبي الإسلام ﷺ أن النساء شقائق الرجال.

قرر الإسلام كرامتها الإنسانية، وأثبت لها حقوقها المادية والمعنوية، وأبعدها عن مواطن الشبهات، وصانها من الابتذال، ونأى بها عن المجالات التي يمكن فيها أن تستغل أنوثتها استغلالاً يرهقها ويشقيها، وحماها من التردي فيما تردت فيه المرأة الغربية، التي تعاني من ألوان الشقاء، الأمر الذي ضج منه عقلاء الغرب ومفكروه الأحرار.

رفع الإسلام من شأن المرأة، فاحتلت مكانه أسمى مما كانت عليه في سائر العهود، قديمها وحديثها، عاش النبي الكريم ﷺ مع زوجته الفاضلة خديجة، أربعاً وعشرين سنة وهي أرملة، وتكبره بخمس عشرة سنة، وكانت مكانتها تزيد عنده وعند المسلمين، وقد أجاز لها أن تستزيد من العلم والمعرفة كالرجل تماماً.

وكذلك كانت المرأة في العصور الإسلامية، معززة مكرمة، أماً، وبنتاً، وأختاً، وزوجة، وفي سائر أحوالها.

حال المرأة اليوم:

إن حال المرأة المسلمة في مجتمعاتنا المعاصرة، وفي عالم اليوم، لا تسر، فهي تعاني من أمور كثيرة، لعل من أهمها هذه المؤتمرات العالمية، التي هي من بنات المخططات التآمرية العالمية، على وضع المرأة بعامة، والمسلمة بخاصة، تسعى إلى اجتثاثها من جذورها الخُلقية، لتكون متاعاً ودمية، وأداة تخريب وتدمير للمجتمع الذي تعيش فيه.

ومنها حالة التخلف التي تعصف بمجتمعاتنا؛ نسائها ورجالها، ولكن قوة العصف تحتاج المرأة لتبقى مظلومة أسيرة شهوات الرجال وعنفهم، وتسلطهم اللامحدود، باسم القوامة والطاعة اللتين لا يعرف منهما أولئك الرجال سوى العسف والقهر وألوان الظلم.

ومنها اختلاط المفاهيم والقيم الخلقية الإسلامية، بالعادات والتقاليد التي لا تمت إلى الإسلام بصلة، ويحسبونها من الإسلام، حتى غدت المرأة وكأنها جنس آخر، من غير بني البشر أو من فئة العبيد، ناسين أو جاهلين أو محرفين قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [سورة النساء، الآية: 1]

وكأن هؤلاء لم يعلموا أن الإسلام، قد أحل المرأة المكانة اللائقة بها كإنسان، في سائر المجالات الإنسانية، والاجتماعية، والقانونية.



تعليمها :

يحدثنا التاريخ، عن سيدات درسن الشريعة والفقه والحديث والتفسير، ودرّسن في المساجد، بعد أن تعلمن وتخرجن على أيدي كبار العلماء، الذين أجازوا الكثيرات منهم، ليغدن مدرسات ومحاضرات، ولمعت منهن أديبات وشاعرات وباحثات في العلوم، ومحدّثات ومفسرات،

- كل ذلك في حضن الإسلام،وظلال تعاليمه السمحة، التي جعلت النساء شقائق الرجال.

- هكذا كن في صدر الإسلام، أيام النبي ﷺ والراشدين رضوان الله عليهم أجمعين.

ثم كانت القيود التي تأثرت بالعادات الفارسية والبيزنطية القديمة، وانعكست على المجتمعات الإسلامية، فكان الحرملك (الحريم)، فالرسول ﷺ لم يأمر قط، بحجب النساء عن المجتمع، وما منعهن من ارتياد المساجد ودور العلم، ومع هذا، ورغم تأثر العباسيين بالفرس والبيزنطيين، بقيت المرأة محتفظة بمكانتها العالية في المجتمع المسلم، تتعلم وتعلم، تتلقى العلم تماماً كالرجال، فقد حضّ الإسلام النساء على العلم، كما حضّ الرجال، ولم يحل حجاب المرأة دون تعلمها على أيدي كبار العلماء، في الفقه والحديث وسواهما من العلوم العربية والدينية.

المرأة والسياسة :

لم تعمل المرأة - في صدر الإسلام - بالسياسة، مع أنها تعلم أن الإسلام قد أعطاها هذا الحق كما أعطاه للرجل، ولم تسهم في الأحداث السياسية التي مرت بالمسلمين، إلا في حالات نادرة، لأنها أدركت أن واجبها الأول، ورسالتها الكبرى في هذه الحياة، أن تكون ربّة منزل، وأُماً ومنشئة أجيال، ومربية أبطال.

واستمرت الأمور على هذه الحال، حتي كان العصر الحديث، وكان الغزو الفكري الغربي، الذي اجتاح مجتمعاتنا، فانطلق المتأثرون بالحضارة الغربية، يطالبون المرأة بخوض غمار الحياة السياسية، كما يخوضها الرجال، وكان لهم ما أرادوا، فصارت تَنْتخب وتُنْتخب في البلاد العربية والإسلامية، وصارت وزيرة،

ورئيسة وزارة، ورشحت نفسها لرئاسة الدولة.. وليس في مبادئ الإسلام ما يمنعها أن تكون ناخبة، ولكننا نجافي الفطرة التي فطرت المرأة عليها، عندما نزجها في أتون العمل السياسي، بعيداً عن مملكتها ووظيفتها في البيت والمدرسة وما يتلاءم مع طبيعتها وفطرتها من أعمال، لا لعدم أهليتها، بل للأضرار الاجتماعية التي تنشأ عن انصرافها إلى العمل السياسي وإهمال ما سواه، وللجناية على سلامة الأسرة وتماسكها، بانصرافها عن معالجة شؤونها بكل طمأنينة وهدوء، إلى معالجة القضايا السياسية، وما تقتضيها من سهر وجدل وسفر، مما يتنافى مع ما خلقت له.

شبهات:

يثير بعض الناس، من مستشرقين وعلمانيين، عدداً من الشبهات حول موقف الإسلام من المرأة، ويصرف النظر عن نيات هؤلاء وأولئك، نحاول الرد على تلك الشبهات في اختصار شديد.

ولكن.. قبل الحديث عن تلك الشبهات، لا بد من ملاحظة الفروق بين الرجل والمرأة، من حيث التكوين الجسدي والتكوين النفسي، والعاطفي، كما لا بد من التأكيد على أن هذه الفروق لا تمس التماثل بين الرجل والمرأة، أو المساواة بينهما في الإنسانية، والكرامة والأهلية، فالمرأة شقيقة الرجل، والعلاقة بين الشقيقين هي علاقة تماثل، وتمايز وتكامل.

فهما متماثلان من حيث الجوهر الإنساني بكل حقائقه وأبعاده، وهذا التصور يمكن حقيقة ربانية في عالم الخلق والتكوين.

وهما متماثلان باستقلال الشخصية الإنسانية لكل منهما، تلك التي تتأسس عليها المساواة في الشخصية الاعتبارية أو القانونية، فللمرأة في الشريعة الإسلامية أهليتها الكاملة في الأنشطة المدنية... ففي ميدان العقود، للمرأة حق التملك والبيع والشراء والرهن، ولها أن تقرض وتهب وتتصدق، وتضارب وتوكل وتتوكل، إلى آخر ما هنالك من عقود.

وهما متماثلان في حمل أمانة التكليف، فالإسلام يعتبر المرأة كاملة الأهلية في التكليف، كل نداء وجهه الله للناس بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يدخل فيه الذكور والإناث، وكل نداء وجهه الله للمؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يدخل فيه المؤمنون والمؤمنات.

الفروق بين الرجل والمرأة لا تمس التماثل بين الرجل والمرأة أو المساواة بينهما في الإنسانية والكرامة والأهلية

- فشمول عموم الخطاب للذكر والأنثى، قاعدة أساسية من قواعد الخطاب الشرعي.

- ولكن التماثل لا يعني التطابق في سائر الأحوال، بل لا بد من أن يمتاز أحدهما عن الآخر، جسدياً ونفسياً وعاطفياً.

.. ومن مظاهر التمايز ما ورد في الحديث الشريف: (ما رأيت من ناقصات عقل ودين، أذهب لِلُبِّ الرجل الحازم من إحداكن).

هذا الحديث الذي يثيره على الإسلام أعداؤه، حصره الرسول الكريم ﷺ في أمرين، فنقصان دين المرأة، في تركها الصلاة والصيام أيام عادتها الشهرية، وأيام نفاسها، ونقصان عقلها في أن شهادة المرأة جاءت على النصف من شهادة الرجل.

إن نقصان الدين - هنا - لا يعني نقصان الأهلية الشرعية، ولا يعني نقص الأهلية الإنسانية، لأن مقتضيات أنوثتها، فرضت عليها ترك بعض العبادات في أيام معدودات.

وكذلك نقص العقل في هذا الحديث، لا يعني نقصاً في القدرة على المحاكمة والتمييز، بل هو من



أجل التثبت في الأحكام، والاحتياط في القضاء بها.

والمرأة والرجل متكاملان، يكمل أحدهما الآخر، لتكون النفس الواحدة، وليكون الإنسان في المحضن الطبيعي لتنشئة بشر أسوياء، يقوم كل بدوره في هذه الحياة.

على هذا يقوم تصورنا للمرأة، وعليه تتحدد مكانتها في الحياة العامة، وتقوم بدورها إلى جانب شقيقها الرجل في حمل التكاليف الروحية والاجتماعية.

والذين يسعون إلى طمس الفروق بين الذكورة والأنوثة، وما ينشأ عن تلك الفروق من تمايز، يقفون ضد الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ذكوراً وإناثاً، إنهم يقفون ضد الإنسان، وضد الأسرة، وضد المجتمع، وهذا ما نرفضه ونأباه.

المرأة والميراث

وإذا كنا قد انتهينا من شبهة نقصان العقل، في جعل شهادة المرأة نصف شهادة الرجل، وما حمّلوها مما لا تحتمله من معانٍ، فلننتقل إلي الميراث.

إنهم يزعمون أن الإسلام قد انتقص حق المرأة في الميراث، عندما جعل للذكر مثل حظ الأنثيين... وهذا عسف وظلم، وافتئات علي الحقيقة، فنصيب المرأة من الإرث يختلف من حالة إلى أخرى، فأحياناً يكون نصف ما للذكر، وأحياناً تأخذ مثل ما يأخذ أو أكثر، وأحياناً تأخذ أقل منه، وهذه أمور معروفة في كتب المواريث.

ومع ذلك نقول:

ليس في إرث المرأة المسلمة ما يغمطها حقها، أو يمسها بظلم، ففي نظام الإسلام يلزم الرجل بأعباء وواجبات مالية، لا تلزم المرأة بمثلها، فالرجل يدفع المهر، والمرأة تأخذه، والرجل يؤثث بيت الزوجية، وينفق على الزوجة والأولاد، ولا تكلف المرأة بشيء من ذلك، ولو كانت غنية، ولهذا ولغيره كان من العدل أن يكون نصيبها من الميراث ـ أحياناً ـ أقل من نصيب الرجل.. وإذا أردنا أن نساويها مع الرجل، فإننا

سنطالبها بالمساواة مع الرجل في الأعباء والواجبات، وهذا مناف للعدل الذي جاء به الإسلام، والإسلام أحرص على مصلحة المرأة من أي نظام آخر.

وهناك شبهة الدية..

فقد جعلت الشريعة دية المرأة التي قتلت خطأ، أو التي لم يستوجب قاتلها عقوبة القصاص، لعدم استيفاء شروطه، بما يعادل نصف دية الرجل.

وقد يبدو هذا غريباً، بعد أن قرر الإسلام مساواتها بالرجل في الإنسانية والأهلية والكرامة الاجتماعية.

غير أن الأمر لا علاقة له بهذه المبادئ السامية، بل هو متعلق بالضرر الذي ينشأ للمرأة عن مقتل الرجل والمرأة.

إن القتل العمد يوجب القصاص من القاتل، سواء أكان المقتول رجلاً أم امرأة، وسواء أكان القاتل رجلاً أم امرأة. لأننا ـ في القصاص ـ نقتص من إنسان لإنسان، والرجل والمرأة متساويان في الإنسانية.

أما في القتل الخطأ وما أشبهه، فليس أمامنا إلا التعويض المالي، والعقوبة بالسجن أو نحوه، والتعويض المالي يجب أن تراعى فيه الخسارة المالية قلة وكثرة. فهل خسارة الأسرة بالرجل كخسارتها بالمرأة؟

إن الدية ليست تقديراً للقيمة الإنسانية في القتيل، بل هي تقدير لقيمة الخسارة المادية التي لحقت بالأسرة، والخسارة المادية بقتل الرجل، أكبر من الخسارة بقتل المرأة التي لم يكلفها الإسلام بالعمل من أجل الكسب والإنفاق على الأسرة، وعلى نفسها أيضاً.

تعدد الزوجات:

يثيرون مسألة تعدد الزوجات، ويشنعون على الإسلام بهذه المسألة، ويتخذون منها دليلاً على اضطهاد المرأة، وهذا مناف للواقع والحقيقة، فالتعدد ليس شراً محضاً، بل فيه خير كثير، في كثير من الأحيان، فقد تلجئ إليه الضرورات، وما أكثرها، فيكون فيه خير كثير، كأن تكون الزوجة عقيماً، أو مصابة بمرض مزمن، وعندما تكثر النساء ويقل الرجال بسبب الحروب، فيكون التعدد دواء ناجحاً لا بد منه، ونظاماً صالحاً يفيد المجتمعات، إذا نفذ بشروطه، كأن يكون الزوج عادلاً وقادراً على الإنفاق على زوجته الثانية، وقادراً على القيام بواجبات الزوجية.

ما الأسباب الكامنة وراء تعدد الزوجات؟!

ـ إن نظام التعدد في الإسلام نظام أخلاقي إنساني.

ـ أخلاقي، لأنه لا يسمح للرجل بأن يتصل بأي امرأة شاء، وفي أي وقت يشاء.

ـ إنساني، لأن الرجل يخفف به من أعباء المجتمع، بإيواء امرأة لا زوج لها، وبنقلها إلى مصاف الزوجات المصونات المحصّنات، ولأنه ينشئ خلية اجتماعية تنتج للأمة نسلاً عاملاً.

ـ إن نظام التعدد يحدد الإنسان فيه شهوته إلى قدر محدود، ولكنه يضاعف أعباءه ومتاعبه ومسؤولياته إلى قدر غير محدود.

ـ إنه نظام يحفظ الأخلاق، ويشرّف الإنسان.

ولقد قصر التعدد علي أربع زوجات، وشدد على العدل بينهن، عدلاً مادياً إلى أقصى ما يستطيعه الإنسان.

لقد ربّى لإسلام ضمير الزوج المسلم على خوف الله ومراقبته، ورغّبه في ثوابه إن هو نفّذ أوامره، فجعله زوجاً مؤمناً عادلاً، يراقب نفسه بنفسه، ويحاسبها على أي تقصير تجاه زوجاته.

الثقافة الإسلامية والانفتاح

د. أحمد عبد الرحيم السايح *

1 الثقافة أمر يهم الإنسان، وخصيصة من خصائصه التي تميز بها، وانفرد عن غيره من المخلوقات فيها.

وقد لازمت الثقافة الإنسان في العصر الحجري، والعصر البرونزي، وعصر انبثاق الحضارات المعروفة، ثم العصور الحديثة.

ولما كانت الثقافة ملازمة للإنسان - أياً كان هذا الإنسان - كان من شأن الباحث أن يتعرف على هذه الكلمة، التي غدت في حياة الناس من أكثر الكلمات شيوعاً واستعمالاً. وعندما يطرح الباحث سؤالاً يقول فيه:

- ما هي الثقافة التي بلغها الإنسان في هذه المرحلة من مراحل تطوره الفكري؟
- وكيف يرى الإنسان هذه الثقافة؟
- وهل هي مجرد معلومات تقتنى، وتراكم للمعرفة فقط؟ أم هي معلومات ومواقف متحركة ومتجددة؟..

وعندما نبحث في الإجابة. نفاجأ بتباين الإجابات وتعددها، حتى أن العلماء قالوا: إنه يمكن إحصاء مئات التعريفات لهذا المصطلح: وهي تعريفات متنوعة ومتناقضة، ووافرة العطاء، ولكنها - أيضاً - كثيرة الغموض والتلون.

ففي العلوم الإنسانية بعامة، لا تكاد توجد أحكام مطلقة، تتوافر لها الصحة الكاملة، وأغلب ما يمكن الوصول إليه: هو الاجتهادات العامة.

فالتعاريف التي اقترحت لتعريف الثقافة في المائة سنة الأخيرة - على الأقل - بلغت حداً من التنوع يصعب معه الاتفاق على تعريف[1].

ويقول بعض العلماء: «الثقافة تكاد تكون سراً من الأسرار المتمثلة في كل أمة من الأمم، وفي كل جيل من البشر، وهي في أصلها الراسخ البعيد الغور، معارف كثيرة لا تحصى، متنوعة أبلغ التنوع، لا يكاد يحاط بها، مطلوبة في كل مجتمع إنساني»[2].

وقد استعمل العرب كلمة (الثقافة) للدلالة على:

الحذق وسرعة الفهم، وسرعة التعليم، والضبط، والفطنة، والذكاء، والظفر بالشيء، وتسوية العوج من الأشياء كالرماح، والسيف، والتقويم والتهذيب.

يقال: ثقف الشيء ثقفاً وثقافاً: إذا حذقه، ويقال: رجل ثقف لقن، إذا كان ضابطاً لما يعلم، قائماً به، ويقال غلام لقن، أي: ذو فطنة وذكاء، والمراد: أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه، وقد جاء في حديث أم حكيم بنت عبد المطلب: (إني حَصَان، فما أكلم، وثقاف فيما أعلم)[3]؟

ويتضح من عرض المعاني المتعددة لكلمة: (الثقافة) في اللغة العربية - كما ذكرت المعاجم

* باحث وأستاذ جامعي / مصر.

1 - فاروق حسّان: مقال بمجلة الخفجي، إبريل (نيسان) سنة 1990، السنة العشرون، العدد الأول،، ص 12، السعودية.

2 - محمود محمد شاكر، المتنبي، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص 18، ط. مكتبة الخانجي بالقاهرة، سنة 1407هـ/1987م.

3 - ابن منظور، لسان العرب، (مادة ثقف) والفيروز آبادي، القاموس والمعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية، القاهرة.

اللغوية ـ أن الكلمة تستعمل في الأمور المعنوية. كما أنها تستعمل في الأمور الحسية. غير أن دلالتها على الأمور المعنوية العقلية أكثر من دلالتها على الحسيات[4].

ولا يخفى: أن الثقافة ـ بمدلولها العام الشائع ـ كلمة جديدة. لا تتصل بالمدلول اللغوي الذي ذكرته معاجمنا اللغوية. إلا على ضروب من التأويل والمجاز. لا تستقيم في كل الأحوال مع المفاهيم التي تستعمل فيها كلمة (ثقافة)[5].

ومما يحسن أن نشير إليه: أن مادة (ثقافة) قد جاءت في القرآن الكريم:

ـ قال تعالى:

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [سورة البقرة، الآية: 191]

ـ وقال تعالى:

﴿...فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾

[سورة النساء، الآية: 91]

ـ وقال تعالى:

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾

[سورة الأنفال، الآية: 57]

ـ وقوله تعالى:

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [سورة البقرة، الآية: 191]

معناه: أي احكموا عليهم، ولقيتموهم قادرين عليهم. يقال: رجل ثقف لقف ـ بسكنون القاف، وبكسرها في الكلمتين ـ إذا كان محكماً لما يتناوله من الأمور[6].

ـ وقوله تعالى:

﴿...فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾

[سورة النساء، الآية: 91]

فإنه مأخوذ من الثقاف، أي ظفرتم بهم مغلوبين، متمكناً بهم[7].

ومعناه: تأسرهم وتحصلهم في ثقافك، بحبال ضعف، تقدر عليهم فيها، وتغلبهم. وهذا لازم من اللفظ لقوله: ﴿...فِي ٱلْحَرْبِ﴾ [سورة الأنفال، الآية: 57]

وقال بعض الناس: معناه: تصادفهم، إلى نحو هذا من الأقوال. التي لا ترتبط في المعنى، وذلك أن المصادف قد يغلب فيمكن التشريد به، وقد لا يغلب[8].

ومما ينبغي أن نذكره في كلمة (ثقافة): أن الشعر العربي ـ وهو ديوان العرب ـ قد وردت فيه مادة الكلمة (ثقف)، ومن ذلك قول الشاعر:

إن قناتي لنبع ما يؤيسها
عض الثقاف ولا دهن ولا نار

والثقاف هنا أداة من حديد، أو خشب. تثقف بها الرماح لتستوي وتعتدل. والشاعر يصف رمحه بأنه من شجر جيد أصيل، لا يؤثر فيه تثقيف بالحديد، ولا دهن ولا نار.

ومن ذلك ـ أيضاً ـ قول النابغة الذبياني:

تدعو قعينا قد عض الحديد بها
عض الثقاف على صم[9] الأنابيب

وقد وردت لفظة (ثقافة) معطوفة على لفظة (صناعة) في مقدمة (طبقات الشعراء) لأبي عبد الله محمد بن سلام الجمحي (ت 232 هـ) حيث قال: «وللشعر صناعة وثقافة. يعرفها أهل العلم. كسائر أصناف العلم، منها: ما تثقفه اللسان».

ويرى العلماء: أن مدلول لفظة (ثقافة) كما يُفهم من كلام ابن سلام. يعني الحذق، والفهم، والقدرة، أو ما يمكن أن نعبّر عنه بما يسمى (الملكة). فإذا أضيفت إلى الشعر كانت ملكة الشعر، أي: القدرة على فهمه وحذقه ونقده، وإذا أُطلقت دون أن تضاف إلى

4 ـ د. محفوظ علي عزام، نظرات في الثقافة الإسلامية، ص 11، ط دار اللواء بالرياض، سنة 1404هـ/ 1984م.
5 ـ عمر عودة الخطيب: لمحات في الثقافة الإسلامية، ص 23، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة 1397م.
6 ـ ابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج2، ص 140، ط قطر، سنة 1401هـ.
7 ـ ابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز، ج3، ص 168، ط قطر، سنة 1402هـ.
8 ـ المصدر السابق، ج6، ص 346، سنة 1404هـ.
9 ـ المصدر السابق، ج6، ص 348، بتصرف.

علم أو فن. فليس ثمة ما يمنع من أن تدل على ما نطلق عليه اليوم (الثقافة العامة)[10].

فإذا جعل ابن سلام للشعر ثقافة، فإن معنى ذلك: أن النثر ثقافة أيضاً، وهي الثقافة الأدبية، وتتسع الدائرة، ويتنوع المدلول كلما أُضيفت الثقافة إلى علم أو فن خاص.

وإذا اتصف بها الإنسان. كانت ملكته في فهم ضروب العلوم والفنون والمعارف ملكة جيدة بوجه عام، وهذا هو ما يدل عليه لفظ (المثقف)[11].

ولفظة (ثقافة) تنسب إلى فعل ثقف، ويعني هذا الفعل ـ استعمالاً ـ لا وضعاً ـ اكتساب الحذق والفهم، كما سبق أن ذكرنا هذه المعاني اللغوية.

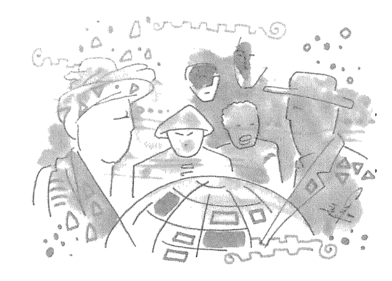
وتعني كلمة (ثقافة) بمعناها الضيق: عملية تنمية بعض ملكات العقل بواسطة ضربات مواتية، كما تعني استنتاجاً: ما هو حاصل بفعل هذه العملية.

أما بمعنى أوسع: فهي صفة الشخص المتعلم الذي يكون قد أنمى ذوقه وحسه النقدي، وحكمه بوساطة الاكتساب، وأحياناً تستخدم للدلالة على التربية المؤدية إلى اكتساب الصفات المذكورة آنفاً[12].

ويحاول الباحثون عن بحث مشكلة التعريف للأمور المعنوية ـ وهو إطلاق الاسم على شيء ما ـ أن يتبعوا أصل التعريف، أي: معرفة المدلول الذي كان مراداً عند إطلاق الاسم على شيء، ثم البحث بعد ذلك فيما طرأ على هذا المدلول من تطور.

وليس من شك في أن معرفة هذه الصورة، وتقصي تاريخها من حيث معرفة الأصل، وما طرأ عليه بعد ذلك من تطور، سوف يوضح جوانب كثيرة من استعمال كلمة (الثقافة) في اللغات الأجنبية[13].

وقد أفادت الدراسات: أن الثقافة في أي عصر ليست مجرد معارف ومعلومات تلقن، بل هي ثمرة ذلك



التراث بحيث تظهر آثارها في المجتمع والأسرة والفرد.

وقد يكون واضحاً: أن ثقافة الإنسان لا تقدر بمقدار ما قرأ من الكتب، وما تعلم من الفنون والآداب، ولكن بمقدار ما أفاده العلم، وبمقدار ما أوحت إليه الفنون من سمو في النفس، ودقة في الشعور، وتذوق الجمال.

فالثقافة إذن: تعني السجية أو البديهية. فيما يتعلق بالفرد. وفيما يتعلق بالأمة فهي تعني شخصيتها، بحيث تكون ثقافة كل شعب مميزاً له عن سواه[14].

ومما يلاحظه الباحث: أن كلمة (الثقافة) في الاصطلاح العرفي في العربية وغيرها تفيد: معنى ما يكتسبه الإنسان من ضروب المعرفة النظرية، والخبرة العملية، وكذلك المعاني اللغوية التي وردت في اللغة تتصل اتصالاً كبيراً بالتسوية، والتعهد، والتهذيب.

وإذا كانت الكلمة لم تجر على ألسنة الأسلاف من العلماء والمفكرين، فإن المضمون للكلمة كان واضحاً لدى هؤلاء الأسلاف، فقد كان يعني في العصر

---

10 ـ أ. عمر عودة الخطيب، لمحات في الثقافة الإسلامية، ص 24.

11 ـ المصدر السابق، ص 25.

12 ـ معهد الإنماء العربي، الموسوعة الفلسفية العربية، ج1، ص 210، بيروت، سنة 1986م.

13 ـ المصدر السابق، ص 28.

14 ـ د. يعقوب المليجي: المدخل للثقافة الإسلامية، ص34، ط مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية، سنة 1985م.

العباسي الأول: المشاركة البارعة في فروع شتى من المعرفة، وبراعة في تطبيقها وتصريفها[15].

وكان المفهوم العام للثقافة عند المسلمين يعني: جمع المرء مجموعة من المعارف، وتحصيل اللغة، وإجادته آدابها. فلم تكن الثقافة تنفصل عن اللغة والأدب من شعر وحكم وأمثال. و فضلاً عن طرف من التاريخ، والأنساب، والمعارف العامة [16].

ومثل هذا التنوع في الثقافة. كانت الظاهرة العامة في أغلب الكتاب ورجال الحكم، وموظفي الدولة والشعراء [17].

ذلك: أن الثقافة في حقيقتها هي: الصورة الحية للأمة، فهي التي تحدد ملامح شخصيتها، وقوام وجودها، وهي التي تضبط سيرها في الحياة، وتحدد اتجاهها فيها.

إنها عقيدتها التي تؤمن بها، وبمبادئها التي تحرص عليها، ونظمها التي تعمل على التزامها، وتراثها الذي تخشى عليه الضياع والاندثار، وفكرها الذي تود له الذيوع والانتشار [18].

والأمم تقاس رفعة وانخفاضاً بمقوماتها الفكرية، وقيمها الأخلاقية الخلقية، وإنجازاتها العلمية.

وقد كان للثقافة الإسلامية دورها العظيم في بناء الأمة الإسلامية، وترسيخ عظمتها، وتوطيد سلطانها، واستمرار عطائها.

لا يكون المرء مبالغاً إذا عرف: أن الثقافة الإسلامية هي ثقافة خير أمة أخرجت للناس، تميزت بعقيدتها، ومنهجها، وقيمها، وأهدافها، كانت هذه الثقافة عاملاً أساسياً في إيجاد الأمة التي احتلت مركز القيادة الفكرية، والزعامة السياسية، والصدارة العلمية في العالم مدة أربعة عشر قرناً من التاريخ البشري.

وأمتنا في الوقت الحاضر، أحوج ما تكون إلى هذه الثقافة. فإنها هي التي تحفظ على الأمة شخصيتها الفريدة، وعن طريقها تربط ماضيها المشرق بحاضر نرجو أن يكون سبيلاً إلى مستقبل زاهر [19].

ومما لا يحتاج إلى دليل أن: الذين اعتنقوا الإسلام، وآمنوا به. رأوا أن حياتهم متوقفة على فهمه، وحمله للناس جميعاً، كما رأوا: أن الإسلام وحده أساس وحدتهم، وسبب نهضتهم وعزهم ومجدهم، لذلك أقبلوا عليه يدرسونه ويتفهمونه.

الثقافة في أي عصر ليست مجرد معارف ومعلومات تلقن، بل هي ثمرة ذلك التراث بحيث تظهر آثارها في المجتمع والأسرة والفرد.

ولما كان فهم الإنسان لا يتأتى بغير اللغة العربية. أقبلوا عليها يدرسونها ويشرحونها، ويضعون قواعدها. كما أقبلوا على العلوم الإسلامية يدرسونها ليشرحوا للناس عقيدة الإسلام، ويبينونها بالدليل والبرهان، وتفرعت أنواع المعارف لدى المسلمين وتناولت أشياء كثيرة، فتكونت لدى المسلمين ثقافة إسلامية متعددة النواحي، أقبل الناس على تعلمها جميعاً. مع اهتمامهم بما في الكون من علوم وصناعات.

وكان كل عالم - مهما كان نوع الثقافة التي تخصص فيها: أدباً، أو رياضيات، أو صناعة - يتثقف بالثقافة الإسلامية أولاً، ثم يتثقف بغيرها.

والتثقيف بالثقافة الإسلامية ضرورة حياتية.. سواء تعلقت الثقافة بالنصوص الشرعية أم بالوسائل التي تمكن من فهم هذه النصوص وتطبيقها، ولا فرق بين التثقيف بالأحكام الشرعية، أو الأفكار الإسلامية[20].

---

15 - عبد الله العلايلي، مادة (ثقف).

16 - د. محفوظ علي عزام: نظرات في الثقافة الإسلامية، ص 12.

17 - المصدر السابق، ص 12.

18 - المصدر السابق، ص 13.

19 - عزالدين الخطيب التميمي وآخرون، نظرات في الثقافة الإسلامية، ص 3، ط دار الفرقان - عمان، الأردن، سنة 1404هـ، 1984م.

20 - سميح عاطف الزين: الثقافة الإسلامية، ص 41، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سنة 1403هـ/1983م.

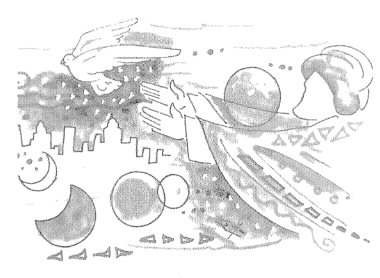
وفي حياة كل أمة مفاهيم أساسية تحرص عليها، وتعمل على ترسيخها، وتعميق إدراكها في شؤونها الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، وغير ذلك من أمور الحياة، وتسعى كل أمة سعياً حقيقياً دائباً، على أن تكون مفاهيمها واضحة الدلالة في ذاتها، مرعية الجانب لدى أبنائها، واسعة الانتشار والتداول لدى غيرها. فتؤلف الكتب، وتعقد المؤتمرات، وتقوم بالدراسات، وتصدر النشرات، وتضع مناهج التربية والتعليم، وتستخدم بوجه عام كل وسائل الإعلام والتوجيه، لتوضيح هذه المفاهيم وشرحها وبيان أُسسها وخصائصها، وتفصيل وجوه النفع فيها(21).

وأكثر ما يهتم به قادة الفكر الثقافة. المؤمنون بمفاهيم أمتهم، الدائبون لنشرها، هو: نقلها من حيز النظر المجرد إلى الواقع البشري الحي، ووصل حياة الناس بها، بحيث تكون مصدر فكرهم، وشعورهم، وطابع سلوكهم، وسمة حياتهم العلمية.

ومن هنا يخرج مدلول الثقافة عن قصد المعرفة المجردة، إلى المعرفة الهادفة، أو بتعبير آخر: عن المعرفة الساكنة، التي لا تتجاوز حدود العمل الذهني، إلى المعرفة المحركة التي تحدث تفاعلاً، وحواراً، واضح التأثير مع تطلعات الفرد والجماعة(22).

ولا يُعرف في تاريخ الأمم - ماضيها وحاضرها - أن واحدة منها أهملت في نشر ثقافتها، أو تركتها تذوب في ثقافة غيرها، أو تتلاشى في عقول أبنائها، لتحل محلها ثقافات أخرى طارئة غريبة.

إن للإسلام مفاهيم صحيحة سليمة كاملة في كل شأن من شؤون الكون والإنسان والحياة، وإذا كانت المفاهيم عن هذه الشؤون لدى كثير من الفلاسفة والمفكرين، وواضعي النظم من البشر تتسم بالغموض والتعقيد تارة، أو يجانبها الصدق والعمق تارة أخرى، أو تصدر عن الفرض والتخمين حينا، وعلى الأساطير والأوهام حيناً آخر.



فإن مفاهيم الإسلام مبرأة من هذه الآفات كلها. لأنها ليست منبعثة من نظرة بشرية محدودة، لا تستوعب ذاتها، فضلاً عن أن تستوعب غيرها، ومفاهيم الإسلام تسفه المنطق السطحي، وتهدم الظن والوهم، وتعده زراية بالعقل، واستهانة بكرامة الإنسان.

أما الأساطير التي تصدر عنها تلك العقائد والتصورات فهي - في مفاهيم الإسلام - أشلاء ممزقة ميتة، لا يصدقها أو يتعلق بها من أوتي حظاً من نظر وتفكير، وهي ساذجة ضالة مردية، لا تليق بحقيقة هذا الإنسان الذي حباه الله العقل: وأرشده إلى دلائل المعرفة الصحيحة، وزوده بوسائل النظر السديد.

إن مفاهيم الإسلام منبثقة عن عقيدة ربانية شاملة، لا ترتكز إلا على الحقائق الجلية الثابتة، ولا تقوم إلا على اليقين الجازم، وهي متسمة بالوضوح والصدق والعمق وتقيم - من حيث الاعتقاد والتفكير - لدى البشر جميعاً: التصور الصحيح الدقيق المتكامل للكون والإنسان والحياة(23).

إن منهج الإسلام في ارتكازه على الحقائق اليقينية الهادية، يربط الحقائق المفردة في الكون

---

21 - عمر عودة الخطيب، لمحات في الثقافة الإسلامية، ص 11.

22 - المصدر السابق، ص 12.

23 - عمر عودة الخطيب، لمحات في الثقافة الإسلامية، ص 53 - 54.

والحياة ربطاً يصلها بأجل حقيقة، وأكبرها، وهي العقيدة.

وبذلك لا يدع هذه الحقائق المثبوتة أمام العقل الإنساني والشعور والضمير، ضروباً من المعرفة الجامدة، والمعلومات المجردة: التي لا روح فيها ولا حياة لها، كما تحاول خرافة المنهج العلمي أن تصنع.

بل يثبت منهج الإسلام في هذه المعارف والمعلومات والحقائق الظاهرة والمضمرة حياة تفتح البصائر، وروحاً توقظ الضمائر، ويزودها بالتأثير العجيب الذي يعمق أوثق أواصر الصلة بين الحقائق الهادية، والعقول المستنيرة، والقلوب المتفتحة للإيمان والخير[24].

والثقافة عنصر مهم من عناصر حياة الأمم، تتبين بها صورة كل أمة، وتتميز بها صياغتها ولونها بين أقرانها، وهي تدل في نفس الوقت على تقدّمها، وعلى درجتها في المدينة والحضارة، وهي تكون سبب كرامتها وزينتها أيضاً[25].

والثقافة وسيلة لغاية أبعد، وهدف أكبر. وهل ثمة أجمل وأسمى من أن تستحيل الثقافة إلى طاقة محركة، وقوة دافعة، تصبغ الواقع الإنساني في إطار الضمير والشعور والسلوك بصبغة هذه المفاهيم النقية الخيرة، وتتمثل في حياة البشر نظاماً وخلقاً، وجهاداً وحكماً، وقيادة صالحة تحمل مشاعل الحق والنور لهذه الإنسانية التي وضعتها المفاهيم الضالة المنحرفة على حافة الدمار الرهيب[26].

لقد اشتملت هذه الثقافة على كل المعطيات التي تجعلها صالحة لتكون ثقافة الإنسان، ذلك أنها نظرت إلى فطرة الإنسان وعالجت غرائزه، واحترمت عقله. فكان لها في حياة الإنسان أهمية ومكانة تجعل الوقوف عليها، والأخذ بها واجباً على المسلم، بل على الإنسان.

ونستطيع أن نقول دون أن نكون بعيدين عن الواقع: إن الثقافة الإسلامية أصبحت في ظل انتشار الإسلام وظهوره ثقافة إنسانية وعالمية، وقد انطوت على طاقة روحية جعلت منها قوة فاعلة وبانية، يضاف إلى ذلك أن الثقافة الإسلامية تمتد على مساحة الدنيا والآخرة. وهذا الامتداد الزماني والمكاني الموغل في الأعماق، جعل الثقافة الإسلامية تختلف عن ثقافات، بعضها يتوغل في ماديات الحياة، ثم يضفى عليها مسحة من العبادة والفلسفة، وبعضها الآخر يسلك طريق الروحية التجريدية.

مفاهيم الإسلام ليست منبعثة من نظرة بشرية محدودة، لا تستوعب ذاتها

ولما كان الإسلام دين وقيم وضوابط سلوكية، كانت الثقافة الإسلامية موجهة ومربية، تتصل بحياة الأفراد، وحياة الجماعات[27]، وتؤهل الإنسان للعطاء، وتنمي فيه القدرة على الإنتاج والإبداع بما تفتح له من آفاق التفكير والممارسة، وتجعل الشخصية الإسلامية شخصية متزنة. لا يطغى على موقفها الانفعال، ولا يسيطر عليها التفكير المادي، ولا الانحراف الفكري المتأتي من سيولة العقل وامتداد اللامعقول.

ومن المعروف: أن الإسلام قد وثب بالمسلمين وثبة هائلة، وهذه الوثبة الهائلة كانت على أثر إشعاع القرآن الكريم في جنبات الدنيا والإنسانية، فأنارها بعد ظلمة، وهدى الإنسانية بعد حيرة، ونظمها بعد اضطراب، وفتق أذهان أبنائها بعد ارتفاق، وأزال الأصفاد والقيود التي كانت تقف حجر عثرة أمام الفكر[28].

---

24 ـ المصدر السابق، ص 54.

25 ـ محمد الرابع الحسني الندوي: الثقافة الإسلامية والواقع المعاصر، ص 57، ط دار الصحوة بالقاهرة، سنة 1410هـ.

26 ـ عمر عودة الخطيب: لمحات في الثقافة الإسلامية، ص 54.

27 ـ سميح عاطف الزين: الإسلام وثقافة الإنسان، ص 38، ط بيروت، سنة 1982م.

28 ـ راجع د. أحمد السايح: (المعرفة في الإسلام بين الأصلة والمعاصرة) ص 60، ط دار الطباعة المحمدية بالقاهرة.

الثقافة عنصر مهم من عناصر حياة الأمم. تتبين بها صورة كل أمة، وتتميز بها صياغتها ولونها بين أقرانها

فانطلق المسلمون يقرءون، ويبحثون، ويطلبون العلم في مظانه.

واستطاعوا في ظل الثقافة الإسلامية التي دعت الناس إلى معرفة كل ما من شأنه أن يأخذ بالناس إلى طريق الرشاد. أن ينتقلوا من أمة الأمية إلى أمة العلم والقيادة الفكرية، وأن يصبحوا أساتذة العلم والعالم، وقادة الفكر والرأي، ورواد المعرفة والحضارة.

وبحثوا، ودرسوا وأضافوا، وجددوا وابتكروا. فكان ذلك النتاج الحضاري الأصيل.

وإذا كانت الأمة الإسلامية في العصر الحاضر. تتطلع إلى غد مشرق. فإن هذه الأمة تملك رصيداً من الثقافة الفاعلة. يُمكنها من نشر الإسلام في الأرض والمساهمة في استقرار الجماعات.

ومما ينبغي أن نشير إليه: أن الأمة الإسلامية تحكم علاقاتها، وانفتاحاتها على الآخرين. قاعدة أساس تقوم على أساس: صحة كل علاقة، وسلامة كل حوار، وهي التزام مبادئ وقيم وتعاليم دين الله وهذا بين في قول الله تعالى:

﴿...وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [سورة المائدة، الآية. 49]

وقد يكون واضحاً: أن مبدأ المسلمين وهم يعرضون مبادئ وتعاليم الإسلام على الناس، تحكمه قيم وآداب لا ينبغي للمسلمين تجاوزها وخالفتها، ولا يصح معها تجريح وسباب معتقدات الآخرين، وهذا صريح في قوله تعالى:

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [سورة الأنعام، الآية: 108]

والمجتمعات الإسلامية وفق تعاليم الإسلام وقيمه مأمورة بالتزام العدل وإنصاف الناس مع وجود الاختلاف في العقيدة، وقيام الخصومة، والشحناء معهم، حيث يقول الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿...وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة المائدة، الآية: 8]

إن منهج القرآن يعلم المسلمين ويؤكد عليهم: أن البشرية مدعوة بأمر ربها جل شأنه، للتعارف والتعايش وفق القيم والمعايير الربانية على اختلاف أجناسهم، وأعراقهم، وأديانهم، وألوانهم، وإن إتيان الحق ومجانبة الباطل هو أساس التنافس بينهم، وهو أساس معيار القرب والبعد من تقوى الله ومرضاته، وهذا في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [سورة الحجرات، الآية: 13]

ومجتمعات الأمة الإسلامية يحدوها وهي تنفتح على غيرها من الناس تعاليم الله وتوجيهات الرسول التي تطالبها، وتؤكد عليها السعي في تحقيق مصالح العباد، وجلب المنافع لهم، حيث جاء في الأثر: «الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله».

وإن الإسلام يؤكد: أن أساس دين الله تعالى: يقوم على إقامة العدل بين الناس، وشيوع قيم الإحسان بينهم، والعمل على مكافحة الفحشاء والمنكر، ومحاربة البغي في حياتهم.

وقد عظَّم فقهاء الإسلام قيم العدل: حتى جعلوه معياراً لنصرة الله وتأييده وهذا كله في ضوء فهمهم لقول الله تعالى:

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

[سورة النحل، الآية: 90]

والمسلمون يعتقدون بمشروعية التدافع الإنساني، ويؤمنون بأن منهجية التدافع بين الناس القائمة على أساس التنافس، في جلب المصالح، ودرء المفاسد. كفيلة بتحقيق الحياة الأفضل لهم جميعاً، وتوفير الأمن والاستقرار، وصرف الفساد عن الأرض، وهذا مؤكد في قوله تعالى:

﴿...وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة البقرة، الآية 251]

ومن جهة أخرى: فإن التدافع بين الناس لجدير بحماية حرية الناس في معتقداتهم، وأنماط حياتهم، وصيانة معابدهم على اختلاف مللهم، وهذا في قوله تعالى:

﴿...وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [سورة الحج، الآية: 40]

ومن مفاخر الفقه السياسي في الإسلام، أن الشرائع جاءت لتحقيق مصالح العباد حيث أن مبناها يقوم على تحقيق المصالح، ودفع المفاسد.

والأمة الإسلامية تعتقد وتؤمن في انفتاحها على الآخرين بأنها شريكة مع غيرها في منهج الاستخلاف لعمارة الأرض، وليست محتكرة لهذا المنهج، وأن غياب المسلمين أو تغييبهم عن المشاركة في منهج الاستخلاف، أو تجريد هذا المنهج من القيم الربانية، سيؤدي لا محالة إلى فساد في الأرض ودمار حياة الناس عليها، وهذا مؤكد في قول الله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [سورة محمد، الآيتان: 9-10] (29)

البشرية مدعوة بأمر ربها للتعارف والتعايش وفق القيم والمعايير الربانية على إختلاف أجناسهم، وأعراقهم، وأديانهم، وألوانهم

إن مبادئ الإسلام وقيمه تعلم المسلمين، وتؤكد عليهم في انفتاحهم، ألا يبخسوا الناس أشياءهم، وألا يحتقروا كدحهم وجهدهم في كل عمل بناء، يحقق الإعمار والإبداع الحضاري.. وتلزم تعاليم الإسلام المسلمين احترام وتقدير كل عطاء خير في ميادين القيم والسلوكيات، وفي ميادين الماديات والوسائل والمهارات، وهذا يلتقي مع قيم وتوجيهات منهج الاستخلاف الرباني في عمارة الأرض..

لأن القرآن الكريم يعتبر احتقار سعي الناس، وبخس دورهم الإيجابي الفعال المثمر في الأرض، من العبث والإفساد الذي يمقته الإسلام، ونهى عنه، وهذا في قوله تعالى:

﴿...وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [سورة هود، الآية 85]

إن الإسلام مثلما وضع ثوابت ومنطلقات، وقدم قيماً ومبادئ كلية لضبط أدبيات ومقومات التعايش البشري، والتعارف الإنساني، فإنه أيضاً وضع ثوابت ومنطلقات، وقد وضع قواعد وأسساً لضبط حركة مصالح الناس، وقدم قيماً وأدبيات لإحكام سيولة تبادل المنافع بين المجتمعات، في إطار التعايش والتعارف بينهم(30).

وبعد: فإن المسلمين وفق هذا المنهج الرباني العادل، وموروثه القيمي والتشريعي، وفي ضوء قدراتهم المادية والسياسية، ليجدون أنفسهم مؤهلين كل التأهيل، لأداء مهمتهم ومساهمتهم الإيجابية

---

29 ـ انظر: د. عباس الجراري: الإسلام والنظام العالمي، ص 13.

30 ـ أنظر: د. حامد الرفاعي، الإسلام والنظام العالمي الجديد، ص 130 ـ 131.

الفعالة في معترك التدافع الإنساني البشري لإقامة نظام عادل، ينهي حالة القلق والذعر التي تحيق بالناس.

ويصرف أسباب الفساد عن الأرض، ويضع حداً لتدهور العلاقات في أكثر من موقع، ويزيل عوامل الاضطراب، والجشع والصراع السياسي والاقتصادي بين الأمم،ويضبط حركة التدافع الإنساني، ويقيم موازين القسط للتعايش، والتعاون البشري، ويرتقي بمنهج التبادل والتكامل، والانفتاح الثقافي، بما يحقق للناس تطلعاتهم لحياة إنسانية آمنة مطمئنة. تنعم بالأمن، والاستقرار، والعدل، والسلام.

والمسلمون من أجل هذه المهمة الجليلة النبيلة، على استعداد لكل حوار بناء مع أي جهة معينة وفعالة، شعبياً ورسمياً، للسير بالإنسانية نحو الخير والفلاح.

وقد لا يخفى على أحد، أن الأمة الإسلامية تمتلك رصيداً ضخماً من القيم الهادفة، يمكن استثماره فيما يفيد الإنسانية.

ونحن نشير إلى المعالم الإسلامية للثقافة، نؤكد على ما يلي:

أولاً: أن الانفتاح الثقافي الذي ندعو إليه. ينبغي أن يجنب المجتمعات عمليات فرض التجارب والنماذج الوافدة من بلدان وحضارات معينة، والتي يتم إسقاطها على واقع مغاير للواقع الذي بُعثت فيه.

وإن نقل التجارب ونشر المفاهيم التي أفرزتها سياقات تاريخية واجتماعية معينة وتصدير البرامج، لا يمكن أن ينجح إلا في سياق تواصلي، ومناخ تفاعلي، ورؤية تبادلية تحترم خصوصية الآخر، وذاتيته الحضارية والثقافية.

وذلك أن قيم الديمقراطية، وحقوق الإنسان، التي تركز عليها الحضارة الغربية اليوم. لا تنفك تجد في المجتمعات الإسلامية الصدى الواسع والإيمان العميق. لكن المسلمين بالقدر ذاته لا ينفتحون عليها ولا يطالبونها. ولا يجسدونها في سياق خصوصيات وتجارب الأمة الإسلامية، حيث أن المسلمين ينطلقون من قيم الحضارة الإسلامية، وأساليبها في التربية، والتنشئة المنبثقة عنها.

وفي هذا الإطار. فإن المسلمين يؤكدون على أهمية الترابط الإنساني، ويرفضون عمليات إسقاط المفاهيم على واقع مختلف التضاريس، كما يرفضون تعليب القيم، وإملاء التجارب.

ثانياً: كما أن مفهوم المسلمين للانفتاح، لا ينفصل عن الأبعاد الخلقية للقيم الثقافية والدينية عموماً، فثقافة المسلمين الإسلامية انبثقت تاريخياً عبر منظومة القيم التي كانت ولا تزال تمثل جزءاً من رصيد الأمة الحضاري، وهي منظومة تميز نسيج الأمة الاجتماعي بمختلف خلاياه، وإن إبراز البعد الخلقي في الانفتاح نابع من إحساس المسلمين، وقلقهم مما يهدد وجودهم الحضاري من انحرافات تجسدها المنافسة الشرسة، التي باتت محكومة بمنطق الربح والخسارة، فضلاً عن الكثير من الظواهر التي أفرزتها ظروف العصر، وباتت تهدد المجتمع.

صورة المسلمين الحضارية في غالبية وسائل الإعلام الغربية، لا تعكس صورة المسلمين الحضارية، كما أن الأحكام المعيارية حولها لا تستند إلى موضوعية موثوقة

ومع هذه المحاذير يتعين كذلك تبين طبيعة المعوقات التي تعترض طريق هذا الانفتاح، خصوصاً الحوار الإسلامي الغربي، وفي مقدمتها ما يشوب الصورة الغربية من سلبيات وتشويهات ليس المسلمون مسؤولين عنها.

ثالثاً: لقد أصبحت وسائل الإعلام والاتصال في الأيام الراهنة هي المسؤول الأول عن عملية نقل صور الشعوب وثقافتها وصياغة المواقف منها وحولها، ولا تخفى على أحد أهمية هذا الدور وخطورته في آن واحد، فالإعلام يبلور السياسات ويكون الاتجاهات، ويوجه القرارات، لدى الدول والجماهير في الوقت نفسه، خصوصاً مواقف التعاطف أو النفور.

إن صورة المسلمين الحضارية في غالبية وسائل

الإعلام الغربية، لا تعكس صورة المسلمين الحضارية، كما أن الأحكام المعيارية حولها لا تستند إلى موضوعية موثوقة.

لقد شكلت صورة الشخصية العربية والإسلامية في سياق سلبي لدى الرأي العام، فغلب على ملامحها الانغلاق، والتعصب، والجهل، والعدوانية، إنها الصورة القاتمة، للأسف، في ذهن الإنسان الغربي العادي، الذي يتلقى معلوماته عن العرب والإسلام من وسائل إعلام موجهة في غالبيتها من مراكز وقوى ضغط ليست محايدة[31].

ويمثل اعتماد مبدأ السماع إلى الآخر، فرصة لإجلاء صورة الثقافة والحضارة الإسلامية لدى الغرب، الذي نطمح إلى تطوير علاقة المسلمين معه وتدعيمها، لكن المشكل يتجسد في كيفية تبلغ المسلمين الحقيقية والتعريف بأنفسهم.

لقد آن الأوان للكف عن النظر إلى الانفتاح الثقافي باعتباره وسيلة لتحقيق المنافع، واكتساب الأسواق، كما آن الأوان للكف عن ربطه بالنزعة الأمنية، فالمجتمعات الإسلامية لا تمثل مصدر تهديد، ولا منطقة خطر بالنسبة إلى الغرب.

رابعاً: لقد بات من الضروري تصحيح صورة الحضارة الإسلامية المشوهة والمنقوصة لدى العالم الغربي، ويجب أن نعترف بوجود جهل للمسلمين أو تجاهل لهم، على رغم أن المجتمعات الإسلامية تعرف تاريخ الغرب وحضارته، ولغاته أكثر مما يعرف هو عن المسلمين، حتى أبناء المسلمين المهاجرين، على رغم أهميتهم الحضارية في بعض المجتمعات الغربية، لا يحظون في مجتمعات المهجر بالقدر الكافي من تعليم اللغة العربية، وكثيراً ما يؤدي التهميش اللغوي والقيود إلى إبعاد الأجيال الجديدة في بعض الجاليات العربية والإسلامية عن جوهر القيم الإسلامية الحقيقية، مما يفسح المجال أمام التغرير بالتنظيمات المتطرفة، وتضليلها، (إسلام الكهوف) كما قيل عوضاً عن إسلام النور.

ولا شك كذلك في أن هناك بعض جوانب الخلل في بعض المجتمعات، فيجب أن نعترف بأن المسلمين مقصرون في فهم الغرب أحياناً.. بما سمح بتسرب بعض الأخطاء في مواقفهم وتقديراتهم.. فلا بد من انفتاح المسلمين على ما حولهم، ولكننا بحاجة إلى المساعدة على اقتحام القرن الجديد في مجالات التكنولوجيا الحديثة، وفي مجال التعرف على التجارب الرائدة في التنمية[32].

وقد يكون واضحاً: أن تحقيق الانفتاح يتطلب استمرار بذل الجهد والمحاولات، لأنه مهدد باستمرار ببعض المخاطر والمنزلقات. فالانفتاح ليس في مأمن من التوتر والتأزم والتعثر والركود.

والانفتاح عملية تفاعلية، لا يمكن أن تُعلب أو تُفرض، لكن المهم هو الوعي والاقتناع بأن ما يعتري الأمة أحياناً من الانتكاسات. إنما هو أمر مرحلي وعادي، ومن المفروض أن يدفع هذا المسلمين إلي مزيد العمل من أجل صيانته وحمايته عبر قيام منظومة المرتكزات التي أسلفنا ذكرها تسندها في ذلك مؤسسات المجتمع المدني[33].

إن الانفتاح الحقيقي على الحضارات يشكل أبرز التحديات التي يواجهها العالم اليوم، فهو شرط أساسي من شروط التعايش السلمي بين الشعوب[34].

ونحن نعتقد: أن الحضارة الإسلامية قادرة في ظل التحولات الدولية والتحديات المستجدة. بفضل رصيدها التاريخي، والثقافي، وتجاربها الثرية، على أن تلعب دوراً إيجابياً في تعميق مبادئ الانفتاح بين الأمم والشعوب، وتحقيق معاني التفاهم والسلام الدوليين.

31 ـ المصدر السابق، ص 130.

32 ـ المنجي بوسنينة: جريدة الحياة، ص 9، يوم 2001/12/2.

33 ـ المصدر السابق.

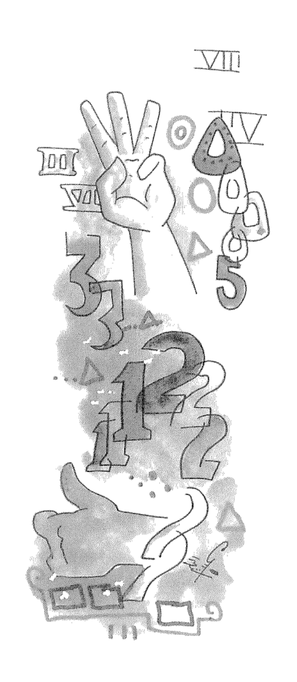
34 ـ المصدر السابق.



متى تتوحد الأرقام في العالم العربي؟

محمد القاضي *

تجدد الكلام في الأيام الأخيرة، على صفحات بعض الصحف العربية، عن أصل الأرقام التي تُستعمل في المغرب العربي، وهل هي عربية أم أنها ذات أصل هندي كما يدعي العديد من الباحثين في المشرق والمغرب؟ وكما هو معروف فإن الوطن العربي انقسم إلى شقين ومنذ مدة طويلة، في طريقة كتابة الأرقام، فالطريقة الأولى، وهي الشائعة في بلاد المشرق العربي، وفي كل البلاد الإسلامية، التي تستعمل الأبجدية العربية، كإيران وتركيا وباكستان وأفغانستان، والتي تستعمل الأرقام كما يلي: (٠٩٨٧٦٥٤٣٢١)، أما الطريقة الثانية، فهي الشائعة في المغرب العربي، وفيها تستعمل صورة الأرقام الآتية: (0987654321)، وهي نفسها تُستعمل في البلاد الأوروبية والأمريكية والآسيوية، ويرجع فضل اختراع هذه الأرقام (المغربية) كما يعتقد الأستاذ الكبير، عبد الهادي أبو طالب إلى عالم من المغرب العربي، هو تميم بن خريف، الذي انطلق على ما يبدو، من زوايا الشكل الهندسي المربع، ليستنتج وجود الأرقام، من تقسيم أضلاع المربع إلى وحدات، فتبيّن له أن الزاوية الواحدة تشكل رقم واحد (1) والزاويتين رقم اثنين (2) وهكذا إلى رقم تسعة، أما إذا كان الرقم خالياً من الزوايا، فيصبح نقطة أو دائرة مستديرة، لا زاوية فيها، وأطلق عليه هذا العلم إسماً عربياً، هو الصفر، الذي يحتضن معنى الخلو والفراغ. وقد أُدخلت الأرقام



* باحث وكاتب مغربي.

العربية إلى أوروبا، عن طريق إسبانيا ومعها إسم الصفر، الذي حرّفته مرة إلى (سفر CIFRE) أو إلى (شفر CIFFRE). كما تغيرت الكلمة، بقلب صادها زاياً وحُذفت منها الفاء فأصبحت (زيرو ZERO) التي تشير جميع المعاجم، إلى أنها كلمة عربية، فابن منظور، عرّفه بأنه الشيء الخالي، وأنه في حساب (طريقة عد) الهند: الدائرة في البيت، يفني حسابه، وفي تاج العروس، الصفر بالكسر، وفي حساب الهند: الدائرة في البيت، وبالضم الشيء الخالي، وبضم أوليه وكذلك بضم أوله وكسر ثانيه، والجمع أصفار. والأوروبيون أنفسهم يطلقون على الأرقام المذكورة وصفاً صريحاً، ينم عن أصلها، ويقولون بلا تردد، إنها «الأرقام العربية» ويقول مؤرخ الأرقام «جورج يفراح»: إن الأرقام كلها هندية، بعضها يُستعمل في المشرق، وبعضها خضع للتطوير وأُستعمل في المغرب، ومنه انتقلت الأرقام المغربية إلى أوروبا في القرون الوسطى، والمؤلف كما يذكر الأستاذ محمد العربي المساري، عالم في الرياضيات، وُلد في مراكش سنة 1947م ويعمل مستشاراً لشركة IBM المختصة في أجهزة الإعلاميات، وقد استقصى موضوع تاريخ الأرقام، خلال سنوات طويلة، وخبر العديد من المراجع الأجنبية، وطلع في مؤلفيه:

- HISTOIRE UNIVERSELLE DES CHIFFRES/ 1981.
- LES CHIFFRES: 1985

(وقد تُرجم إلى عدة لغات) بزبدة معلومات تشكل الصيغة الأخيرة، لما وصل إليه البحث العلمي في هذا المجال، ويعتبر المؤلف حجة في تاريخ العلوم، كما يدل كتابه الضخم عن التاريخ العالمي للأرقام، الذي أصبح مرجعاً معتمداً في الأوساط الأكاديمية، ولا يضيف المؤلف الشيء الكثير لمعلوماتنا، نحن المغاربة فيما يخص انتقال الأرقام المغربية إلى أوروبا، على يد البابا سلفستري الثاني، الذي درس الرياضيات في جامعة القرويين وقرطبة، قبيل تسلمه كرسي البابوية، وهو يوضح أن تلك الأرقام هي هندية في الأصل، طورها المغاربة ليجعلوها أكثر منطقية، مما سهل انتشارها في كل ربوع العالم، ويقول: أن المصادر العربية القديمة، لم تتردد في أن تسمي تلك الأرقام (بالقلم الهندي) وينص في صفحة 301 على مما يلي: «إن الأرقام الحالية عندنا، أتت من عند العرب، لكن من عرب المغرب، وليس من عرب المشرق».

ويورد المؤلف نموذجاً للأرقام المغربية، ورد في مخطوط إسباني، يرجع إلى سنة 376م وقد عُرض هذا المخطوط في المتحف الأركيولوجي بمدريد، في سنة 1992م بمناسبة الذكرى الخمسمائة لاكتشاف أمريكا، ونص في سجل ذلك المعرض، على أن أصل المخطوط، محفوظ في مكتبة الاسكوريال تحت رقم: (FOL.12V°) (D12) ويعتبر المختصون أن هذا المخطوط، هو أقدم نص أوروبي وردت فيه الأرقام العربية، ويستنتج من هذا، أن المخطوط المشار إليه، يدل على أن الإسبانيين كانوا يتداولون الأرقام المغربية، في الوقت الذي كان الأب «جيربير GERBERT»، قد أصبح شخصية دينية وعلمية مرموقة، قادرة على التأثير، قبل أن ينتحل اسم سلفستري الثاني سنة 999م.

الأوروبيون أنفسهم يطلقون على الأرقام المذكورة وصفاً صريحاً، ينم عن أصلها

الأرقام العربية تغزو أوروبا:

تضافرت رواية المؤرخين، على أن جامعة القرويين، قد احتضنت من بين الوافدين عليها غير المسلمين، طالباً من أعلى درجات الكنيسة، قدم عليها من قرطبة، هو «جيربير دورياك» وُلد بين سنتي 940م، و945م، الذي ارتقى بعد أن درس بالقرويين، إلى رتبة البابوية، وحمل اسم البابا سلفستري الثاني، ومن القرويين حمل معه الأرقام العربية، وأدخلها أول مرة، فشاع هناك استعمالها إلى اليوم. وقد تحدث عنه المؤلفون الغربيون القدامى أنفسهم، على أنه كان

مخلص العالم الميسحي، من ضنك الأرقام الرومانية، وحامل معجزة الصفر والنظام العشري إليها من العرب، وهو الذي طالع أوروبا، بأول كتاب من نوعه في علم الحساب، بالأرقام العربية، كما يذكر الدكتور عبد الهادي التازي، في بحث له عن الأرقام المغربية، المنشور بمجلة «اللسان العربي» (يناير 1965م) ص: 37.

ولعل المؤرخ الإنجليزي «كيوم دوما لميسيوري» وهو مشهور من رجال القرن الثاني عشر الميلادي، كان أول من صرح، بما لجيربير، تلميذ العرب بالأندلس، من أثر على انتشار الأرقام العربية بالدول المسيحية، وقد وجد فعلاً هذا الجانب من المعمورة، متعة لا تعوض في هذه الأرقام، البسيطة في تركيبها والعظيمة في فائدتها، ولم يفكر الأوروبيون بادئ الأمر أبداً، في أن يسلخوا عنها الوصف الملازم لها، أعني العربية، أما المستشرقة الألمانية «زيغريد هونكه» فقد خصصت له فصلاً بعنوان: «البابا يحسب بالعربية» في كتابها (شمس العرب تسطع في الغرب) فتعتبره «أول رجل في الغرب، تعلم تلك الأرقام (التسعة) واستخدمها، وكتب أرقامه العربية التسعة، على اللوح نفسه، الشائع حينذاك، والتي كانت تجري عليه العمليات الحسابية البسيطة، كما كانت عليه الحال عند الإغريق والرومان، والذين أطلقوا عليه اسم «أباكوس»... فقد كتب «جيربير» نفسه أرقاماً لم يكن أحد في الغرب قد رآها من قبل، وكما امتازت تلك الأرقام بشكلها الغريب، فقد كانت أسماؤها أيضاً غاية في الغرابة، وإن كان «جيربير» نفسه لم يسجلها لنا، فقد سجلها من بعده «رادولف فون لاون» في القرن الثاني عشر، والأرقام التي استوردها «جيربير» كانت أقدم من أرقام الخوارزمي العشرة، التي كانت تختلف في شكلها عن أرقام الأندلس، ومن المحتمل جداً، أن تكون الأرقام الهندية التسعة، قدمت إلى الأندلس من الهند عبر الإسكندرية، عن طريق التجار، قبل أن يفد (كنكه) الفلكي الهندي، بأرقامه العشرة إلى بغداد «ص: 80 و84».

وتساءلت المستشرقة، كيف نسي «جيربير» إحضار الصفر معه إلى الغرب، حين تعلم الأرقام عن العرب؟ وتبيّن ذلك قائلة: إن «جيربير» لم ينس شيئاً بالمرة، فالصفر حتى ذلك الوقت، لم يكن قد عرف في الأندلس، وكان الأندلسيون يضعون نقطة أو نقطتين أو ثلاثاً فوق خانات الآحاد والعشرات والمئات وهكذا... وبذلك لم تكن طريقتهم هذه تجعلهم في حاجة إلي الصفر، ولم تدم بهم الحال، على هذا المنوال طويلاً، فسرعان ما تعلموا عن عرب المشرق الصفر. كرقم، وأدخلوه في زمرة أرقامهم ص: 84.

إن أعظم فضل يشاد به للعرب، هو نقلهم للأرقام الهندية، التي فتحت في الرياضيات باباً جديداً، ما نزال نعيش على ثماره، ولم يتجل فضل الأرقام الهندية في رموزها، فقد كان لمن سبقهم رموز في القيمة الموضوعية وفي الصفر، فيكفي أن نزيد في الأصفار عن يمين العدد ليكبر وعن يمين مقام الكسر ليصغر، وما زال الناس يقولون: إن وضع العرب للصفر الحسابي، قد حلَّ أكبر معضلة رياضية في العالم، وقد أكد «البيروني» أن أشكال هذه الأرقام كانت مختلفة باختلاف الجهات في الهند، وأن العرب انتقوا منها ما رأوه مناسباً، واكتفى العرب بطريقتين مختلفتين، لكتابة الأرقام، الطريقة المشرقية واستعملها عرب بغداد، وتطورت قليلاً، حتي صارت كما هي الآن بمصر والعراق وسوريا ولبنان وشبه جزيرة العرب.

إن وضع العرب للصفر الحسابي، قد حلَّ أكبر معضلة رياضية في العالم

والطريقة المغربية التي استعملها عرب الأندلس، وتطورت حتي أصبحت كما هي الآن بالمغرب، ولاحظ البيروني أن الغربيين اقتبسوا الطريقة المغربية، عن طريق عرب الأندلس، ثم زاد قائلاً: وبهذه المناسبة ننوه بأن المغاربة الآن، لا يزالون يستعملون طريقة أجدادهم في كتابة الأرقام، ولا يظن بأنهم يكتبون الأرقام الفرنجية، وإنما الفرنجة هم الذين يكتبون

الأرقام المغربية. ولا يزال الغرب يطلق على هذه الأرقام، اسم الأرقام العربية. (نقلاً عن مجلة اللسان العربي/عدد 3/1965/ص: 64 و65) والتنويه بأن المغاربة لا يزالون يستعملون طريقة أجدادهم. وتخصيصهم بذلك دون غيرهم، ونسبة تلك الطريقة لأجدادهم، يدل على أنها من وضعهم. ولما كانت قيمة الأرقام العربية تتجلى في طريقة الإحصاء العشري، واستعمال الأصفار لنفس الغاية التي نستعملها الآن، أطلق عليها اسم (الأصفار CHIFFRES) في اللغتين الفرنسية والألمانية، على طريق المجاز المرسل، بتسمية الكل باسم بعضه الأهم، ولكن هل نجح جيربير، أو سلفستري الثاني، في إقناع أهل أوروبا باستعمال هذه الأرقام؟ إن التاريخ يحدثنا بأنه لقي تعنتاً كبيراً من الوسط الديني، واتهم باستعمال أرقام هي من بنات الشيطان، لأن عمليات مثل الضرب والقسمة ظهرت لمعاصريه، وكأنها من عمل السحر، فقد كانت العمليات الحسابية تتم بفضل الأرقام العربية، في يسر وسرعة على عكس ما كان يتطلبه استعمال الأحجار أو القطع المعدنية، مع الزمن الطويل الذي كان تستغرقه العملية إذا لم يتم اللجوء إلى (السحر العربي)، وقد تم نبش قبر البابا سلفستري الثاني في سنة 1648م للتأكد ما إذا كان خالياً من الشياطين!

قيمة الأرقام العربية تتجلى في طريقة الإحصاء العشري

وينص صاحبا كتاب (تاريخ الرياضيات)، الدكتور عبد الحميد لطفي والدكتور أحمد أبو العباس، أن أول من دعا لاستخدام الأرقام العربية بحدة، هو ليوناردو الإيطالي الذي وُلد في «بيزا» عام 1180م، وكان والده يعمل في مدينة (بجاية) بالجزائر، كرئيس للمركز التجاري البيزي، وكان يختلط بتجار الجلود العرب القادمين من الصحراء والمغرب، واعتاد مكرهاً أم راضياً، على طرق كتابتهم وحساباتهم السريعة، وكان من الطبيعي لإعداد ابنه لمثل وظيفته في التجارة، أن يسلمه إلى معلم عربي يعلمه الحساب، وأولع الصبي شغفاً بالأرقام الهندية وطرق استخدامها، ولم يلبث أن تعلم الضرب والقسمة وأجادهما، كما علمه مدرسه (سيدي عمر)، حساب الكسور على أحدث الطرق التي كانت تدرس في المدارس العليا ببغداد والموصل، ورحل بعد ذلك في طلب العلوم العربية إلى صقلية، ثم إلى مصر وسوريا واليونان وسبتة، ودرس على بعض علماء العرب وأخذ عنهم، ووقف على مؤلفاتهم في الحساب والجبر، ولا سيما كتب الخوارزمي والبيروني، وتردد على كبريات المكتبات بالإسكندرية ودمشق، وناقش كبار علماء القاهرة، ودرس كل ما حوته مخطوطات الرياضيين من الإغريق والهنود والعرب، وألف وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، كتابه الشهير (الأباكوس) باللغة اللاتينية.

أصبح ليوناردو أكبر عالم في الجبر بأوروبا، وكان صديقاً حميماً للإمبراطور «فردريك طانيا» (1220-1250م) وكانا شغوفين بعلوم العرب، فكان يقرأ كالعرب من اليمين إلى اليسار، وحتى الكسور كان يكتبها إلى يسار الأعداد الصحيحة، فيكتب مثلاً واحد ونصف على هذه الصورة (1، 1/2)، وإذا كان ليوناردو، يعد أباً لعلماء الجبر في أوروبا، وأعظم من نشر العلوم الرياضية فيها، فهو يعترف في مؤلفاته وفي كتاباته بفضل العرب عليه، فيما وصل إليه، أما عن استعمال الأرقام العربية من بعده في أوروبا، فقد ظهرت منقوشة في عملة سويسرا عام 1424م وفي النمسا سنة 1484م، وفي فرنسا عام 1485م، وفي ألمانيا سنة 1489م، وفي اسكتلندا عام 1539م، وفي إنجلترا عام 1551م، واعتمدت لأول مرة في التقويم، كان في تقويم (كويل) سنة 1518م.

نحو توحيد الأرقام العربية:

ثار جدل كبير، وعبر عقود أربعة وزيادة، بين المفكرين في المغرب والمشرق، حول استعمال الأرقام العربية الحقيقية، وتوحيدها في جميع الدول العربية

شرقاً ومغرباً، فكانت اللقاءات والندوات تبنتها مؤسسات عربية، مجامع لغوية، مكتب تنسيق التعريب، المجمع الفقهي الإسلامي، جامعات، ومنظمة الاتحاد البريدي العربي، الذي تقدم سنة 1960م، في مؤتمره الذي انعقد بالرياض، باقتراح يرمي إلى استخدام الأرقام العربية الأصلية، في أختام البريد بدلاً من الأرقام العربية الحالية فهي أرقام هندية، وقدم المكتب الدائم، لاقتراحه بالإشارة إلى ما تقضي به الاتفاقية البريدية العالمية من كتابة العبارات الخاصة بالأختام البريدية بحروف لاتينية وأرقام عربية أصلية CHIFFRES ARABES.

وقد أصدر مؤتمر الرياض هذا، توصية للبلاد العربية، بالعمل قدر الإمكان على استخدام الأرقام السالفة الذكر، وهي: 987654321 إلخ، ولا ندري هل طُبقت جميع مكاتب البريد في العالم العربي هذه التوصية أم لا؟!

وفي شهر (ديسمبر) من سنة 1963م بتونس، انعقدت حلقة لتوحيد الأرقام العربية، حضرها ممثلون وملاحظون عن الدول العربية وجامعتها، ودرست فيها أبحاث تناولت جملة الأرقام العربية في مختلف مراحلها عبر التاريخ العالمي، وقد توصل أعضاء هاته الحلقة، إلى التحقق من أن الأرقام المغربية المستعملة الآن في العالم الغربي، هي الأرقام العربية الأصلية، التي يجب اعتبارها والاقتصار عليها في العد والترقيم، وقد صدرت عن هذه الحلقة توصيات بهذا الشأن، كما أن الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية، أكدت في هذا الاجتماع بأنها ستصدر تعليماتها بذلك، إلى جميع الدول المنضوية تحت لواء الجامعة العربية، والغريب في الأمر، أن مصر، حيث يوجد مقر الجامعة العربية، لم تلتزم بهذه التوصية لحد الآن!

وخلال المؤتمر الثاني للتعريب بالجزائر سنة 1973م، أُحيلت القضية على اللجنة المكلفة بدراسة موضوع الأرقام والرموز، بحضور أساتذة كبار، من العراق والأردن وتونس والجزائر وفلسطين، وممثل عن المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس ومنظمة اليونسكو، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وبعد تبيّن وجهات النظر المختلفة ارتأت اللجنة أن توصي باستعمال الأرقام العربية 54321 ... إلخ للأسباب الآتية:

1 - إن هذه الأرقام باستعمالها سيحل كثيراً من المشاكل التعليمية والفنية، وذلك لأنها ستغني عن ترجمة كثير من الجداول الرياضية في مختلف العلوم، وستيسر على الطلاب والمشتغلين في العلوم وقراءتها في مظانها، علماً بأن صور هذه الأرقام تكاد تكون عالمية.

2 - إن استعمال هذه الأرقام سيحل مشكلة الصفر، الذي يرسم بطريقة الأرقام الهندية المستعملة حالياً بهيئة نقطة، كثيراً ما أدى تناهيها في الصغر إلى الوقوع في الخطأ.

3 - استعمال هذه الأرقام العربية لن يكلف المتعلم العربي، أكثر من تعلم تسع صور للأرقام، إضافة إلى الصفر، هو أمر سهل جداً.

وكان المرحوم الأستاذ «محمد الفاسي» قد نادى في مناسبات كثيرة باستعمال الأرقام العربية، ونظم منذ سنين طويلة، عندما كان رئيساً لجامعة محمد الخامس بالرباط ندوة حول هذا الموضوع، حضرها علماء مشارقة وجامعيون ومجمعيون، وبالمناسبة أحضر لهم مخطوطات قديمة، تحتوي على هذه الأرقام العربية، كما تكتب بالمغرب وكما يكتبها العالم بأسره، حتى إنه في كتابة روسية - بحرف السرلي - تبيّن الرقم العربي، وكذلك اللغة الصينية واليابانية،

وكتب مرة في صحيفة «الشرق الأوسط» قائلاً: «إن أعظم اختراع قام به أسلافنا في ميدان العلوم الرياضية، وعمَّ نفعه العالم بأسره، واعترفت به كل الأمم، وهو اختراع الأرقام والعربية التي يستعملها المغاربة قاطبة، وأهل الأندلس وصقلية، أيام حكم الإسلام لها، وهذا الاختراع، هو ما يسمى الأرقام العربية في القارات كلها، باستثناء المجتمعات العربية الشرقية، الذين يستعملون الأرقام الهندية الأجنبية، والمؤسف ليس أن يستعملوا هذه الأرقام، وينبذوا أرقامهم الأصلية، ظناً منهم أنها أوروبية، وهذا سببه الجهل والجهل المركب، أي جهل الشخص لشيء، وجهله لكونه يجهله... والمؤسف هو الاستمرار في التنكر لتراث عربي خالد، وفي قصم عروة الوحدة، ولكن أكثر من هذا وذاك، اتهام المحافظين عليه، بأنهم يقلدون الغرب في شيء نحن الذين مكناهم منه، واقتبسوا منا، وليس فوق هذا الجهل جهالة.

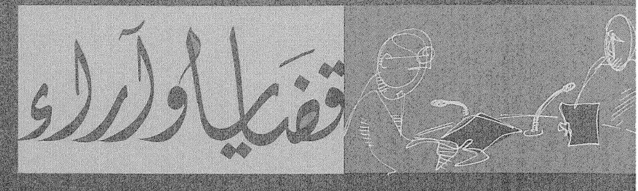
أما الأستاذ «عبدالهادي بوطالب» فقد وجه من خلال كتابه «ذكريات وشهادات ووجوه» الدعوة إلى العرب، ممثلين في هيأتهم العلمية المختصة، ليعملوا على أن يهجر مشرق العالم العربي الأرقام الهندية الدخيلة، إلى الأرقام العربية الأصلية، ليتحد جناحا العروبة في المشرق والمغرب، في هذه العلمية الحضارية، التي لا يمكن إهمال آثارها الطيبة، على مسلسل الوحدة العربية، فضلاً عن أن تبني الأرقام العربية، سيشكل إلى إحياء جانب مهم من تراثنا العربي الإسلامي، كما أنه سيوحدنا مع سائر أجزاء العالم، الذي تبنى تراثنا، مما لا يجوز معه أن يهجره أربابه وذووه!

ويرى الأستاذ الباحث عبد العزيز بن عبد الله، أن عروبة الأرقام، المستعملة الآن في أوروبا والمغرب، قد تكون غير أصيلة، نظراً لطابعها الهندي المحتمل، غير أن هنالك فرقاً بين الشكل الهندي الأول، وبين ما أصبح العرب يستعملونه من أرقام، وصفتها أوروبا بأنها عربية، فكان ذلك مبرراً لهذه التسمية التي درج عليها الغربيون، إزاء الأرقام المعدلة من طرف العرب، خاصة بالأندلس، وجزر البحر المتوسط، منذ العصور الوسطى: ومهما يكن فإن الوطن العربي في حاجة الآن إلى أن يوحد اختياراته مع العالم الحديث، في هذا المجال، لا سيما وأن مناطق عربية شاسعة، تُستعمل منذ عدة قرون، ما تستعمله أوروبا من أرقام تصفها هذه بأنها عربية، فلو كان الغربيون يستخدمون وحدهم هذه الأرقام لتساءلنا لماذا تعطى الأسبقية لهذه على تلك؟. وقد ظهرت دراسات عديدة لعلماء عرب أبرزت أصالة الأرقام المستعملة اليوم، لدى الغربيين، كأرقام عربية. (مجلة المستقبل العربي/عدد: 1979/1/ص: 161).

وخلاصة القول، إن مسألة الأرقام قد كثر فيها الكلام، ولم تزل من الباحثين موضع اهتمام ومثار نقاش، في المشرق والمغرب، وحبذا لو سمح الأمر فيها وتوحدت هذه الأرقام في جميع البلدان العربية، تجنبنا للمشاكل التي تحدث عند الكثير من أبناء المشرق أو المغرب، في رسم الأرقام ووضعها بطريقة سليمة، على أظرف المراسلات والعناوين وبطاقات مختلفة، فكم من رسائل تاهت بين المشرق والمغرب، دون أن تصل إلى أصحابها، لأنها كُتبت بأرقام مستعملة في المشرق، والتي تجهل لدى البعض أو العكس!

المراجع

1 ـ شمس العرب تسطع على الغرب/زيغريز هونكه.
2- ذكريات وشهادات ووجوه/الأستاذ عبد الهادي بوطالب.
3 ـ مجلة اللسان العربي/عدد: 3 «غشت» 1965م.
4 ـ مجلة اللسان العربي/عدد: 2 أي النار «يناير» 1965م.
5 ـ مجلة اللسان العربي/عدد: 4 «غشت» 1966م.
6 ـ مجلة اللسان العربي/عدد: المجلد 12/ج1/1975م.
7 ـ مجلة المستقبل العربي/عدد: 1/1979م.
8 ـ مجلة العربي/عدد: 345/«غشت» 1987م.
9 ـ صحيفة الحياة/عدد: 20 و 1997/9/21م.
10 ـ صحيفة «العلم» المغربي/عدد: 1993/2/8م.
11 ـ صحيفة «الشرق الأوسط» عدد: 1984/1/27م.



المصطلحات

بين الدين والثقافة والسياسة



المصطلحات
بين الدين والثقافة والسياسة

من يحدد معنى (المصطلح)؟ هل يحدده من قام بـ (تصنيعه)؟ أم يحدده من يقوم باستخدامه؟ أم يحدد معناه من يحلله؟!

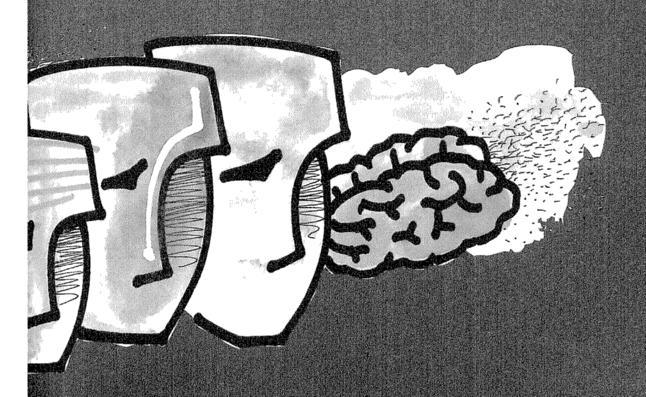
هل يدل (المصطلح) على (المعنى) دون الانتماء لثقافة معينة، ودون ارتباطه بسياق يكتسب من خلاله دلالة تلقى اتفاقاً بين الأطراف ذات العلاقة به؟

هل من حق (مصنّعي ومسوّقي المصطلحات) فرض المعنى لهذا المصطلح أو ذاك دون أن يكون لغيرهم حق تعديله أو توسعته أو تضييق مدلوله؟!

ما مدى تأثير الثقافات والعقائد في تحديد معنى (المصطلح)؟ إلى أي مدى يؤثر السائد والمألوف والتاريخ في (المصطلح)؟ هل فهم (المعنى) تابع من دلالة (المصطلح) بالنسبة لجميع مستخدميه؟ أم أن كل ثقافة وكل عقيدة وكل مرحلة تاريخية تؤثر في (دلالة) هذا المصطلح أو ذاك؟

❖ المصطلح كلمة، والكلمات - كما يقال - تدل على ما في الضمائر... ولكن هل يقصد بـ (الدلالة) المعنى المراد أم المعنى المفهوم؟

❖ تداعت إلى الذاكرة هذه الأسئلة - وغيرها كثير - حين بدئ الاعداد لقضية هذا العدد من مجلة التواصل، لم نعلن هذه التساؤلات، ولم نطرح تلك الأسئلة، كل ما في الأمر أن حواراً مع عدد من المهتمين بهذه القضية وبالشأن الثقافي دار دون حدود أو قيود، ومن ثمار تلك الحوارات ما يتضمنه هذا العدد.



❖ يرى البعض أن «فلسفة اللغة هي العامل الأساس في تحديد الآراء والمواقف المختلفة في علم الكلام والتفسير الديني والفلسفي، ومع اختلاف المواقف في اللغة والمعنى تختلف المواقف الدينية والفلسفية».

❖ لقد ناقش هذا الأمر علماء عرب ومسلمون منذ قرون، من بينهم: الكندي والفارابي وابن سينا والمعرّي والغزالي وابن رشد وابن خلدون وغيرهم. ونلاحظ ثراءً كبيراً في تحليلاتهم للمصطلحات الأمر الذي نجده في المذاهب والمدارس الفقهية والتفسيرية والفلسفية والصوفية.

❖ القضية ليست جديدة من حيث التناول، لكن الجديد هو أن الاستعمال المعاصر للمصطلحات لم يعد مرتبطاً بالمعاني التي من المفترض أن تدل عليها وفق أسس وقواعد ثقافية ودينية وفلسفية ولغوية، بل باتت تدل على معان تدل عليها قسراً..

❖ على سبيل المثال فإن مصطلح (الشرق الأوسط) لا يفهم إلا إذا تم تحديد نقطة القياس، المكان والزاوية التي ينظر عبرها إلى هذا المكان أو ذاك.. ولا زلت أذكر حواراً دار بيني وبين صحفي ياباني كان يتعلم اللغة التي كنت أتعلمها، ومن بين ما دار بيننا إجابته عن سؤال طرحته بالصيغة التالية: أظن أنكم في اليابان لا تهتمون كثيرا بتفاصيل ما يدور في المنطقة العربية؟ أجاب بسرعة ودون تفكير: على العكس من ذلك تماما، نحن نخصص مساحة إعلامية مهمة للشرق الأوسط.. التقطت رأس الخيط كما يقال، وعلقت: قلت لك المنطقة العربية. وهذه المنطقة حسب أحكام وواقع الجغرافيا تقع غرب اليابان.. تنبه لما رميت إليه، وعلق: إنه مصطلح، لا نستطيع تغييره.. والقصة ذاتها تحدث بالنسبة لمصطلحات أخرى.. لكن الخطر يكمن حين يتم التلاعب بالمصطلحات ذات الدلالة الدينية، وهنا ليس من السهل التسليم بما هو متداول من مصطلحات دون تدقيق وتحليل..

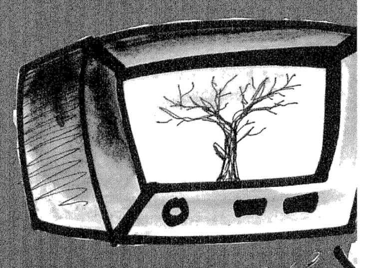
مثال آخر، كنت في حيرة من مصطلحين، وهما: الاسلاميون والاسلامويون فكرت حينا أنهما نتيجة لترجمة غير دقيقة، لكنني اكتشفت - وهو ما سيجده القارئ الكريم في قضية هذا العدد - أن مصطلح (الاسلاميون) قديم جداً وله دلالة سلبية، ولا أدري كيف تم إحياؤه من جديد ليدل على غير ما كان يدل عليه في الماضي..

ولعل القارئ الكريم سيتوقف كثيراً عند مصطلحات مثل: السلفية، الاسلام اليساري، المحمديون، الاسلام والغرب، الاسلام المعتدل، الاسلام الاوروبي.. وغير ذلك من مصطلحات متداولة في وسائل الاعلام العربية والاسلامية وغيرها..

لن نزعم أننا في قضية هذا العدد تناولنا عدداً كبيراً من المصطلحات، لكننا نستطيع أن نؤكد أننا فتحنا نافذة، قطعنا خطوة أولى نحو تناول أكثر اتساعاً، وأكثر شمولية (رغم ما في كلمة الشمول من معان ربما لا يقبلها البعض)..

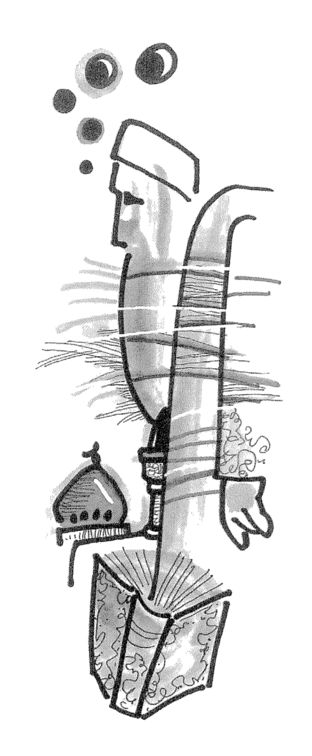
قضية هذا العدد محاولة للاقتراب من بعض المصطلحات، والاخوة القراء مدعوون لاثرائها بكتاباتهم ومقترحاتهم وآرائهم..

أمين هيئة التحرير



نظرة في الأصولية

محمد السماك*



لا تقتصر الأصولية على الإسلام بشكل خاص، ولا على الدين بشكل عام. هناك أصولية شيوعية (تتمثل في تعاليم ماركس - لينين) فهي وإن كانت تمرّ الآن في حالة انحلال وتمزق، إلا أنها هيمنت على مناطق واسعة من العالم لمدة تزيد على نصف قرن. كانت كتابات فلاديمير لينين وكارل ماركس بمثابة الكتاب المقدس لهذه الأصولية. فقد بقيت كتاباتهما الأكثر ترجمةً والأوسع انتشاراً طوال سبعين عاماً.

ماركس = الرأسمال - والمانيفستو الشيوعي

لينين = ما العمل؟ -

حكمت الأصولية الشيوعية على الله بالموت، أقفلت المساجد والكنائس وحوّلت معظمها إلى أندية للرقص ومرائب لتصليح السيارات. ولكن الشيوعية سقطت، وعاد جرس الكنيسة يدعو المؤمنين إلى الصلاة، وارتفع صوت المؤذن داعياً إلى الله من جديد، ليس فقط في الدول الآسيوية التي استقلت عن الاتحاد السوفييتي المنهار، ولكن حتى في داخل روسيا نفسها.

وهناك الأصولية الرأسمالية، حيث الإيمان المطلق بقوى السوق كحل لكل المشاكل الإنسانية. قامت مؤسسات كبيرة ذات نفوذ وقوة ضغط مثل Heritage

* كاتب وباحث، رئيس لجنة الحوار الإسلامي - المسيحي / لبنان.

Foundation في الولايات المتحدة Adam Smith Institute في بريطانيا وKiel Economic Institute في ألمانيا Fraser Institute في كندا. استطاعت هذه المؤسسات وغيرها من قوى الأصولية الرأسمالية أن ترسم استراتيجية عمل المصرف الدولي وصندوق النقد الدولي وأن تؤثر على قراراتهما بشأن اقتصاديات دول العالم النامية، وإخضاعها لمستلزمات الازدهار في دول العالم الصناعية.

أما على الصعيد الديني فأكتفي بالإشارة السريعة إلى المظاهر الأصولية الدينية الآتية:

1 ـ هناك حركة أصولية مسيحية أرثوذكسية، تعتصم في إحدى المناطق الجبلية في شمال اليونان، وقد جعلت من تلك المنطقة صومعة مغلقة حتى على الدولة، وتدعو هذه الحركة إلى حكم الكنيسة، كما تدعو إلى معاداة الإسلام. وقد أطلق أتباعها على البطريرك بارثانيوس، الذي يبشر بالانفتاح على الإسلام والتعامل مع أهله بودّ واحترام، لقب محمد بارثانيوس.

2 ـ وهل يمكن إسقاط الطابع الأصولي عن الأدوار السياسية التي تقوم بها الكنيسة الكاثوليكية بدءاً من إسقاط نظام الحكم الشيوعي في بولندة، حتى إسقاط الشيوعية كلها ومعها الاتحاد السوفييتي؟.. وكيف تصنف مثلاً حركة (أوبيس داي Opus Dei) إحدى أكبر وأخطر التنظيمات الدينية السرية؟.

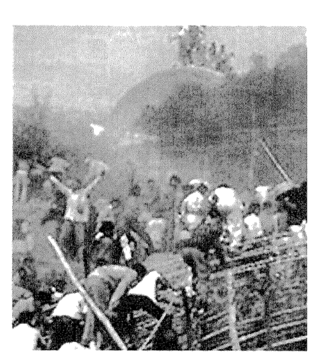
3 ـ وهل بغير الأصولية يمكن أن توصف الحركة الهندوسية التي يتزعمها أدفاني رئيس الحزب الهندوسي B.J.P؟، والذي تولى رئاسة الحكومة الهندية لعدة سنوات؟.

لقد قامت هذه الحركة في شهر الحرث (نوفمبر) عام 1990 مسيحي بتدمير المسجد التاريخي بابري في مدينة إيودها، لإقامة معبد للإله الهندوسي راما، في مكانه ومن حجارته. كما هددت بتدمير ثلاثة آلاف مسجد آخر في الهند لإقامة معابد مكانها. ومن فوق أطلال مسجد بابري ألقى أدفاني خطاباً قال فيه: «لا تستطيع أي حكومة أن تحكم في الهند ما لم تكن تحترم الإله (رام)، سوف نغير تاريخ الهند، ونفتح صفحة جديدة ابتداء من الآن» ولقد حاول تحقيق هذا التعهد بالفعل.

أدفاني

وبهذا المنطق وصل أدفاني إلى رئاسة الحكومة، مهدداً بذلك الديمقراطية في أكبر دولة ديمقراطية في العالم، التي أرسى دعائمها جواهر لال نهرو وأنديرا غاندي وسواهما من قادة حزب المؤتمر.

كان للحزب الهندوسي الأصولي مقعدان في البرلمان الهندي، وفي انتخابات 1989 ارتفع عدد مقاعده إلى 88 مقعداً، وفي عام 1991 حصل على 30 مقعداً آخر، ومنذ ذلك الوقت أصبح يحتل موقعاً أساسياً في السياسة الهندية، حيث كان يتعذر على أي حزب ـ بما في ذلك حزب المؤتمر ـ أن يشكل حكومة



مسجد بابري أثناء تهديمه

من غير ائتلاف مع حزب أو أكثر، وبعد ذلك سيطر تماماً على الأكثرية المطلقة. وبسط نفوذه على الحكم في الهند. ومن حسن الحظ أن حرص الشعب الهندي على الديمقراطية صادر من الحزب في الانتخابات الأخيرة الأكثرية البرلمانية التي كان يتمتع بها.

4 - حتى البوذية، التي تصنف بأنها واحدة من أكثر العقائد الإيمانية تسامحاً، قامت بإحراق ألف كنيسة في سريلانكا وحدها، بسبب وقوف البوذية في وجه حركات التبشير المسيحية في هذه الجزيرة، ولقد تدهورت العلاقات بين المسلمين والبوذيين في جزيرة بالي الإندونيسية في أعقاب حادث تفجير الملهى الذي قتل فيه أكثر من مائة شخص من السياح الأجانب، والذي اتهم بارتكابه مسلمون أصوليون متطرفون ينتمون إلى تنظيم القاعدة.

5 - إن ما قامت به الحركة الأصولية الهندوسية في (أيودها) - تدميرها مسجد بابري - تتطلع حركات

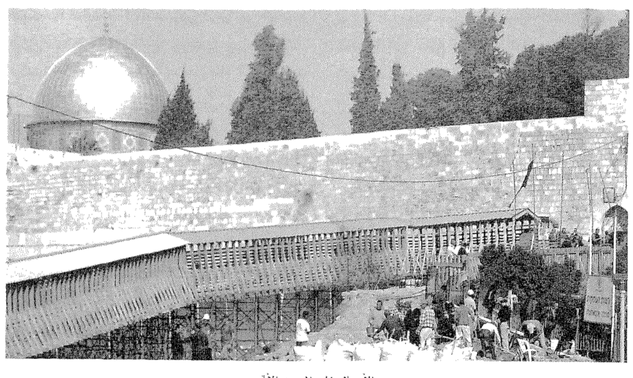


من الأعمال الجارية تحت المسجد الأقصى

أصولية يهودية للقيام به في القدس بتدمير المسجد الأقصى، لبناء هيكل سليمان مكانه، وفوق القواعد التي يقوم عليها، لقد تم جمع المال اللازم للمشروع ووضع في حساب خاص بانتظار ساعة الصفر، ويتولى معهد ديني في القدس تدريب رجال الدين على كيفية إدارة الهيكل وممارسة الطقوس الخاصة به، وحتى إعداد الملابس الكهنوتية اللازمة، والأصولية اليهودية تصل إلى حدّ تقويل الله ما لم يقله، وتحويل الكتب المقدسة إلى صكوك عقارية في الأرض المقدسة تحمل توقيعاً إلهياً غير قابل لأي شكل من أشكال الطعن أو المراجعة.

6 - تستخدم الأصولية الإنجيلية الأمريكية - إلى جانب المال والمساعدات الإنسانية الأخرى - الإعلام بشكل ذكي وإيجابي فيما تستخدم الأصولية الاسلامية الإعلام بشكل غبي و سلبي، وكمثال على الحالة الأولى، أعرب أحد أقطاب الأصولية الإنجيلية (موريس سيريلو) في عام 1998 عن أمله، من خلال ربط نشاطات الحركة الانجيلية العالمية Global Evangelism بشبكة الأقمار الاصطناعية، في أن يعتنق مليون شخص الإنجيلية حتى العام ألفين، وفي العام 2001 بيّنت الاحصاءات أن ذلك تحقّق بالفعل.. وزيادة، وأن مسرح التحوّل كان أمريكا اللاتينية وآسيا وافريقيا.

في الأساس كان يتنازع رسم الإطار العام للسياسة الخارجية الأمريكية عاملان أساسيان، العامل الأول هو الشعور بأن للولايات المتحدة دوراً أساسياً في نشر وفي تعميم مثاليات دينية ترتبط بالأصول التطهرية التاريخية للدولة وباعتبار أن هذه الدولة (الأمريكية) تحقق - كما يقول وليم باف أحد كبار المعلقين السياسيين في صحيفة لوس انجيلوس تايمز - «مملكة الله على الأرض»!..



... والأعمال خارج المسجد الأقصى

أما العامل الثاني فهو تحقيق الاكتفاء الذاتي والانكفاء الداخلي، والانعزال عن العالم الخارجي الفاسد (؟) وتأمين السلامة الداخلية من خلال نظرية «القارة المنعزلة».

أول غلبة للعامل الأول على الثاني كانت في عام 1898 بتوجيه من الحركة البروتستنتية التي أيّدت الثورة الكوبية ضد الحكام الكاثوليك. كان الهدف من ذلك هو نقل البروتستنتية إلى كوبا وبورتوريكو وإلى الفليبين من خلال استغلال نضال شعوب تلك المناطق للتحرر من الاستعمار - الاسباني - البرتغالي المرتبط في ذلك الوقت بالكاثوليكية.

ثاني غلبة حدثت في عام 1916 عندما استجاب الرئيس ودرو ولسون لطموحات كنيسته البروتستنتية (الكنيسة المشيخية) بالتدخل في أوروبا ضد ألمانيا القيصرية وذلك من أجل كسب الحرب «التي تنهي كل الحروب»، وتأمين



الرئيس ودرو ولسون

قيام نظام عالمي (مبادئ ولسون الأربعة عشر)، من خلال نشر المبادئ البروتستنتية كمظلة وحيدة للأمن والاستقرار في العالم.

ثالث غلبة لها حدثت في عام 1941 بعد الهجوم الياباني على بيرل هاربور، وهناك من يشكك حتى الآن في أن النازية الهتلرية والفاشية الموسولينية لم تكونا وحدهما كافيتين للخروج الأمريكي من نظرية القارة المنعزلة والتورط في الحرب العالمية الثانية.

رابع غلبة تحدث الآن، فبعد العمل الإرهابي الذي تعرّضت له الولايات المتحدة في (أيلول) سبتمبر سنة 2001، فإن اليمين الديني الأصولي المتطرف يلعب دوراً مباشراً في صناعة القرار السياسي الأمريكي، وما الحرب على ما يُسمى بـ«الإرهاب الإسلامي»، سوى مظهر من مظاهر تأثير دور الأصولية الدينية الأمريكية في توجيه السياسة الخارجية.

في عام 1948 ـ 1950 عندما سيطر الروس على اوروبة الشرقية وشكلوا تهديداً مباشراً لحلفاء الولايات المتحدة في اوروبة الغربية، تحركت الكنيسة لحمل الادارة الاميركية على بذل جهدها لوضع حد لانتشار

الشيوعية البلشفية التي تتنافى تماما مع النظرية البروتستنتية التطهرية التي تبشر بها الكنائس الإنجيلية الأميركية.

وفي مطلع الثمانينيات برزت الأصولية الإنجيلية بقوة في الولايات المتحدة، فمن بين 60 مليون أمريكي يعتنقون عقيدة «الولادة المسيحية الثانية» Born-again Christians يصف نصفهم تقريباً أنفسهم بأنهم أصوليون.

حملت الأصولية الإنجيلية الأمريكية شعلتها إلى أمريكا اللاتينية وإلى الفليبين وإلى أجزاء من الكاريبي وحتى إلى افريقيا، وتجمع هذه الحركة التبشيرية بين فن إثارة المشاعر الدينية ومعاداة الشيوعية (سابقاً) والإسلام (في الوقت الحاضر).

تؤمن الحركة التدبيرية بالعودة الثانية للمسيح، وبأن لهذه العودة شروطاً منها قيام دولة صهيون وتجمع يهود العالم فيها.

استناداً إلى ما أوردته مجلة نيوزويك في عددها تاريخ (1995/10/30)، فإن البرازيل تقف على أبواب حرب أهلية دينية، فالكنيسة الإنجيلية المعروفة باسم «الكنيسة العالمية لمملكة الرب» Universal Church of the Kingdom of God أصبح لها من الأتباع ما يناهز المليونين ونصف المليون مؤمن رغم أنها تأسست في عام 1977، والبرازيل التي تعتبر أكبر دولة كاثوليكية في العالم، ارتفع عدد الإنجيليين فيها إلى 30 مليون مؤمن، تنضوي فئة - وليس جميع - المسيحيين الإنجيليين الأمريكيين في هذه الحركة الكنسية الكبيرة الحسنة التمويل والتنظيم والتي تدعى Indespensationalism التدبيرية.

تؤمن هذه الحركة بالعودة الثانية للمسيح، وبأن لهذه العودة شروطا منها قيام دولة صهيون وتجمع يهود العالم فيها، ولذلك تعتبر مساعدة إسرائيل واجباً دينياً وليس مجرد عمل سياسي مرتبط بحسابات المصالح. وتؤمن هذه الحركة الأصولية أيضا بأنه بموجب تدبير إلهي، أيضا سوف تتعرض الدولة اليهودية إلى هجوم من غير المؤمنين، وخاصة من المسلمين والكاثوليك والأرثوذكس والملحدين العلمانيين، مما يتسبب في وقوع مجزرة كبيرة تدعى «هرمجدون» نسبة إلى موقع المجزرة في سهل مجيدو الذي يقع بين الجليل والضفة الغربية، في هذه المجزرة تستعمل أسلحة مدمرة كيماوية ونووية، ويقتل فيها مئات الآلاف من المهاجمين، ومن اليهود معا.

«سيناريو» هرمجدون كما يرسمه هال ليندسي Hal Lindsay أحد أبرز قادة الحركة في كتابة «نهاية الكرة الأرضية العظيمة» The Late Great Planet Earth يفترض:

1 - قيام إسرائيل.
2 - عودة اليهود من الشتات إلى أرض الميعاد.
3 - إعادة بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى.
4 - تعرض إسرائيل إلى هجوم كبير من الكفار (من المسلمين وأنصارهم).
5 - قيام ديكتاتور يكون أسوأ من هتلر أو ستالين أو ماو تسي تونغ يتزعم القوات المهاجمة.
6 - خضوع مناطق واسعة من العالم لسيطرة هذا الديكتاتور الذي يعادي اليهود.
7 - تحول 144 ألف يهودي إلى المسيحية الإنجيلية بحيث يصبح كل واحد منهم مثل بيلي غراهام (القس الإنجيلي الأمريكي المعروف) ينتشرون في العالم لتحويل بقية الشعوب إلى الديانة الإنجيلية.
8 - وقوع معركة هرمجدون النووية التي تتسبب في كارثة بيئية ضخمة.
9 - ارتفاع المؤمنين بالولادة الثانية للمسيح وحدهم وبالجسد وبمعجزة إلهية فوق أرض المعركة، ونجاتهم من الكارثة، بينما تذوب أجسام بقية البشر في الحديد المنصهر.

١٠ ـ حدوث كل ذلك في غفلة عين.

١١ ـ نزول المسيح بعد سبعة أيام إلى الأرض وحوله جميع المؤمنين به.

١٢ ـ يحكم المسيح العالم لمدة ألف عام بعدل وسلام حتى تقوم الساعة (الألفية).

من أتباع هذه الكنيسة شخصيات أمريكية سياسية ودبلوماسية وإعلامية وعسكرية، تتبوأ مراكز قيادية بارزة، كان منهم مثلاً الرئيس السابق رونالد ريغان، ومن قادة هذه الحركة الكنسية القس جيري فولويل أحد أقرب الشخصيات الدينية من الرئيس الأمريكي جورج بوش ـ الإبن.



القس جيري فولويل

العلاقة بين العمل السياسي ـ العسكري و الإيمان الديني بهذه النبوءات، هي علاقة مباشرة، ذلك أن هذه الحركة الكنسية تُعلّم أتباعها أن من واجب الإنسان المؤمن أن يوظف كل إمكاناته وقدراته لتحقيق إرادة الله، وأن الله يختار من الناس من يؤهلهم ويمكنهم من القيام بهذا الدور المساعد لتحقيق الإرادة الإلهية، ولذلك كان الرئيس الأسبق ريغان يقول: إنه يتمنى أن يمنّ الله عليه بشرف كبس الزرّ النووي لتحقيق إرادة الله في وقوع هرمجدون ومن ثم بعودة المسيح.

من خلال ذلك يتبين بوضوح أن الأصولية الإنجيلية ـ وليس العقيدة الإنجيلية المسيحية التي تبشّر بها كنائس إنجيلية عديدة داخل الولايات المتحدة وخارجها ـ لا تقتصر على مجرد تقديم تفسيرات معينة لمفاهيم دينية محددة ـ ولكنها تحاول أن تصنع المستقبل وفقاً لهذه التفسيرات وعلى قاعدتها.

الأصولية الاسلامية: لا بد أولاً من ملاحظة أساسية. وهي أن استخدام عبارة الأصولية الإسلامية هنا هو استخدام سياسي وليس استخداماً دينياً. بمعنى اعتبار الأصولية حركة سياسية تعمل تحت مظلة دينية إسلامية، وليس بمعنى العودة إلى أصول الدين.

هناك ثلاث دوائر تجد فيها الأصولية ميداناً واسعاً لتحركها.

الدائرة الأولى: دولية، وذلك من خلال ما يتعرض له العالم الإسلامي من ضربات متتالية تستهدف حتى الحد الأدنى من تضامنه ووحدته، و ما تتعرض له الأقليات الإسلامية في العالم غير الإسلامي من اضطهاد وقمع.

الدائرة الثانية: اقليمية، وهي تتخذ عدة أوجه، منها فرض أحكام دولية بالعقاب الجماعي الذي يلحق ضرراً جسيماً بحياة الناس وينتهك حقوقهم، وذلك بحجة معاقبة أنظمة عربية أو إسلامية سياسية سيئة.

ومنها استعمال الغرب سياسة إزدواجية المعايير بين العرب وإسرائيل.

تقوم هذه السياسة على عقدتين: عقدة الذنب تجاه اليهود لما لحق بهم على يد الغربيين على مدى أجيال من اضطهاد وتنكيل، وعقدة الإستخفاف بالعرب والمسلمين، لعجزهم عن مواكبة ركب الحداثة ولعجزهم عن التضامن فيما بينهم.

أما الدائرة الثالثة فداخلية، وتتمثل في الصراع على السلطة في بعض الدول العربية، أو في الصراع مع السلطة.

إن الأصولية كحركة سياسية في تطلعها إلى السلطة تستخدم الدين أداة لتحقيق أهداف سياسية سلطوية، وهي لا تستخدم السلطة للتبشير بالدين ونشر تعاليمه.

إن سيكولوجية الأصولية الإسلامية كحركة سياسية تتمثل في:

أولاً: العمل على توظيف العواطف الدينية البريئة من أجل تحقيق أهداف سياسية.

ثانياً: استثمار المشاكل الاجتماعية وخيبات الأمل الوطنية بهدف توسيع قاعدتها الشعبية.

ثالثاً: الايحاء بأنها توصلت إلى حل نهائي إلهي - ديني - لكل ما يعاني منه الناس، وأنها مؤتمنة على هذا الحل الذي تحتكره لنفسها وتكفّر كل من لا يشاركها الإيمان به والعمل بموجبه. إن هذا الأسلوب من السلوك السياسي يضع الحركة الأصولية حكماً في حالة تماس مع عامة المسلمين، الذين لمجرد أنهم غير أصوليين، فهم يرفضون بنظرها الحل الإلهي (؟) ويعصون بالتالي إرادة الله مما يبيح الإعتداء عليهم؟!..

من أجل ذلك لا بد من رسم خط فاصل بين الإسلام كدين والحركة الأصولية كحركة سياسية، أي بين العقيدة الدينية والاستغلال السياسي لها.

لا بد من رسم خط فاصل بين الإسلام كدين والحركة الأصولية كحركة سياسية

ولا بد من رسم خط فاصل ثانٍ بين الإسلام كدين والأنظمة السياسية التي لا تحترم المبادئ الشرعية أو الأخلاقية للشريعة الإسلامية، أي بين سماحة الإسلام وسوء سلوك السلطة، فكما أنه لا يجوز أن تنسحب مساوئ الأصولية على الإسلام، كذلك يجب أن لا تنسحب مساوئ بعض الأنظمة السياسية على الإسلام، فلا الصراع ضد الحركة الأصولية هو صراع ضد الإسلام ولا الدفاع عن مثل هذه الأنظمة هو دفاع عن الإسلام.

استطاع الإعلام الغربي منذ مطلع التسعينيات - وقبل أكثر من عقد من حادث 11 «أيلول» / سبتمبر 2001 ومضاعفاته - أن يضع المسلمين في إطار محدد، بحيث يتم تصنيفهم على أنهم أبناء ثقافة الجريمة والإرهاب، كذلك استطاع الإعلام الغربي أن يجعل من الأصولية مرادفاً للإسلام، وأن يجعل من الإسلام مرادفاً لكل ما هو بشع: التعصب والعنف والتطرف الديني، كما استطاع أن يجعل من عبارة الأصولية مفتاحاً أو شيفرة لفهم الإسلام، يكفي أن يُعرف شخص ما في معظم المجتمعات الغربية بأنه مسلم حتى يصنف على الفور بأنه أصولي، وبالتالي إرهابي فظّ، غليظ القلب.

دخل العالم الإسلامي مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية من بوابة مختلفة عن تلك التي دخل منها العالم الغربي، ففي الغرب عززت النخبة الثقافية مشاعر الثقة بالنفس والاستقرار المجتمعي، ونفخت روحاً جديدة في أدبيات الحداثة والعصرنة، أما في العالم الإسلامي فإن المشاعر التي ولدتها الكوارث السياسية والعسكرية بعد التحرر من الاستعمار تركت بصماتها عميقة في بنية المجتمعات العربية - الإسلامية: من الهزيمة العربية في فلسطين 1948 إلى يونيو/ حزيران 1967، حتى الهزيمة الباكستانية في عام 1971 على يد الهند.

جرى التعامل مع سلسلة النكسات والنكبات العربية والإسلامية بما خلفته من مشاعر بالمهانة والدونية على أنها دليل عملي على إفلاس الأنظمة المدنية الحديثة، فقد شهد العالم الإسلامي سلسلة طويلة من الإنقلابات العسكرية والديكتاتوريات الأوتوقراطية، كما شهد نماذج مخزية من الفساد الإداري والمراهقة السياسية، إضافة إلى ذلك أدى سوء توزيع الثروة وفشل مشاريع التعاون والتنسيق إلى تمكن الشركات الأجنبية المتعددة الجنسيات من الهيمنة على مقدرات دول العالم الإسلامي وإمكاناتها، فكان من نتيجة ذلك حدوث تراجع اقتصادي واسع النطاق أدى بدوره إلى هجرة واسعة من الريف إلى المدينة ومن المدينة إلى أي مكان في العالم بحثاً عن مورد رزق.

إن من طبيعة الأشياء أن تؤدي هذه التداعيات إلى الحالة الأخطر المتمثلة في التوتر الاجتماعي، وفي الانحدار الثقافي والتربوي والتعليمي.

تزامن عاملان أساسيان في توجيه الضربة التي دفعت بالمجتمعات العربية ـ الإسلامية إلى حالة الترنح. العامل الأول هو فشل الأنظمة في بناء مؤسسات الدولة العصرية، أما العامل الثاني فهو تكريس الحداثة والعصرنة بطابع غربي، وبالتالي ربط التحديث بالتغريب، الأمر الذي يصوّر مواكبة العصر وكأنه تخلٍّ عن أصول العقيدة وتنكّر للثوابت الإيمانية، ومن شأن هذين الأمرين أن يلهبا حماس الأصولية.

كان طبيعياً أن يتساءل مفكرون وناشطون مسلمون: هل تخلى الله عنا؟.. أم أننا نحن الذين تخلينا عن الله؟.. إذا كان الله هو الذي تخلى عنا، فلا بد أن نكون قد ارتكبنا خطيئة كبيرة، لذلك لا بد من تصحيح هذه الخطيئة حتى يشملنا الله برحمته ورعايته ونصره، والطريق إلى ذلك لا تكون إلا بالعودة إلى الله، أما إذا كنا نحن الذين تخلينا عن الله، فإن الطريق الوحيد أمامنا هو بالتراجع عن هذا التخلي وبالعودة إلى الله عبر الالتزام بأحكامه وشريعته.

هذه الحركة، حركة العودة، ربما تكون انطلقت في السبعينيات: من حرب رمضان 1973 (لاحظ الاسم: حرب رمضان) إلى فرض الحظر على تصدير النفط إلى الولايات المتحدة وأوروبا بقرار موحد، إلى اعتلاء الجنرال ضياء الحق الحكم في الباكستان في عام 1977، حيث حاول تطبيق برنامج الأسلمة على نطاق واسع (التعليم ـ التربية ـ القضاء.. إلخ) إلى قيام حركة الجهاد ضد الاحتلال الروسي لأفغانستان في عام 1979، إلى نجاح الثورة الإسلامية في إيران في العام نفسه، لقد ارتفعت رايات الحركات الإسلامية من أندونيسيا حتى نيجيريا ومن مصر حتى المغرب، ولكن من دون أن يكون هناك مشروع نهضوي أو فكر عصري جامع أو حتى رؤية مستقبلية تزاوج بين الثوابت في العقيدة ومتطلبات الحداثة والعصرنة.

عمدت الديانات المتعددة إلى تكييف مناسكها مع معطيات الحياة المعاصرة، بدأت المسيحية في الستينيات بادخال الموسيقا ـ حتى موسيقا الروك ـ في بعض الترانيم الدينية لجذب الشباب إلى الكنيسة، والآن ترتفع أصوات في بعض الكنائس الغربية غير الكاثوليكية وغير الأرثوذكسية (في أوروبا والولايات المتحدة) تطالب بإعادة النظر في المواقف من الشذوذ الجنسي ومن حرية ممارسة الجنس والانجاب خارج إطار العائلة (مؤتمر السكان والتنمية في القاهرة ومؤتمر المرأة في بكين)، بقي الإسلام متماسكا و صامداً.

وكما يقول Ernest Gellner فإن المؤمنين بالإسلام يجدون أنفسهم أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن يكونوا مسلمين، أو أن يكونوا لا شيء، ذلك أن الإسلام هو دين التوازن، وأهم توازن هو بين الدين والدنيا، التوازن وليس الفصل بينهما، يعيش المسلم في الآن، ولكن الدين يحدد له إطاراً عاماً لا يخرج عنه، وهذا الإطار هو ربط الحياة اليومية بالحياة الآخرة، فأياً كانت اهتمامات المسلم وهمومُه في الآن، فإنه لا يسقط من حسابه القوانين الأخلاقية التي يفرضها الإسلام قاعدة لسلوكه.

أدى هذا الثابت في السلوك الإسلامي والمتغير في السلوك الديني الغربي إلى اتساع الهوة بين الجانبين، على قاعدة اتساع رقعة العلمنة اللادينية في العالم



الغربي من جهة وانتعاش حركة الأصولية الدينية في العالم الإسلامي من جهة ثانية.

ليس بزيت القمع تخمد نار الحركة الأصولية، إن المعالجة تتطلب وعياً أعمق، ورؤية أشمل من أي رد فعل قمعي استئصالي، وهما أمران يحتمان المزيد من التوعية الدينية لتسفيه الفكر الأصولي، من حيث أنه احتكار للحقيقة الإلهية وإلغاء للحق الإنساني الذي نصّ عليه القرآن الكريم في الاختيار والاجتهاد، بل ولحق الاختلاف والرفض أيضاً، فالعالم العربي - الإسلامي يحتاج إلى ثقافة تضع حداً للتناقض بين التحديث والموروث الديني، وتحقق المزيد من الانفتاح الاجتماعي والتنمية الاجتماعية، وتفتح المزيد من الآفاق أمام حرية التعبير، كما يحتاج إلى تأصيل أسس ومبادئ الحوار الإسلامي - المسيحي على المستويين العربي والدولي، وفوق ذلك كله فهو يحتاج إلى عمل ثقافي إعلامي يكبح جماح الهجمة الغربية الاستعدائية ضد الإسلام في عالم ما بعد الحرب الباردة.

يفتقر العالم العربي الإسلامي إلى «ثقافة الحوار» أولاً بين المدارس والمذاهب الإسلامية المختلفة والمتعددة، وثانياً بين المسلمين والمسيحيين، فثقافة الحوار تنطلق من محاولة البحث عن الحقيقة من وجهة نظر الآخر، بمعنى أن هذه الثقافة تتطلب الإقرار الواقعي بأن الحقيقة ليست ملكاً مطلقاً لأي طرف، وأن الاعتقاد بصوابية أي رأي لا يعني بالضرورة أن الرأي الآخر على ضلال.

فالحوار يجب أن ينفتح على وجهات النظر الأخرى وأن يحترمها وإن اختلف معها، غير أن «الأصولية» من حيث هي احتكار الدين واستئثار به، غير قادرة وغير مؤهلة تربوياً وفكرياً للارتفاع إلى هذا المستوى من السماحة التي يقول بها الإسلام.

إن الصراط المستقيم الذي يدعو المسلمون ربهم أن يهديهم إليه، ليس صراط المغضوب عليهم الذين تخلوا عن الدين تعاليماً وقيماً وسلوكاً، ولا الضالين الذين غالوا وتشددوا وتطرفوا حتى تجاوزوا حدود الله فضلّوا.. إنما هو صراط الذين أنعم الله عليهم فالتزموا حدود الله ولم يعتدوها ادراكاً منهم أن من يتعدَ حدود الله فأولئك هم الظالمون.

حرب المصطلحات والقضايا العربية والإسلامية

السيد عبد الرؤوف *

منذ سنوات قليلة، وبالتحديد في عام 2002م أصدر إتحاد الصحفيين العرب، كتاباً صغير الحجم لكنه عظيم القيمة. عنوان هذا الكتاب هو: «حرب المصطلحات.. دراسات تصحيحية للمفاهيم والمصطلحات المتداولة في الإعلام العربي، حول الصراع العربي الصّهيوني». ضم الكتاب أبحاثاً ومقالات لنخبة من المفكرين والكتَّاب والإعلاميين العرب، المعنيين بالقضايا العربية بصفة عامة، والقضية الفلسطينية بصفة خاصة،

د. عبد الوهاب المسيري

هؤلاء الكتَّاب هم: الدكتور عبد الوهاب المسيري والدكتور أحمد صدقي الدجاني، والدكتورة حنان عشراوي، ومحمد السماك والدكتور مشهور الحبازي، وأبو السعود إبراهيم، ونعيم الطوباسي وفايز قنديل.

وفي عام 2003 م صدر كتابان آخران، لا يقلان أهمية، وهما للدكتور محمد داوود الأستاذ بجامعة قناة السويس في مصر. أما الكتاب الأول فعنوانه: «اللغة والسياسة في عالم ما بعد 11 سبتمبر» وهو دراسة تحليلية للألفاظ والعبارات والتسميات المستخدمة سياسياً وإعلامياً عقب أحداث 11 سبتمبر عام 2001م. وأما الكتاب الثاني فعنوانه: «حرب الكلمات في الغزو الأمريكي للعراق» وهو أيضاً دراسة لمنهج التضليل الإعلامي الذى اتبع والألفاظ والعبارات التي استخدمت لتبرير وتمرير الغزو الأمريكي للعراق. وقد أورد فيه المؤلف فصلاً كاملاً مترجماً من كتاب: حرب الكلمات.. اللغة والسياسة و9/11 War of Words, Language, Politics and 9/11 للمؤلفة ساندرا سيلبرستاين Sandra Silberstein الذي تقول فيه المؤلفة: «تعددت وجهات النظر الأمريكية حول أحداث سبتمبر، مثلما يحدث مع كل حدث في أمريكا. أمريكا التي قامت على التعددية بكل معانيها:



د. محمد داوود

ساندرا سيلبرستاين

* صحفي وكاتب / مصر.

العرقية، والقومية، والسياسية، والدينية، والثقافية..إلخ. وبين أيدينا إحدى زوايا النظر إلى ذلك الحدث الرهيب - تعني حدث 11 سبتمبر - وهي زاوية أغفلت في تحليلاتنا وتصوراتنا للحدث وتداعياته - إنها زاوية الخطاب اللغوي».

هؤلاء الباحثون العرب، لم يكونوا الوحيدين المهتمين بحرب المصطلحات أو حرب الكلمات وتأثيرها في القضايا السياسية. بل إن ثمة باحثين غربيين بارزين استرعت انتباههم هذه القضية بتأثيراتها المختلفة فألفوا فيها كتباً على درجة كبيرة من الأهمية. من هؤلاء المفكر الأمريكي البارز «نعوم تشومسكي»، أستاذ علم اللغويات بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (التقنية) بالولايات المتحدة والناشط السياسي والكاتب المعروف عالمياً، وله كتب كثيرة في نقد السياسة الخارجية الأمريكية، يعنينا منها هنا كتاب: «السيطرة على الإعلام.. الإنجازات الهائلة للبروباجندا» الذى صدرت طبعته العربية عام 2003م. والمفكر السياسي الأمريكي البارز «بول فندلي»، الذي له اهتمامات قديمة بالحوار الإسلامي الغربي والذي أصدر العديد من الكتب لعل أهمها كتاب: «كفى صمتاً.. مواجهة تصورات أمريكا الخاطئة عن الإسلام» الذي صدرت له عدة ترجمات باللغة العربية وكانت أحدثها منذ أسابيع عن الهيئة العامة للاستعلامات في مصر. وثمة كتاب لمؤلفين قد لا يكونان بأهمية وشهرة تشومسكي وفندلي ولكن الكتاب ذاته على درجة قصوى من الأهمية. إنه كتاب: «أسلحة الخداع الشامل: استخدام الدعاية في الحرب على العراق» للباحثين شيلدون رامبتون وجون ستوبر. وتنبع أهميته في أنه قراءة لإعلام الحرب والطريقة التي استخدمتها الإدارة الأمريكية لتمرير حالة الحرب للأمريكيين. قراءة في مفهوم الدعاية التي استخدمتها إدارة بوش في حرب العراق، وتحليل لعلاقة الإعلام وصناعة الخبر بصناعة الغزو وصناعة الصورة التي تؤثر في الرأي العام - الداخلي والخارجي - تستغله وتقوم باستثماره لصالح السياسة الأمريكية. ويكشف الكتاب ويعري لعبة الأكاذيب التي قامت بها المؤسسة الأمريكية.

بول فندلي

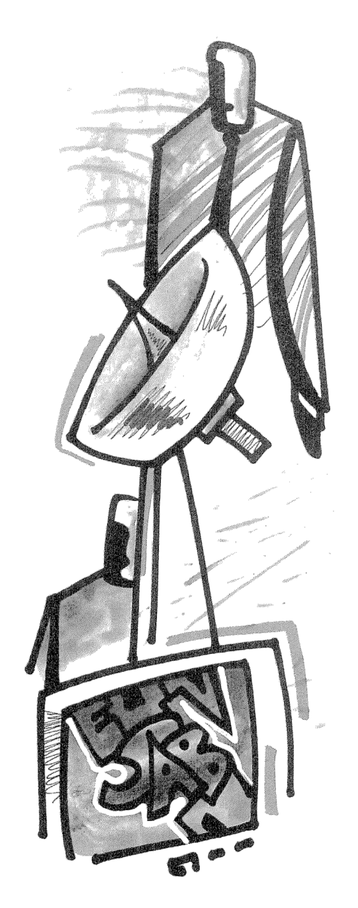
أبعاد القضية

هذه المؤلفات وكثير غيرها تسترعي الانتباه إلى مجموعة من الحقائق التي تشكل أبعاداً للقضية تستدعي الدراسة والتحليل:

❖ **أولى هذه الحقائق:** أننا أمام حرب حقيقية وليست من نسج الخيال، والحديث عنها ليس جرياً وراء وهم نظرية المؤامرة. إنها حرب لا تستخدم فيها القنبلة والصاروخ ولكن تستخدم فيها الكلمة والصورة والقلم وعدسة التصوير (الكاميرا)، ومكبر الصوت (الميكروفون). حرب لا تستهدف المباني والمنشآت والأبدان ولكنها تستهدف العقول والضمائر. حرب لا تستهدف تغيير الواقع الجغرافي أو السكاني (الديموغرافي) ولكنها تستهدف تغيير أو تغييب الوعي بالذات، والوعي بالقضايا القومية.

يقول الكاتب الصحفي مجدي البسيوني في مقال له في صحيفة العربي القاهرية بتاريخ 2005/6/26 بالصفحة الثانية عشرة، تحت عنوان: «خرابيش»:

الجريمة بشعة.. لا تقل في بشاعتها عن احتلال لبلد عربي.. إحتلال الأدمغة أخطر من إحتلال الأرض.. وطعن ثقافة أمة لا يقل عن اغتصابها بأى حال من الأحوال.. هي الحرب ضد الأمة العربية ليس بطمس هويتها أو اغتصاب أرضها، أو حتى إركاع حكامها العجزة وتعريتهم حتى القطعة الصغيرة، فكل هذا حدث ويحدث بصورة شبه يومية.



الجريمة الأبشع تكمن فيما جاء بالطبعة الأخيرة من القاموس الأمريكي المسمى بقاموس وبستر.. داخل القاموس الذى يحمل معاني لكلمات معنى العربي، عشرون مرادفاً كما جاء بالقاموس تبدأ بالقذر وتنتهي بالحقير مروراً بالإرهابي.. وعشرون لفظاً بهذه الشاكلة.. نسخ قاموس وبستر ليست منتشرة داخل أمريكا وأوروبا فقط بل في كل ركن من أركان العالم وداخل جميع جامعات العالم وفي متناول جميع الثقافات الكونية.. هي بالطبع قد وصلت لأرفف المكتبات والجامعات والمؤسسات داخل حدود الوطن العربي.. فما الذي فعله القائمون على مسؤولية هذا الوطن.. هل اعترض أحد.. هل تفوه أحد أم تعاملوا بقاعدة دعه يمر دعه يكسب، أما نحن العرب فمدعوكون في الوحل.(1)

❖ **الحقيقة الثانية:** إن قضية المصطلح ليست قضية حديثة لكنها قضية غاية في القدم. وكانت محل اهتمام الباحثين في علوم اللغة والفقه كما كانت مثار اهتمام علماء السياسة. ومن التعبيرات أو المصطلحات الشائعة في العلوم الشرعية تعبير: «تحرير المصطلح» أي الوصول الى تعريف جامع يشمل كل أفراد أو مفردات النوع المعرف ومانع يمنع دخول ما ليس منه فيه.

في مقدمة المحرر أحمد عبد الرحيم لكتاب حرب المصطلحات وتحت عنوان: «لعبة المصطلح.. معركة المصطلح»: «علم المصطلح من أحدث أفرع علم اللغة التطبيقي.. وقد تزايد الاهتمام به - تأصيلاً وتطبيقاً - خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين. وهو علم يتناول الأسس العلمية لوضع المصطلحات وتوحيدها. ووضع المصطلحات في ضوء المعايير المعاصرة يتم على أساس البحث المفرد في كل مصطلح على حدة. فهناك معايير أساسية تنبع من علم اللغة ومن المنطق ومن نظرية المعلومات ومن التخصصات المعنية..

1 - صحيفة العربي الصادرة عن الحزب العربي الناصري المصري - الأحد 2005/6/26 ص 12.

على أنه تجدر الإشارة إلى أن قضية المصطلح شغلت علماء المسلمين من قديم. فقد ألف فيها الخوارزمي كتاب: «مفتاح العلوم» والجرجاني: «التعريفات» وأبو البقاء الكفوى «الكليات» والتهانوي: «كشاف اصطلاحات الصفوف» وغير ذلك كثير.. وثمة علم مهم من علوم اللغة اسمه «علم الوضع» أفرد لمعالجة قضية الاصطلاح ووضع الألفاظ بإزاء المعاني وفيه مؤلفات مستقلة كثيرة.... وتحديد المفاهيم وضبط الإصطلاحات عملية في صميم قضية الهُوية.

ومن المهم من وجهة نظر الكاتب - وهي وجهة نظر صحيحة في رأيي - لفت النظر إلى مدى الخطورة التي نقع فيها عندما تتميع المفاهيم وتختلط الدوال وتتداخل المصطلحات. هذا في حالة إذا كنا نسك مصطلحاتنا بأنفسنا. أما في حالة «إستراقنا» المصطلحات من هنا ومن هناك تحت دعوى الترجمة والنقل تارة أو خضوعاً لمقولة مثل: «العالم كله صار قرية واحدة ولا مجال للتقوقع حول الذات» تارات أخرى فالأمر يكون أخطر وأمر.[2]

صوّر الإعلام الغربي أن الغزو الأمريكي للعراق تحرير للشعب العراقي

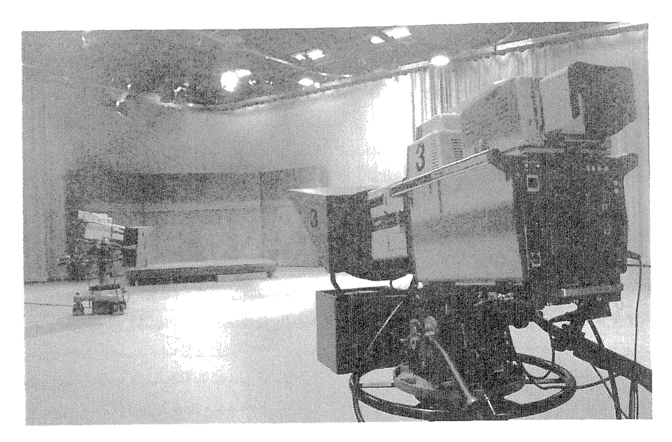
❖ الحقيقة الثالثة: أن المصطلحات المتداولة عبر وسائل الإعلام ليست في كل الحالات من ابتكار هذه الوسائل. بل من الثابت أن الخطاب الإعلامي موظف وتابع للخطاب السياسي. ليس الآن فقط ولكن منذ زمن بعيد. في كتابه: «السيطرة على الإعلام.. الإنجازات الهائلة للبروباجاندا» يقول المفكر الأمريكي ناعوم تشومسكي: «سأوضح كيف تطورت فكرة الديمقراطية وكيف ولماذا نقدم مشكلة وسائل الإعلام والتضليل المعلوماتي ضمن هذا السياق؟ لنبدأ أولاً بالإشارة إلى أول عملية دعائية حكومية في العصر الحديث حيث كانت أثناء إدارة الرئيس وودرو ويلسون الذى انتخب رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية في عام 1916 وفق برنامج إنتخابي بعنوان «سلام بدون نصر». وكان ذلك في منتصف الحرب العالمية الأولى.. في تلك الأثناء كان المواطنون - يعني الأمريكيين - مسالمون لأقصى الدرجات. ولم يروا سبباً للإنخراط والتورط في حرب أوروبية بالأساس. بينما كان على إدارة ويلسون التزامات تجاه الحرب. ومن ثم كان عليها فعل شيء ما حيال هذا الأمر. فقامت الإدارة بإنشاء لجنة للدعاية الحكومية أطلق عليها (لجنة كريل). وقد نجحت هذه اللجنة خلال ستة أشهر في تحويل المواطنين المسالمين إلى مواطنين تتملكهم الهستيريا والتعطش للحرب والرغبة في تدمير كل ما هو ألماني، وخوض حرب، وإنقاذ العالم.

كان هذا الأمر بمثابة إنجاز هائل. وقد قاد بدوره لإنجاز آخر. ذلك أنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها تم توظيف ذات التكتيك لإثارة هستيريا ضد الرعب الشيوعي - كما كان يطلق عليه -. وقد نجحت إلى حد كبير في تدمير الاتحادات العمالية والقضاء على بعض المشكلات الخطيرة، مثل حرية الصحافة وحرية الفكر السياسي. وكان هناك تأييد قوى من قبل وسائل الإعلام وكذلك من قبل مؤسسة رجال الأعمال التي نظمت بل وشجعت جل هذا العمل. وكان بصفة عامة نجاحاً عظيماً».[3]

❖ الحقيقة الرابعة: أن الخطاب السياسي ينطلق من مفاهيم ومصالح واستراتيجيات تضعها الحكومات وفقاً لرؤيتها. وهذا أمر يتكرر حتى مع اختلاف الظروف المحلية والخارجية. ولعلنا هنا نعود الى المفكر

2 - حرب المصطلحات الصادر عن اتحاد الصحفيين العرب، الطبعة الثالثة عام 2003 ص 25 ـ27.

3 - السيطرة على الإعلام، لناعوم تشومسكي، الصادر عن مكتبة الشروق الدولية بالقاهرة عام 2003، ص 7 ـ9.



الأمريكي نعوم تشومسكي حيث يقول: «كان المفكرون التقدميون بين هؤلاء الذين شاركوا بحماس في حرب ويلسون ولاسيما أولئك المنتمين لمجموعة (جون ديوي) والذين كانوا يتباهون كما يفهم من كتاباتهم آنذاك بكونهم هم الذين سلطوا الضوء على أولئك الأفراد في المجتمع الذين يتمتعون بدرجة عالية من الذكاء، وتحديداً هم أنفسهم لكونهم قادرين على دفع المواطنين المترددين دفعاً إلى الحرب، وذلك بإخافتهم وإثارة مشاعر قومية متطرفة. والوسائل التي استخدمت كانت غير محددة.

فعلى سبيل المثال كان هناك قدر كبير جيد من الفبركة والتزييف للمذابح التي ارتكبها الألمان، مثل موضوع الأطفال البلجيكيين ذوي الأذرع الممزقة، وكل تلك الفظاعات التي ما زلنا نقرؤها في كتب التاريخ. معظم هذه القصص هي من اختراع وزارة الدعاية البريطانية، والتي كانت مهمتها آنذاك ـ كما وصفوها في تقاريرهم السرية ـ : «توجيه فكر معظم العالم».

ولكن الأمر الأكثر أهمية هو رغبتهم في السيطرة على فكر الأفراد الأكثر ذكاء في الولايات المتحدة والذين سيقومون بدورهم بنشر الدعاية التي خططوا لها، وتحويل البلد المسالم إلى بلد تحكمه هستيريا الحرب. وقد حدث ونجحوا بالفعل.

وكان هناك درس ما في ذلك المثال. ألا وهو أن الدعاية التي تتم بإشراف الدولة حيث تدعمها الطبقات المتعلمة وحيث لا يسمح بأي انحراف عن الهدف بإمكانها أن تحدث أثراً كبيراً. ذلك كان درساً تعلمه هتلر وكثيرون غيره. ويتم إتباعه حتى اليوم.(4)

❖ الحقيقة الخامسة: أن الإدارات الأمريكية المتعاقبة كانت أكثر الحكومات استفادة من الدرس الذى أشار إليه تشومسكي. وصارت تستخدم وسائل وأساليب وأدوات أكثر تقدماً وكفاءة مما كان عليه الحال منذ قرن من الزمان. ومن ذلك:

❖ نخبة سياسية وثقافية قادرة على إنتاج أفكار ونظريات تبرر وتمهد للسياسات التى تنوى انتهاجها

4ـ المصدر نفسه، ص 8.

مثل صمويل هنتنجتون وكتابه: «صدام الحضارات»، وفرانسيس فوكوياما وكتابه· «نهاية التاريخ» وغيرهما.

❖ مجموعة من معاهد البحوث والدراسات التي يتجاوز دورها مجرد إجراء المسوح والدراسات الوصفية ولكنها تشارك من خلال علمائها وخبرائها في صياغة السياسة الأمريكية تجاه العالم.

❖ أجهزة معلومات واستخبارات تتمتع بكفاءات فنية وإدارية عالية وتمويل ضخم بحيث يغطي نشاطها العالم كله ويوفر أكبر قدر ممكن من المعلومات.

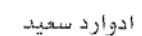
❖ أجهزة إعلام MEDIA بالغة الضخامة والكفاءة وتستخدم أقصى درجات الإبهار.

❖ أجهزة حكومية متخصصة في التضليل الإعلامي.

❖ شركات علاقات عامة كبرى متخصصة في تنظيم حملات العلاقات العامة المولة من قبل الإدارة الأمريكية.

❖ شبكة من العملاء والمنتفعين في الدوائر السياسية والإعلامية في مختلف بلدان العالم.

❖ **الحقيقة السادسة**: أنه جرت عملية تشويه منظمة ومستمرة للإسلام والعرب والمسلمين في المجتمع الأمريكي سواء على مستوى المناهج الدراسية أو على مستوى الإعلام. وقد صدر في عام 2003 كتاب مهم بعنوان: «صورة العرب والمسلمين في المناهج الدراسية حول العالم» خصص جانب كبير منه لنتائج الدراسات التي أجريت في هذا الشأن وأثبتت جانباً من التشوهات المتعمدة في مناهج الدراسات الاجتماعية والتاريخية الأمريكية بشأن العرب والمسلمين. وهو ما اعترف به «بول فندلي» في كتابه «كفى صمتاً..» أما على المستوى الإعلامي فقد رصد هذه التشوهات عدد من المفكرين والكتّاب الأمريكيين وخصوصاً ذوى الأصول العربية مثل إدوارد سعيد صاحب كتاب: «الاستشراق» وجاك شاهين صاحب كتاب: «عرب التليفزيون» وإيفون يزبك وغيرهم كثيرون.



ادوارد سعيد

❖ **الحقيقة السابعة**: أن الشعوب العربية والإسلامية هي من أكثر الشعوب استهدافاً بحرب المصطلحات. وأن آلة الدعاية الأمريكية قد توجهت لهذه المنطقة من العالم في وقت مبكر. ويستعرض الكاتبان شيلدون رامبتون، وجون ستوبر في كتابهما: «أسلحة الخداع الشامل» محاولات أمريكا التأثير على الرأى العام في العالم العربي حيث تعود هذه الفكرة إلى أواخر الأربعينات وبداية الخمسينات من القرن الماضي في فترة حكم الرئيسين الأمريكيين هاري ترومان ودوايت أيزنهاور في الوقت الذي كانت فيه أمريكا تحاول ضم المنطقة العربية في الحلف المعادى للشيوعية. وفي الوقت الذى عبرّت فيه أمريكا عن قلقها على منابع النفط العربي فقد كانت مهتمة بشكل آخر بصعود الحركات القومية العربية خاصة الناصرية.

ويشير الكاتبان إلى الكتاب الإلكتروني الذي أعده أرشيف الأمن القومي الأمريكي وهو الكتاب الذي يتحدث عن محاولات الإدارة الأمريكية التأثير على الرأي العام العربي منذ الخمسينات من القرن الماضي. ويشير هذا الكتاب الذي حررته «جويس باتل» إلى الوسائل التي رأت أمريكا أنها مهمة للتأثير على الرأى العام العربي: الكتب وأشرطة الخيالة والملصقات والمجلات والمدارس والمكتبات العامة

---

5 ـ العولمة الأمريكية ضد الدولة العراقية.. تقديم وتعليق باقر الصراف، مركز الشرق العربي للدراسات الحضارية والاستراتيجية، لندن، المملكة المتحدة. (دراسة أعدها وقدمها إبراهيم درويش في صحيفة «القدس العربي» بالعددين 4549 و 4550 الصادرين بتاريخي 9/8 يناير 2004).

والعلاقات الشخصية. ويقول تقرير كتب عام 1952 إن مشاريع المساعدة يجب أن تحقق الهدف النفسي المنشود.[5]

وقد ظلت هذه سياسة ثابتة للإدارات الأمريكية المتعاقبة. وجرى تطويها بالحذف والإضافة أو تقديم بعض البنود وتأخير البعض الآخر حسب تطورات الظروف والأحوال على أرض الواقع. من ذلك ما يشير إليه الكاتبان رامبتون، وستوبر في كتابهما المشار إليه من أنه في قلب لعبة الدعاية وصناعة الصور والقصص والأكاذيب هناك ما يسمى (صناعة أمريكية أو علامة تجارية أمريكية).

وقد بدأت هذه العملية مباشرة بعد هجمات أيلول (سبتمبر) حيث اكتشف الأمريكيون أن قضيتهم في العالم مجهولة أو هكذا ظنوا. ورأت أمريكا والحالة هذه حاجة لتوصيل رسالتها إلى العالم.

وهنا بدأت أمريكا حملة صارت تعرف باسم (الدبلوماسية العامة) حيث صدر في 2002 قانون نشر الحرية الذي دعا وزارة الخارجية إلى جعل الدبلوماسية العامة جزءاً هاماً من التخطيط للسياسة الخارجية. واقتضى القانون إنشاء نظام متعدد للإعلام المسموع والمرئي وعبر شكبة المعلومات الدولية (الإنترنت). وإضافة إلى تدريب الصحفيين من الدول الأجنبية والتأكيد على التبادل الثقافي رصد القانون 135 مليون دولار، لإنتاج برامج الإذاعة المرئية في الشرق الأوسط.

وفي تطور جديد طرح «كولن باول» مبدأ استخدام القوة العسكرية الضخمة كأداة في مجال الاتصالات والدبلوماسية العامة. ويعني هذا المبدأ أنه يجب عدم ترك أي نافذة يمكن من خلال توصيل رسالة الولايات المتحدة حيث قال: يجب علينا ألا نوفر أي أسلوب أياً كان يمكن من خلاله توصيل الرسالة الصحيحة للأهداف الصحيحة وبمصداقية[6]. وقد طبق هذا المبدأ بحذافيره منذ أحداث 11 سبتمبر في كل من أفغانستان والعراق وما زال مستخدماً حتى الآن بنجاح.

❖ الحقيقة الثامنة: أنه مثلما كان ثمة حلف استراتيجي سياسي عسكرى بين الولايات المتحدة وإسرائيل كان هناك أيضاً حلف إعلامي دعائي بين الجانبين استخدمت فيه كل الوسائل والأساليب المتاحة لتزييف الواقع وتغيير الحقائق. و: «لعل أخطر ما فعلته إسرائيل هو اختراقها كثيراً من أجهزة الإعلام وخصوصاً الصحف والإذاعة المرئية، بما في ذلك ـ مع الأسف الشديد ـ بعض الصحف والمرئيات العربية.

وسائل الإعلام العربية والإسلامية عاجزة عن المبادرة وتكتفي بردود الفعل

واستخدمت في ذلك أساليب ملتوية كثيرة، ووسائل احترافية خادعة لكي تصل الى القارئ والمشاهد والمستمع العربي في كل مكان حتى تهتز قناعاته وتنكسر إرادته وتتخاذل شجاعته. وقد لجأت الصهيونية في سبيل ذلك إلى دس مصطلحات وأسماء عبرية عديدة في لغة الإعلام العالمي تزييفاً للواقع وتزويراً للتاريخ وسرقة للموروثات. وسارع معظم الإعلام العربي إلى نقلها ـ وتداولها ـ دون تمحيص ودراسة ومراجعة. فإذا ببعض إعلامنا يكرر هذه المدسوسات الإسرائيلية ويعممها ويروجها في الرأي العام بقصد أو بدون قصد. الأمر الذي شوه التاريخ عموماً وتاريخ الصراع العربي الإسرائيلي خصوصاً.[7]

---

6 ـ المصدر السابق بتصرف. ويمكن الرجوع إلى:
http://www.albayan.co.ae/albayan/book/2002/issue238/arabiclib/2.htm

7 ـ حرب المصطلحات، المقدمة بقلم الكاتب الصحفي إبراهيم نافع، رئيس إتحاد الصحفيين العرب ص 9 ـ 10.

وقد رصدت نخبة الباحثين المشاركين في كتاب: «حرب المصطلحات» العديد من الوسائل والأساليب التي استخدمتها إسرائيل لتغيير هُوية الأراضي الفلسطينية بتزوير أسماء الأماكن والتواريخ والأحداث. وسجلوا مئات الأسماء التي قامت سلطات الاحتلال الإسرائيلي بتغييرها وفرض هذا التغيير على الخرائط وعلى الواقع وعلى الخطاب السياسي والإعلامي والتي تسرب الكثير منها إلى الإعلام العربي. وقام بعضهم بجهد مشكور لتعريب ما تحرف من الأسماء وردها إلى أصولها العربية. وقد رصد الباحث فايز قنديل وحده خمسة وثلاثين مصطلحاً خادعاً تستخدمها آلة الدعاية الإسرائيلية لتزوير الحقائق. كما قام بتعريب 359 اسماً من أسماء المدن والبلدان والقرى التي غيرتها سلطات الإحتلال.

أساليب حرب المصطلحات

كشفت الممارسات العملية والدراسات العلمية النظرية والميدانية أن حرب المصطلحات لها أدبياتها وأساليبها الخاصة التي تحقق أهدافاً متعددة أهمها:

1 ـ رفع معنويات المؤيدين والمناصرين وضمان استمرار حماسهم وتأييدهم.

2 ـ خفض معنويات الأعداء ودفعهم إلى اليأس في تحقيق نصر ومن ثم إلى الاستسلام.

3 ـ كسب مزيد من الأنصار والمؤيدين.

4 ـ تحييد الأطراف المعارضة التي يتعذر تحويلها إلى مؤيدة ومناصرة.

5 ـ مواجهة حالات الكراهية الناجمة عن استخدام القوة العسكرية أو الضغط الاقتصادي.

ويرصد الدكتور محمد محمد داود في كتابه: «اللغة والسياسة في عالم ما بعد 11 سبتمبر» وسائل الخطاب السياسي ـ وبالتبعية الخطاب الإعلامي ـ في عدة نقاط هي:

1 ـ الإقناع وخطط المستقبل.

2 ـ التبرير.

3 ـ التهديد والإكراه.

4 ـ الإثارة.

5 ـ التلويح بالمنافع والأهداف المرتقبة.

6 ـ المداهنة والمهادنة.

7 ـ التضليل.

8 ـ تزييف الحقائق.

9 ـ التحريض. (8)

وإذا نظرنا إلى واقع حرب المصطلحات، بين العرب والمسلمين، وبين الحلف الأمريكي الإسرائيلي فسوف نجد أن هذه العناصر كلها طبقت بنجاح.

8 ـ اللغة والسياسة في عالم ما بعد 11 سبتمبر، للدكتور محمد محمد داود، إصدار دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة، طبعة 2003.

نماذج واقعيـــة

ولعل أبرز نجاح تحقق من خلال هذا الحلف السياسي/العسكري/الإعلامي يتمثل في عدة نماذج:

* النموذج الأول: الربط بين الغزو الأمريكي لأفغانستان والعراق وبين ما سمي في أدبيات السياسة الأمريكية (الإرهاب الدولي). وتصوير العمليات العسكرية الأمريكية بأنها حرب ضد هذا الإرهاب.

* النموذج الثاني: تصوير الغزو والاحتلال الأمريكي للعراق على أنه تحرير للشعب العراقي. وقد تورطت بعض وسائل الإعلام العربية حيث نشرت وبثت أخبار بدء الغزو الأمريكي للعراق بعناوين مثل: بدأت حرب تحرير العراق.

* النموذج الثالث: الخلط بين أعمال مقاومة الاحتلال وهي مقاومة مشروعة مقررة ومعترف بها في كافة المواثيق الدولية وبين الإرهاب. وتصنيف عدد من منظمات المقاومة المشروعة والجمعيات الخيرية ورجال الأعمال - على أنها منظمات إرهابية. ومصادرة أموالها ومنع التعامل معها. وتبرير قتل واغتيال قوات الاحتلال الإسرائيلي لقادة هذه المنظمات. وكذلك تبرير تمزيق الأراضي الفلسطينية بجدار الفصل العنصري. وتصوير العمليات الإستشهادية على أنها عمليات انتحارية. وقد أدت الضغوط السياسية والاقتصادية وحرب الدعاية المخططة المنظمة المستمرة الى تحقيق تغييرات في توجهات الرأي العام تجاه القضية الفلسطينية والحقوق العربية بصفة عامة.(9)

وقد حفلت أجهزة الإعلام العالمية. وكذلك العربية - بالعديد من المصطلحات التي اختلقتها آلة الدعاية الأمريكية والإسرائيلية والتي ساهم فيها أيضاً الإعلام العربي اختلافاً وترويجاً. مثل: العولمة - الإرهاب - الإرهاب الإسلامي - التحالف الدولي ضد الإرهاب - الأصولية الإسلامية - تجفيف منابع الإرهاب - العنف - ثقافة السلام - قبول الآخر - معاداة السامية - العنف - الإسلام السياسي - المصلحة الوطنية - الواقعية السياسية - حوار الأديان - حوار الحضارات، بديلاً عن صدام الحضارات - الإندماج في الاقتصاد العالمي - الدمقرطة - الانفتاح على الأمم - التطرف الإسلامي - الإسلاميون - المتأسلمون - التطبيع - نظرية المؤامرة - القتل المستهدف - الشرق أوسطية - الشرق الأوسط الكبير - الشرق الأوسط الموسع - مرض الخوف من الإسلام (إسلاموفوبيا) وكثير من هذه المصطلحات مضلل ويخدم مصالح أمريكية أو إسرائيلية أو أمريكية إسرائيلية مشتركة. وهي في الغالب على حساب العرب والمسلمين.

حفلت أجهزة الإعلام العالمية، وكذلك العربية بالعديد من المصطلحات التي اختلقتها آلة الدعاية الأمريكية

وفي الوقت ذاته طفت على السطح في المجتمعات الإسلامية مصطلحات مثل: الولاء والبراء - العقيدة - التوحيد - الفرقة الناجية - الجهاد - العلم الشرعي - الحكم بما أنزل الله - دار الإسلام ودار الكفر - الحلف الصهيوني الصليبي - الصفقة - حد الردة - التكفير، ومصطلحات أخرى كثيرة غيرها.

«ومع أن الدلالات الشرعية للمصطلحات واضحة ودقيقة المعالم وذلك من خلال ما اعتمده علماء المسلمين في القديم والحديث ولكن خضوع الاستخدام الاصطلاحي لضغوط الواقع المتردي للمسلمين وظروف تنافس الجماعات الإسلامية السلبي قد وظف المصطلحات توظيفاً أضر بالمسيرة الإسلامية في بعض الأحيان مما يقتضي إعادة النظر في الاستخدام التلقائي للمصطلحات ومراجعة الإيحاءات

---

9 - يمكن الرجوع إلى قائمة كاملة من المصطلحات الصحيحة، التي جرى تحريفها على موقع شبكة فلسطين للحوار.
http://wwwpalestinianforum.net/forum/index.php

الإصطلاحية لها بما تحمله من آثار سلبية على النفسية والعقلية المسلمة».[10]

الخروج من المأزق

كل الحقائق التي ذكرناها، بما يترتب عليها من تشويه لصورة الإسلام والمسلمين، وطمس للمعالم الحقيقية للقضايا العربية، وإجراء تحولات جوهرية في الرأي العام العالمي، تنقله من موقف التفهم والتعاطف مع القضايا العربية والمطالب العربية المشروعة، إلى موقف الشك في مشروعية هذه المطالب، ثم إلى موقف التضاد والمعاداة، تقتضي حركة في الاتجاه المضاد للدفاع عن هذه الحقوق والمطالب المشروعة.

وبقدر ما نجحت آلة الدعاية الأمريكية وآلة الدعاية الإسرائيلية في تحقيق أهدافهما الاستراتيجية فإن العرب والمسلمين، لم يستطيعوا أن يحققوا النجاح المنشود إلا بصورة جزئية، وفي مجالات محددة ولفترات محددة، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب:

لماذا لم يستطع الإعلام العربي والإسلامي تحقيق أهدافه ولو جزئياً؟

❖ **السبب الأول:** أن الخطاب الإعلامي - والخطاب التعليمي أيضاً - خاضع وتابع للخطاب السياسي. والخطاب السياسي العربي/الإسلامي، يتسم بالضعف والتناقض أحياناً، بسبب تعدد وتناقض المرجعيات وغياب الرؤية الاستراتيجية، بحيث إن الذي يبنيه طرف يمكن أن يهدمه طرف آخر، بسبب الجهل أو ضيق النظرة أو الخلافات المذهبية أو النظرة المحلية الضيقة، والتنافس السياسي والغيرة الشخصية.

❖ **السبب الثاني:** أن الإعلام العربي/ الإسلامي، يفتقر إلى الاستقلال الحقيقي مادياً ومهنياً وتقنياً. فوكالات الإعلام الرئيسة المتحكمة في الأخبار غربية (أمريكية وبريطانية وفرنسية في الأساس). وشركات إنتاج أشرطة الخيالة الكبرى (السينما) في العالم، والتي تتدفق أشرطتها بما تحمله من دعايات مباشرة وغير مباشرة عبر الشاشات الكبيرة والصغيرة غربية (والأهم والأكثر تأثيراً أمريكية). والأغلبية الساحقة من البرامج التسجيلية العلمية والثقافية غربية المصدر، والأجهزة والمعدات تصنع خارج دائرة البلاد العربية والإسلامية.

❖ **السبب الثالث:** أن هامش الحرية المتاح للإعلام العربي / الإسلامي، هامش شديد الضيق. وفاقد الشيء لا يعطيه. فما دامت وسائل الإعلام في البلاد العربية والإسلامية لا تمارس قدراً كافياً من الحرية، في الحصول على الأخبار والمعلومات وفي تداولها، وفي إبداء الرأى والنقد وقبول الرأي والرأي الآخر، وإفساح المجال للحوار مع الآخر، فإننا لا نستطيع أن نمارس ذلك مع الآخر، المختلف لغة وحضارة وثقافة. ومن ثم يظل المجال مفتوحاً والأرض خصبة لتشويه صورة العرب والمسلمين، سواء في المناهج التعليمية أو في الخطاب الإعلامي. يقول السياسي والكاتب الأمريكي البارز بول فندلي: «إن الصور النمطية الزائفة يمكنها أن تحجب الحقيقة عن الناس من كافة الأعمار. فعندما كنت في السادسة من عمري كانت بداية تعرفي على الإسلام بداية سيئة. فحينما كنت أدرس بمدرسة الأحد المشيخية البروتستانتية، في جاكسونفيل بولاية اللينويز تعرضت للتضليل فيما يتعلق بالمسلمين وديانتهم. وظللت محتفظاً في ذهني بمعلومات خاطئة عن الإسلام حتى بلغت منتصف العمر».[11]

---

10 - بحث حرب المصطلحات. mth.yo-lokb/moc.koobemalam.www//:ptth

11 - كفى صمتاً.. مواجهة تصورات أمريكا الخاطئة عن الإسلام «بول فندلي»، مطبوعات الهيئة العامة للمطبوعات في مصر، سلسلة كتب مترجمة، الكتاب رقم 856 ص23.

❖ السبب الرابع: تأخر العرب والمسلمين في علوم وفنون الاتصال من النواحي النظرية والتطبيقية. مما يعجز وسائل الإعلام عن أن تكون لها المبادرة، ويجعلها تكتفي بردود الفعل إزاء ما يوجه للعرب والمسلمين وللإسلام، من حرب مستعرة ومستمرة.

❖ السبب الخامس: التخلف والضعف العام، اللذان تعاني منهما البلاد العربية والإسلامية في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، واللذان يؤثران في النهاية على صورة هذه وشعوبها في وسائل الإعلام الغربية.

وعلى أية حال، فإن هذه الأوضاع ليست قدراً محتوماً. وثمة محاولات للإصلاح على المستويات الشعب والرسمية. قد لا تكون بالدرجة والقد الواجبين والكافيين في ظل الظروف الدولية الحالية، ولكنها أشبه بكرة الثا التي تبدأ صغيرة بطيئة الحركة، ولكن تكبر إندفاعاً وتزداد سرعة بحيث يمكن تجرف ما أمامها.

وحتى لا نخرج عن سياق موضوعنا الأساسي، وهو حرب المصطلحات، باعتبارها جزءاً حيوياً من معركة الهوية التي يسعى أعداؤ تحريفها، ونسعى نحن للحفاظ عليها. إلى كتاب «حرب المصطلحات» حيث الكاتب أحمد عبد الرحيم عن نيتشة (ا الألماني) قوله: «إن حق السيد في إطل يذهب إلى مدى بعيد، إلى حد أنه يمكن اعتبار عمل أهل اللغة فعل سلطة صادراً عن هؤلاء الذين يهيمنون. إن هؤلاء قالوا: هذا كذا وكذا. وألصقوا بموضوع وفعل ما، لفظاً معيناً فتملكوهما. ويضيف: لكن هي حقيقة الخطر الذى نطمح بالإشارة إليه والتنبيه عليه. فالدعوة إلى إعادة النظر في المفاهيم والمصطلحات المستخدمة في الإعلام ضرورة ملحة لأسباب ثلاثة:

❖ تحقيق الانضباط والخروج من حالة فوضى المفاهيم المتسللة إلى إعلامنا بما يخالف رؤيتنا وروايتنا العربية للقضية.

❖ ولتأكيد الهوية والاختصاص والتمايز لمنظومة مفاهيمنا عربية الطابع والمصدر والوسائل والغايات.

❖ وللعمل على التعامل مع المتلقى العربي بوحدات من المفاهيم قادرة على أن تمس حقيقة تكوينه الحضارى حيث تستطيع هذه المفاهيم أن تفجر الطاقة الحضارية الكامنة إلى أقصى مدى من فاعلية.

إن المطلوب اليوم، هو بلورة خطاب ياسي وإعلامي عربي فعال، لمواجهة الحرب المعلنة على الذاكرة العربية والعالمية بشأن الجرائم الإسرائيلية في أراضينا المحتلة. وإذا نجحنا في ذلك نكون قد قطعنا خطوة على طريق طويل: طريق الاستقلال الحضاري الذى هو جوهر الاستقلال.[12]

وما يصدق بشأن الخطاب العربى يصدق بشأن الخطاب الإسلامي العام، وما ينطبق على القضية الفلسطينية ينطبق على كل القضايا ربية والإسلامية الأخرى. ويجد القارئ ملحقين لهذا البحث، قد لا نتفق حرفياً مع ما فيهما من آراء ومقترحات، ولكن هذه الآراء والمقترحات تفتح الباب واسعاً للاجتهاد، وما أحوجنا إليه في هذه الظروف.

12 ـ بحث: حرب المصطلحات ص 35 ـ 36.

كتاب حرب المصطلحات.. دراسة تصحيحية للمفاهيم

هذا الكتاب إسهام جيد في موضوعه من قبل إتحاد الصحفيين العرب، ويعزز من أهميته الكوكبة التي ساهمت فيه لتحقيق هدف نبيل، وفي مقدمتهم الدكتور عبد الوهاب المسيري، والدكتور أحمد صدقي الدجاني، والدكتورة حنان عشراوي، وغيرهم. والكتاب يعرض لقضية من القضايا الحيوية في صراعنا مع إسرائيل.. فهذه الأخيرة، لم تترك وسيلة في حربها مع العرب إلا ولجأت إليها، لتعزيز موقفها. وكان من بين أخطر هذه الوسائل وأكثرها تأثيراً، أجهزة الإعلام التي نجحت إلى حد كبير في استمالتها لتبني موقفها بما في ذلك الصحف والإذاعات المرئية العربية.

وفي سبيل تحقيق ذلك لجأت الصهيونية إلى مصطلحات وأسماء عبرية عديدة، في لغة الإعلام العالمي تزييفاً للواقع وتزويراً للتاريخ وسرقة للمورثات، وسارعت معظم وسائل الإعلام العربية إلى نقلها دون تمحيص ودراسة، فنجد بعض إعلامنا يكرر هذه المدسوسات الإسرائيلية ويعممها ويروجها في الرأي العام بقصد أو دون قصد، مما شوه التاريخ عموما وتاريخ الصراع العربي الإسرائيلي خصوصاً.

ومن هنا تأتي أهمية هذا الكتاب، الذي يقوم على متابعة هذا الدس وتصحيح الأخطاء ومواجهة التشويه والتزوير، بالطريقة العلمية السليمة من خلال جهد نخبة من كبار الكتّاب والمفكرين.

وحسبما يشير صلاح الدين حافظ، الأمين العام لاتحاد الصحفيين العرب، في تقديمه للكتاب، فإنه في ظل مناخات الترويج لثقافات السلام وموجات التطبيع، ومناورات التسوية السياسية وخداع المصالح تلك، والتي بدأت عملياً بعد حرب أكتوبر، وازدادت خلال الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، تزاحمت الجهود على الجانبين العربي والإسرائيلي، بتحريض وتمويل أميركي، للعمل على إعادة صياغة العقل والوجدان العربي، وتحويل اتجاهاته وتغيير أفكاره وآرائه، من معاداة إسرائيل دولة المشروع الصهيوني الاستعماري الاستيطاني، إلى محبة إسرائيل دولة التسامح والسلام والحرية والديمقراطية! وإذا بعشرات المصطلحات والكلمات، والأسماء والأوصاف العبرية، تتسلل إلى لغة إعلامنا العربية، سواء عن طريق استعارتها من الإعلام الصهيوني مباشرة، أو نقلها نقلاً حرفياً أعمى من الإعلام الغربي الحاضن الرئيسي للإعلام الصهيونى، حتى وصل الأمر بحق إلى محاولة ما يمكن تسميته بـ(أسرلة) اللغة العربية، بعد النجاح المشهود في (أسرلة) اللغات الغربية، وغزو ثقافتها بمدسوسات إسرائيلية، وتهويد بعض مصطلحات وتبني ألفاظها، وهو ما يستدعي ضرورة الخلاص من الوقوع في فخ استخدمها، وهذا أضعف الإيمان.

تتم ترجمة الكثير من المصطلحات باستثناء المصطلحات اليهودية وكأنها قدس من الأقداس!!

لقد بدأت الحركة الصهيونية محاولاتها هذه، لاختلاق علاقة بين اليهود وفلسطين، من خلال تغيير أسماء المواقع والأماكن والبلدان، وربطها بالتوراة والتاريخ اليهودي الطارئ في فلسطين، وفي سبيل ذلك، قاموا بعملية تزوير وتغيير واسعة، لكل مكان وأثر، وشارع وحي وطريق، وواد ونهر وجبل، وسهل وتل في فلسطين، بحيث يتطلب رصد عملية التغيير والتزييف عملاً كبيراً وجهداً متكاملاً.

وبشكل عام، ينقسم الكتاب إلى قسمين: الأول يتناول مجموعة دراسات، أولها حول المفاهيم والمصطلحات المتداولة، في الصراع العربي الصهيوني للمسيري، والثاني حول التميز في المصطلح في قضايا الصراع والحضارة، للدكتور أحمد الدجاني، والثالث حول إعلامنا وفخاخ المصطلحات، لمحمد السماك.

أما القسم الثانى، فيتناول دراسة للدكتورة حنان عشراوي، حول تفنيد الرواية الإعلامية الإسرائيلية، والمصطلحات الإعلامية، في خندق الصراع، لنعيم الطوباسي، واغتيال المكان: تهويد خارطة فلسطين التاريخ.. وغيرها من دراسات أخرى.

وإذا كانت عملية الترجمة تتم للكثير من المصطلحات، فإن هذا الأمر لا ينطبق على المصطلح اليهودي، ونتركه عبرياً دون تغيير، وكأنه قدس الأقداس الذي يجب ألا يطأه إلا كبير الكهنة وحده، حسب تعبير المسيري. ويصل الأمر إلى حد نقل الأسماء العبرية كما هي، دون تغيير، (فاسحاق) ينطق حسبما ينطق في العبرية (يتسحاق) كما لو أن المنطقي هو أن ننطق الأسماء بالعبرية، ومن النماذج التي يقدمها الكتاب (مفهوم التطبيع)، وتعبير (حائط المبكى)، وسمي كذلك لأن الصلوات حوله تأخذ شكل نواح وعويل.

ومن المصطلحات التي يشير إليها الكتاب، مصطلح (قوى التطرف) للذين يمارسون حق المقاومة. وشعار (تحسين) نوعية معيشة الفلسطينيين، وهو شعار طرحه (جورج شولتز وزير الخارجية الأمريكية الأسبق في عهد «ريغان» مختزلاً مشكلة شعب فلسطين في تحسين مستوى المعيشة، وكأنها ليست مشكلة حقوق شعب سلبت منه.

> عشرات المصطلحات والكلمات والأسماء والأوصاف العبرية تتسلل الى لغة الاعلام العربي

ومن المصطلحات التي يعرض لها الكتاب مصطلح يهودا والسامرة، وهو اسم يطلقه الاحتلال على أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة.

ويهدف إلى ترسيخ أسماء إسرائيلية للمناطق والمدن العربية ، كما أن من المصطلحات التي يروجها الإعلام الصهيوني، ونقع فريسة لها، مصطلح «عرب إسرائيل» والمقصود بهم الفلسطينيون في الأراضي التي احتلتها إسرائيل عام 48. كذلك تطلق كلمة أعمال العنف والشغب، للإشارة إلى مقاومة الاحتلال التي تكفلها الأعراف الدولية. ومن المصطلحات التي يتم تقديمها ونتقبلها، الحديث عن منح أراض للفلسطينيين في إطار المفاوضات بدلاً من إعادة الأراضي إلى أصحابها.

مكونات بنية الخطاب العربي على المستوى الأفقي

وهو المستوى الذي يعبر عن نوعيات القضايا المتضمنة في الخطاب، وفي خطابنا الموجه للغرب، يتضمن هذا الخطاب قضايا فلسفية وتاريخية وحضارية وسياسية واقتصادية واجتماعية، ويمكن على وجه العموم مخاطبة الغرب في تلك القضايا، حسب الإطار العام التالي:

1 – إتخاذ الإطار ما بعد الاستعماري، (Postcolonial) إطاراً عاماً للتفاعل مع الغرب.

2 – الالتزام بالهوية الحضارية العربية الإسلامية، باعتبارها ثقافة وليست هوية عنصرية أو وحدة لغة أو دين.

3 – الاعتراف بمبدأ التحديات الحضارية، في إطار التنافس الشرعي الذي هو مبدأ طبيعي، وهو المبدأ الذي يعارض الصراع الحضاري غير الشرعي، الذي يهدف لإفناء الآخر ، أو الحوار المستسلم الذي لا يستنفر القدرات الإبداعية للأمة.

4 – التواصل الحضاري ، فلا يمثل الغرب حضارة نشأت على غير مثال ، ولا يحاول العرب الانقطاع عن التطور الحضاري والإنساني المعاصر، وإنما دورنا هو احترام الفكر الغربي، واستيعاب ما وصلت إليه الحضارة المعاصرة والبناء عليه.

5 – التطور (أو الإصلاح) في كافة تلك القضايا هو قضية ملحة للجانبين، فإذا كانت المجتمعات العربية تمثل مجتمعات لم تحقق الحداثة بعد ، فإن المجتمعات الغربية تعيش حداثة غير إنسانية، تحتاج إلى إصلاح حتى يتحقق التعايش على كوكب واحد، فالإصلاح هو قضية مشتركة.

6 ـ الاعتماد على القيم الإنسانية العامة، التي لا تختلف من مجتمع لآخر، مع الوضع في الإعتبار أن التطبيق العملي، يمكن أن يحتوي على بعض الاختلافات بين المجتمعات. وأن حل تلك الاختلافات هو عملية تطور، ويكمن في مستقبل البشرية. وفي كل الأحوال لا يوضع مجتمع معين، باعتباره المقياس، وخاصة المجتمع الغربي المعاصر.

7 ـ النقد الذاتي، بما في ذلك نقد المشكلات الجوهرية للمجتمعات العربية ، وفي نفس الوقت، عدم جلد الذات ، وذلك حتى يكتسب الخطاب العربي المصداقية في تناول القضايا الهامة للطرفين.

8 ـ الإنطلاق في تحليل المواقف السياسية من المبادئ الإنسانية العامة، وليس اعتماداً على موازين القوى، مع الاعتراف بهذه الموازين عند اتخاذ القرار السياسي.

9 ـ تحليل الأحداث والمواقف في ظل سياق حدوثها، والإطار العام الصحيح لها، وبخاصة الإطار التاريخي، وعدم اجتزائها من سياقها وإصدار الأحكام السطحية بخصوصها.

10 ـ تجنب إدعاء السبق للفكر الإسلامي، ومحاولة إثبات أن الإسلام قد سبق الغرب في المبادئ الأساسية، كمثل قضية الديمقراطية والشورى أو خلافه. والصحيح هو أن يوضح كل مفهوم في إطاره الفكري، وأن واقعنا المعاصر يقتضي إعادة تأسيس قيمنا الحضارية.



السلفية

د. عبد الإله بنعرفة*

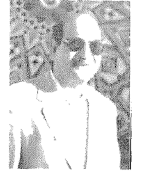
لا بد من الإقرار بأن الفرق الإسلامية على اختلافها، قد ادعت الوجاهة والتصدر في تمثيل الأمة، سواء كان ذلك فقهاً أو توحيداً أو تصوفاً أو فلسفة أو غير ذلك من الاتجاهات. وكل واحد من هذه الفرق يرى مذهبه أعلى المذاهب، ولم تخرج السلفية عن هذا الإطار، فقد ادعت هي الأخرى نقاء عقيدتها وخلوصها من كل تأثيرات خارجية. كما لو أن الدين يجب أن يفهم فقط بعقلية العرب الخلص، من دون التراكمات المعرفية التي تعرفها كل الحضارات، كما أن رؤيتهم للنصوص تنبني على مسلمة خاطئة، إذ يعتقدون أن النص يمكنه أن يمنحك معناه من ذاته مع تقييده بقواعد اللغة العربية، رغم أن طبيعة النص الديني عموماً هو العالمية والإطلاق، ورغم أنه نزل بلغة طبيعية لها قواعد خاصة. إلا أن ضوابط الفهم تتعدى الدلالات المحدودة في لغة ما، لمعانقة الوسع الإلهي في هذا الخطاب المتوجه إلى كل البشرية. فالسلفية لا تعرف ولا تقر بالتداول اللغوي الناتج عن التداول التاريخي للنصوص، ولا تستند إليه كمكمل من مكملات فهم تلك النصوص، بالإضافة إلى المعاني المعجمية والدلالات اللغوية. ولهذا ادعت السلفية أنها الفرقة الناجية وأنها تمثل السنة والجماعة، وتمسكت بالحديث المشهور عند الترمذي «افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على

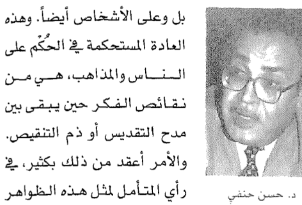


إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة» أو حديث معاوية - رضي الله عنه - عند قوله ﷺ: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة». وفي رواية الترمذي التي سبق ذكرها قالوا: من هي يا رسول الله ؟ قال:«من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي». ويشكل هذا الحديث أو على الأصح طرق فهمه وتوجيهه، نقطة الصراع بين أنصار السلفية وخصومهم. وقد شكك في الحديث المذكور جماعة كابن حزم والشوكاني، وصححه الحاكم في مستدركه. وقد وصل ببعضهم إلى حد القول: «فمن قدم اجتهاداً فقهيا، أو قياسياً فرعياً، أو رأياً فلسفياً، أو هوى بدعياً، أو اعتقاداً شركياً، على أدنى سنة جاءت من صاحب السنة وشارعها عند أهل السنة، فليس هو من الفرقة الناجية وسالكي سبيل الله في ورد ولا صدر» (التوحيد

* كاتب وباحث وأستاذ جامعي / المغرب.

الخالص، صديق حسن خان، 73/3). ومعنى كلامه أنه ما عدا السلفية، فغيرهم من المسلمين من مالكية وشافعية وأحناف الذين يقلدون أئمتهم، بل غيرهم من الفرق الإسلامية، هم في النار. وقد عرف النقاش ذروته حول تفسيره


محمد عابد الجابري


د. حسن حنفي

بل وعلى الأشخاص أيضاً. وهذه العادة المستحكمة في الحُكم على الناس والمذاهب، هي من نقائص الفكر حين يبقى بين مدح التقديس أو ذم التنقيص. والأمر أعقد من ذلك بكثير، في رأي المتأمل لمثل هذه الظواهر المتضاربة والمتنافرة. ولا شك أن

أو رفضه، جاء في أحد حوارات محمد عابد الجابري مع حسن حنفي: «إن أشد ما ضرّنا هو حديث الفرقة الناجية... الذي يكفر اجتهادات الأمة كلها، ولا يستبقي إلا واحداً منها، هو اجتهاد الدولة القائمة، وهو ما ترسب في وعينا القومي بتكفير كل فرق المعارضة..» (مجلة اليوم السابع 23). ويضيف الجابري: إن فهم الحديث يقتضي أن نقول إنه يرسم طريق النجاة، وأن نبتعد عن تعيين الفرق، لا الناجية ولا الهالكة، وأن لا نبرز عناصر الانحراف عن سمت الفرقة الناجية، إبرازاً ينكشف به انحراف بعض التيارات الفكرية القائمة «لما ينتج عنه من العداوة والبغضاء بين أفراد الأمة وجماعاتها، هذا في حين أن اعتبار مقاصد الشرع يقتضي الستر على المسلمين، وعدم الكشف عن فضائحهم». (نفس المصدر 32).

تعريف السلفية:

السلفية مفهوم غامض، فالبعض يرى في السلفية التيار المحافظ الجامد، وخاصة في الجانب الديني. ويقصر السلفية على محاربتها للبدع حتى أضحت التيار الفكري الذي قام على فكرة التبديع. بل منها إلى التكفير، عند بعض الغلاة، لكل مظهر من مظاهر التعبد والتدين التي لا يقرونها.

وهناك من يرى في السلفية والسلفيين حركة متحررة من عقال فكر الخرافة والبدع. ولعل في هذا التناقض ثابت من الثوابت التي يُحكم بها على كل فكر،

الحكم على الشيء فرع من تصوره. ثم ليس من العلم في شيء أن يحكم فقط، على الشيء من خلال المنتسبين له. ويكفيك قول أحد من اعتنقوا الإسلام: «الحمد لله الذي عرفني بالإسلام قبل المسلمين» لما رأى البون الشاسع بين تعاليم الإسلام وبين حالة المسلمين اليوم. ومع أننا لا نقر بالحكم على الأفكار والمذاهب من خلال الأتباع، إلا أن النص ليست له استقلالية تامة عن حامله، وعن التجربة البشرية في التعامل مع ذلك النص.

والسلفية تعني عند منتسبيها، الاتجاه الذي كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، والأئمة الأربعة، ومن سلك منهجهم، دون من انحرف إلى مسلك مبتدع كالخوارج والروافض والمرجئة والجهمية والمعتزلة، كما تعني عندهم أيضاً: موافقة الكتاب والسنَّة وروحهما، فمن خالفهما فليس بسلفي، وإن عاش في عهد الصحابة الذين بهم ابتدأت السلفية منهجاً، وهناك من يعرف السلفية بأنها «المنهجية التي تقوم على رفض التقليد المذهبي الفقهي والعقائدي، والعودة في كل ذلك إلى الأصل، الكتاب والسنَّة، وبناء على هذه التعاريف يتبين أن هناك سلفية زمانية تطلق على الصحابة وتابعيهم بإحسان من خير القرون، وسلفية منهجية، أي التي التزمت نهج الصحابة وتابعيهم في فهم الإسلام.

وهذا الغموض الذي يلازم السلفية، راجع بالأساس إلى أتباع السلفية. ففيهم من الرجعيين

الشيء الكثير، وفيهم من ينادي بالتحرر وفك عقال المدارك الإنسانية، وفي مقدمتها العقل من أسر الخرافة والبدع والتخلف.. فهناك من يرى «سلفه الصالح» في علماء عصور التخلف، ومنهم من يرى «سلفه الصالح» في أعلام عصور الازدهار، ومنهم من يتنكر للعقل كقوة بشرية ويحصر الأمر في النص والمأثور وحدهما. بينما بعض السلفيين يعلي من مقام العقل ويمنحه الاستقلال الكامل في الحكم على الأشياء التي هي من عالم الملك، بينما يترك النصوص لعالم الملكوت. والسلفيون المعاصرون والمنافحون عنها غالباً ما يرفضون نعتهم بالجمود والرجعية، ويعتبرون أن الحكم على السلفية هو حكم على أصولها، وهي القرآن والسنة ومأثورات السلف. وفي هذا من التمحل ما فيه، لأن الأمة فيها نوازع مختلفة ومذاهب متعددة، وكل منها ملتزم بهذه الأصول. فلا معنى لأن يختص طرف منها دون طرف بهذه الأصول. ولكن السلفية شددت على هذا الأمر وبالغت فيه وتكلمت في العقيدة النقية والفرقة الناجية أكثر من غيرها. ولعل المراقب يندهش من كثرة المكتوبات عن تبديع الأئمة وكبار العلماء من خلال كثير من عناوين كتب أتباع السلفية التي دأبت، حسب زعمها، على تتبع هفوات وأخطاء وأوهام الأئمة، كالغزالي والسيوطي وغيرهما. وأين هؤلاء السلفية من أولائك العلماء مصابيح الدجى؟ ولكن للمذهب سطوة وغلو، أدت ببعض أتباعه وهم كثير إلى تبديع بل وتكفير كثير من الناس.

وفي القرآن تعني كلمة «سلف»: الماضي الذي سبق الحياة الحاضرة

﴿...فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾
[سورة البقرة، الآية275]

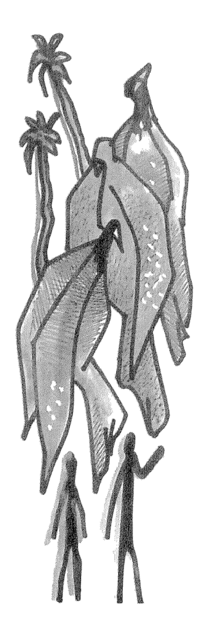
﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ﴾ [سورة النساء، الآية: 22]

﴿...وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾
[سورة النساء، الآية: 23]

﴿...عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ﴾
[سورة المائدة، الآية 95]

فالسلف هنا هو الماضي.

ونفس هذا المعنى يدل عليه الاستعمال النبوي في الحديث الشريف. ففي مسند أحمد بن حنبل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه «لما ماتت زينب بنت رسول اللهﷺ قال رسول اللهﷺ: الحقي بسلفنا الصالح الخيّر عثمان بن مظعون...» وفيه أيضا عن فاطمة الزهراء رضي الله عنهما، أن رسول اللهﷺ قد قال لها في مرض موته: «... ولا أراه إلا قد حضر أجلي،



وإنك أول أهل بيتي لحوقاً بي. ونعم السلف أنا لك...». والسلف يعني أيضاً: إقراض الأموال.

وهذه المعاني هي نفسها في معاجم اللغة. ففي معجم مقاييس اللغة لابن فارس: «السين واللام والفاء أصل يدل على تقدم وسبق». وفي اللسان: «السلف: الجماعة المتقدمون» أياً كان نوع تقدمهم. «السلف: كل من تقدمك من آبائك وذوي قرابتك في السن أو الفضل، وكل عمل صالح قدمته... والسلفي: من يرجع في الأحكام الشرعية إلى الكتاب والسنَّة ويهدر ما سواهما». والسلفي حسب هذه المعاني هو: المنتسب إلى السلف بعلة جامعة، هي اعتقاده أو ظنه بتحقق السبق لتلك الجماعة أو السلف السابق في الفضل أو غيره. وعليه، فلا مجال للرد على خصوم السلفية حينما ينعتونهم بالرجعيين أو الماضويين. فأصولهم تشهد على تمسكهم بالماضي.

وإذا كان السلف هو الماضي، بحسب هذه المعاني المذكورة في القرآن والحديث ومعاجم اللغة والاصطلاحات، فإن السلفيين إذن هم الذين ينتهجون هذا الماضي المتقدم والسالف. لكن هذا التحديد الواضح «يرجح الغموض الذي أشرنا إليه في البداية حول مصطلح السلفية لأن الماضي المحتذى سيظل غير محدد لأنه متعدد هو الآخر. فهل هو الكتاب والسنَّة؟ أم أن فيه المأثورات المروية عن الصحابة ؟ وهل هو تلك النصوص وحدها ؟ أم أن فيه مذاهب التابعين وتابعي التابعين ؟... وحتى إذا كان هذا السلف هو النصوص قرآناً وسنَّة، فإن تفسيرها قد اختلف بحسب المناهج المعتمدة والمدارس الفكرية والفرق والطوائف والاتجاهات. ونفس الأمر يصدق على مأثورات





الصحابة ومذاهب الأئمة الكبار.

فالإبهام مبدؤه ومنتهاه تعدد الرؤية للمأثورات السالفة التي يحتذي بها «السلفيون». ويمكن اختصار النقاش حول السلفية في تراوحها بين كونها مذهبًا أو منهجاً. ولا شك أن القول الثاني أقرب إلى الصواب من الأول، لأن المنهج هو المرحلة الأولى في تشكل المذهب. ولا نظن أن السلفية مذهب واضح المعالم، بل فيها ناس ينتسبون إلى تيارات تصل إلى حد التعارض. ورأينا السلفية تحارب الصوفية، ووجدنا كثيراً من الطرق الصوفية تنتسب للسلفية وتقدم نفسها على أنها صوفية سلفية. ولا شك أن هناك تصوراً مختلفاً للسلفية، فمحمد عبده نفسه كان لا ينام حتى يقرأ الفتوحات المكية لابن العربي، وكان يجله كثيراً، وقد أورد كلامه في الموضوع الدكتور عبد الحليم محمود، مع أننا نعرف موقف ابن تيمية مثلاً من هذه الشخصية الإسلامية الكبيرة. فالسلفية والسلفيون ليسوا شيئاً واحدا.

> ما هي الأسباب الكامنة وراء غموض مصطلح السلفية؟!

نشأة السلفية :

إن بساطة الحياة الفكرية في الجزيرة العربية واقتصارها على الجانب الأدبي ككل ثقافة شفوية، قد أدى بالناس في البداية إلى التمسك بظواهر النصوص، لغياب الأدوات الفكرية اللازمة وعدم حصول تراكم معرفي كاف يسمح باستنطاق النصوص وإخضاعها للمد والجزر الناتجين عن كل عملية للتعقل والتفكر، لكن الفتوحات الكبرى وضعت العرب والمسلمين أمام تراث فكري إنساني، بالغ التعقيد في أبنيته الفكرية في فارس والهند، ومصر والشام

بتراثهما المصري والروماني واليوناني. وهكذا صارت الدولة الإسلامية مسؤولة عن هذه الأوعية الحضارية المتعددة بما تنطوي عليه من قضايا وأبنية فكرية مما دفع الناس إلى الارتفاع إلى مستوى التحديات التي تطرحها هذه الأوعية الحضارية والأبنية الفكرية المتطورة، ومن ثم امتلاكها وصهرها في بوتقة واحدة ونظام فكري جديد.

فالنصوص المؤسسة من قرآن وحديث على وضوحها التي أقنعت البدو البسطاء، قد أصبحت محتاجة في ظل التغيرات الجديدة إلى مناهج جديدة لفهمها لإقناع هؤلاء المسلمين الجدد الذين دخلوا في دين الله أفواجاً. ولا شك أن سبيل الإقناع المتاح أمام المسلمين الأوائل لم يكن بالقدر الكافي لكي يقنع أصحاب الأديان والملل الأخرى التي تمرست على البرهان والجدل والأنظمة الفكرية المتقدمة، فكان الاحتكام إلى النصوص لا يجدي مع هؤلاء الذين لا يؤمنون بحجية هذه النصوص ولا قدسيتها، وأن الإقناع بالمأثور لا جدوى منه مع من لا يؤمن بهذا المأثور. فالصراع الفكري الجديد دفع المسلمين إلى امتلاك أدوات فكرية إنسانية جديدة تصلح لكل ألوان البرهنة والجدل.

الصراع الفكري الجديد دفع المسلمين إلى امتلاك أدوات فكرية إنسانية جديدة تصلح لكل ألوان البرهنة والجدل

وهكذا ظهر علم الكلام والفلسفة. لكن الأدوات التي استعملها هؤلاء ظلت حبيسة نخبة محدودة لا تمثل فكر عامة وجمهور الناس، الذي وقف مع النصوص في أغلب الأحيان. ـ وزاد من اتساع الهوة بين هذه العامة وتلك الخاصة ـ زهدُ بعض أنصار علم الكلام والفلسفة في بعض النصوص المؤسسة وتأويلها تأويلاً متعسفاً حتى وصل الأمر إلى اعتبار إسلام النصوص الأوائل على بساطته بعيداً كل البعد عن التعقيد الحاضر.

في خضم هذا الصراع بين العامة والخاصة، ظهر من بين الناس قيادات فكرية حملت لواء هذا الإسلام النصوصي، فكان لزاماً العودة إلى النصوص وإسلام السلف الذي مضى وسلف، بعد أن أصبح الإسلام غريباً في هذا المناخ الفكري الفلسفي. القائم على إعمال الرأي والقياس والتأويل في النصوص المؤسسة. وكان رأس تلك القيادات علم أعلام الحركة السلفية وإمامها الأبرز، أبو عبد الله أحمد بن حنبل (164ـ241 هـ./ 780 ـ 855 م.) على عهد الدولة العباسية.

كان هذا الإمام زاهداً ورعاً، يقوم مذهبه على أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص. والقرآن كلام الله غير مخلوق خلافاً لقول المعتزلة. وصفات الله التي وصف بها نفسه نثبتها له ونصفه بها على نحو ما وردت في النص والمأثور من غير تأويل أو رأي. وعالم الغيب لا نخوض فيه ونفوض أمره إلى الله مع الإيمان به. ورؤية أهل الجنة لله عقيدة حق، يجب أن يؤمن بها المؤمن دونما تأويل أو تمثيل. وعلم الكلام منكر والاشتغال به منكر وأخذ العقائد بأدلته منكر، بل مجالسة أهله منكر. والقضاء والقدر لا يكتمل بدونهما الإيمان.

والذنوب الكبائر لا تجعل المؤمن كافراً ولا تخلده في النار، على عكس قول الخوارج في الأمرين، وقول المعتزلة في الثاني.

وخلافات الصحابة لا يصح الخوض فيها، بل يجب الوقوف عند محاسنهم وفضائلهم. وترتيب الخلفاء الراشدين في الفضل وفق ترتيبهم في تولي الخلافة. وطاعة ولي الأمر واجبة حتى ولو كان فاجرا فاسقاً والثورة عليه منكر. والفرائض والمعاملات والجهاد نؤديها ونمارسها على النحو الذي جاءت به النصوص في القرآن والسنَّة.

كما نهى الإمام أحمد بن حنبل عن الاشتغال بالتأليف ودعا للوقوف عند جمع الحديث والمأثورات،

لكن تلاميذه وأصحابه دونوا أفكاره وتعاليمه، التي توجزها لنا عقيدته السلفية:

من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأقر بجميع ما جاءت به الأنبياء والرسل، وعقد قلبه على ما ظهر من لسانه، ولم يشك في إيمانه ولم يكفر أحدا من أهل التوحيد بذنب، وأرجأ ما غاب عنه من الأمور إلى الله، وفوض أمره إلى الله ولم يقطع بالذنوب العصمة من عند الله، وعلم أن كل شيء بقضاء الله وقدره الخير والشر جميعاً. ورجا لمحسن أمة محمد وتخوف على مسيئهم، ولم ينزل أحداً من أمة محمد الجنة بالإحسان، ولا النار بذنب اكتسبه حتى يكون الله الذي ينزل خلقه حيث يشاء. وعرف حق السلف الذين اختارهم الله لصحبة نبيهﷺ، وقدم أبا بكر وعمر وعثمان، وعرف حق علي ابن أبي طالب، والزبير ،وعبد الرحمن بن عوف، وسعد ابن أبي وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل... وترحم على جميع أصحاب سيدنا محمد ﷺ صغيرهم وكبيرهم، وحدث بفضائلهم، وأمسك عما شجر بينهم. وصلاة العيدين والخوف والجمعة والجماعات مع كل أمير بر أو فاجر. والمسح على الخفين في السفر والحضر، والتقصير في السفر. والقرآن كلام الله وتنزيله وليس بمخلوق. والإيمان قول وعمل، يزيد وينقص. والجهاد ماض منذ بعث الله سيدنا محمداً ﷺ إلى آخر عصابة، يقاتلون الرجال لا يضرهم جور جائر. والشراء والبيع حلال إلى يوم القيامة، على حكم الكتاب والسنَّة. والتكبير على الجنائز أربع. والدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح، ولا تخرج عليهم بسيفك، ولا تقاتل في فتنة، وتلزم بيتك. والإيمان بعذاب القبر والإيمان بمنكر ونكير، والإيمان بالحوض والشفاعة. والإيمان بأن أهل الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى. وأن الموحدين يخرجون من النار بعدما امتحنوا (عقائد السلف ص. 11، 12، جمعها ونشرها د. علي سامي النشار، د. عمار الطالبي، طبعة الاسكندرية 1971).

بهذه العقيدة دعا الإمام أحمد بن حنبل إلى إسلام السلف بعيداً عن المفاهيم الجديدة التي دخلت مع المعتزلة والأشاعرة والفلاسفة وغيرهم، كما « رفع الله قدر هذا الإمام، فصار إماماً من أئمة السنَّة وعلماً من أعلامها لقيامه بإعلامها، وإظهارها واطلاعه على نصوصها وآثارها، وبيانه لخفي أسرارها لا أنه أحدث مقالة أو ابتدع رأيا» (منهاج السنَّة النبوية، ابن تيمية 2/482 ـ 486)، حين ألزم المأمون العلماء بالقول بخلق القرآن، التي خرج منها مرفوع الرأس عند الموافقين والمخالفين له على حد سواء. يقول ابن تيمية في تفسير نسبة السلفية إلى الإمام ابن حنبل:

«وأحمد بن حنبل وإن كان قد اشتهر بإمامة السنَّة والصبر في المحنة، فليس ذلك لأنه انفرد بقول أو ابتدع قولاً، بل لأن السنَّة التي كانت موجودة معروفة قبله، علَّمها ودعا إليها وصبر على امتحانه ليفارقها». (منهاج السنَّة).

هل للتحولات السياسية في التاريخ الإسلامي أثر على انتعاش السلفية؟!

انتعاش السلفية:

لقد ازدهر التيار العقلاني مع المأمون، وتبنت الدولة الفكر الاعتزالي الذي صار لها مذهبا، إلا أن تحول الدولة العباسية عن الاعتماد على العنصر العربي واستبداله بالأتراك قد أحدث ارتجاجاً فكريًا في دعائم الدولة مع الخليفة المعتصم. وقد ترافق هذا التحول بنقل عاصمة الدولة إلى سامراء بدل بغداد لإحداث قطيعة فعلية مع الفكر السائد والأنماط السابقة في الإدارة والحكم. ولما تغلب هؤلاء الأتراك على دواليب الدولة، وكانوا أبعد ما يكون عن التعقيد الفكري الذي عرفته الدولة العباسية، فحدث انقلاب فكري مع المتوكل الذي استبدل السلفية بالاعتزال،

وطغى الفكر النصوصي على التأويل والعقلانية والرأي. واستشار المتوكل الإمام ابن حنبل في تعيين رجالات الدولة من قضاة وغيرهم بعدما أدخل المعتزلة منهم إلى السجون وأخرج أنصار السلفية منها. فأشار عليه ابن حنبل بقائمة من المستشارين والقضاة لملئ الفراغ الذي أحدثه الاستغناء عن خدمات المعتزلة. كان لهذه الأحداث الأثر الكبير في انتعاش السلفية ومذهب أصحاب الحديث.


عبد الرحمن الكواكبي


رشيد رضا

جمال الدين الأفغاني

ثم لما طال الأمد بالدولة المملوكية وسيطر الجند الغرباء حضارياً وقومياً على مقدرات الدولة، ظهرت البدع وانتشرت حتى غالبت عقائد السلفية، فكان أن ظهر أئمة أعادوا للسلفية ألقها كابن تيمية (661 - 728هـ./1263 - 1328م)، وابن قيم الجوزية (691 - 751 هـ./1292 - 1350م). وصار هؤلاء على النهج النصوصي للسلف في مواجهة كل ما اعتبروه بدعة مع تساهل في الاستفادة من آليات العقل كالقياس والتأويل خلافا لأسلافهم نظراً لتعقيدات الحياة والمجتمع الذي عاشوا فيه. لكن هذه الصحوة لم تعرف الازدهار الذي عرفته سابقتها مع أحمد بن حنبل، فلم تصبح مذهبا للدولة بل بقيت في هامش المعارضة.

فلما ورثت الدولة العثمانية دولة المماليك وعرفت توسعاً كبيراً وازدهاراً عمرانياً واسعاً، سمح الأمر ببروز تيارات فكرية معقدة اختلطت بعدة مذاهب واتجاهات لم يكن بمقدور الإنسان العادي استيعابها، فكان أن قامت الحركة السلفية بردة فعل في العصر الحاضر ساعية على العودة إلى إسلام السلف، خصوصا لما تأكد عجز الأتراك العثمانيين عن مقاومة الاستعمار الذي فتك بجسم الأمة ينهبها، فظهر محمد ابن عبد الوهاب (1115 - 1206هـ./1700 - 1792م) وجمال الدين الأفغاني (1254 - 1314هـ./1838 - 1897م) والإمام محمد عبده (1266 - 1323هـ./1849 - 1905م)، وغيرهم كالكواكبي ورشيد رضا وعبد الحميد بن باديس وعلال الفاسي...

والجامع المشترك بين هؤلاء الأعلام اتفاقهم في الإلهيات واختلافهم في السياسة الفقهية المؤدية إلى الإصلاح. وهم ملتزمون بالنصوص مع مغالاة السلفية المعاصرة في تمجيد سلطان العقل بسبب انفتاحها على الحضارة الغربية وإيمانها بدور العقل في نهضة تلك الحضارة. فكان أن أعلنوا العقل على رأس مذهبهم على الرغم من عدم قول سلفهم بذلك، بل وحتى إنكارهم لكثير من الأحاديث التي وردت في شرف العقل. ولكن ما هي أصول المذهب السلفي القائم على النصوص ؟.

أصول المنهج النصوصي:

1 - النصوص: إذا وجد النص أفتى به ولم يلتفت إلى ما خالفه كائناً من كان.

2 - ما أفتى به الصحابة لا يقدم عليه لا عمل ولا رأي ولا قياس.

3 - إذا اختلف الصحابة تخير من أقوالهم ما كان أقربها إلى الكتاب والسنّة.

4 - الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه. وهو الذي رجحه على القياس.

5 - القياس للضرورة عند غياب النص أو قول الصحابي أو الحديث المرسل أو الضعيف.

هذه هي الأصول الخمسة لمنهج ابن حنبل، وهي تدور وتعتمد أولاً على النصوص والمأثورات، وتنكر

استخدام الرأي والقياس، فضلاً عن العقلانية والتأويل، حتى في ترجيح نص على آخر من هذه النصوص. بل إن ابن حنبل يسمي النص «الإمام». وكما يقول ابن القيم، معقباً على أصول منهجه، فإنه «كان شديد الكراهة والمنع للإفتاء بمسألة ليس فيها أثر عن السلف. ولقد قال بعض أصحابه: إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام...» (أعلام الموقعين ج 1 ص 29-33). ويروي عنه ابنه عبد الله فيقول: «سمعت أبي يقول: الحديث الضعيف أحب إليَّ من الرأي».

وانطلاقاً من هذا المنهج النصوصي، رأت السلفية أن علماء الأمة منحصرون في النصوصيين، فهم قسمان: حفاظ الحديث والفقهاء. ولنا وقفة صغيرة في مثل هذه التصنيفات، التي لا نعدمها عند كل الفرق الإسلامية، إذ كل واحدة تصنف نفسها وغيرها انطلاقا من زاوية النظر التي تعتمدها. ويمكن بكثير من الاختصار المخل أن نقول: إن شرعية الدول التي تعاقبت على حكم بلاد الإسلام، لم تخرج عن ثلاث منظومات فكرية أساسية: فقهية، كلامية، صوفية. وهناك ترتيب منطقي في هذه المنظومات الثلاث. فأولها المنظومة الفقهية لأن الفقه هو العلم بالأحكام. والدولة الإسلامية الفتية كانت محتاجة في أول أمرها إلى تنظيم المجتمع. وقد تولى الفقه ذلك الأمر. ولهذا نشأت المذاهب الفقهية الكبرى مع الدولة الأموية. ثم لما تعقد المجتمع بفعل التراكمات المتعددة والتأثيرات المختلفة، ظهرت عقائد جديدة، فكان أن احتاجت الدولة إلى إطار عقدي تنظم على أساسه أمور الرعية وتدبر شؤونهم وتدفع الاختلالات الحاصلة. فكان أن ازدهر علم الكلام أو التوحيد مع الدولة العباسية الأولى. لكن علم الكلام وصل إلى مفترق الطرق مع المحنة التي تحدثنا عنها، وظهر المماليك والعثمانيون وكانوا أصحاب جهاد وحركات ومراسيم ملكية، فشجعوا التصوف وبنوا الربط والخانقات.❖ فظهرت الطرق الصوفية. ونفس الشيء يمكن أن نقوله عن الغرب الإسلامي، حيث ازدهرت المذاهب الفقهية كمذهب الأوزاعي مع الدولة الأموية في الأندلس، ومذهب الإمام مالك مع دولة المرابطين، ثم جاءت الدولة الموحدية التي امتدت من السنغال جنوباً حتى أطراف فرنسا شمالاً، ومن طنجة غرباً إلى الحدود الليبية ـ المصرية شرقاً. وقد قامت على مذهب التوحيد والعقيدة المرشدة التي أتى بها تلميذ الإمام الغزالي ومؤسس الدولة الموحدية، المهدي بن تومرت. ثم انحسر كل ذلك وظهر التصوف مع دولة المرينيين التي بنت المدارس بكثرة، واستمر الأمر كذلك مع الدول اللاحقة.

القداسة التي أضفاها المنهج السلفي على النصوص، امتدت للسلف وللعصر الذي قيلت فيه تلك النصوص.

وحتى لا يخطئ القارئ في تفسير كلامنا، فإن هذه المنظومات الثلاث توجد متجاورة في نفس الحقبة، إلا أن تفسيرنا لهذه الظاهرة هو بحسب تغلب بعض منها على الآخر. ولا شك أن هذا التفسير على اقتضابه يوضح لنا تعاقب الدول والبنى الفكرية التي تحكمها. والأصل فيه هو الحديث المشهور عن أجزاء الدين في لقاء النبي ﷺ بجبريل وسؤاله له عن: الإسلام والإيمان والإحسان. وهذه الأثلاث هي المنظومات الثلاث التي تحدثنا عنها: الفقهيات (الإسلام)، والعقديات (الإيمان)، والصوفيات (الإحسان). ولكل من هذه الفرق الإسلامية شرعيتها لأن النبي ﷺ يقول في نهاية الحديث «هذا جبريل جاء يعلمكم أمر دينكم». فجعل الدين متكونا من ركن الإسلام وركن الإيمان،

❖ الخانقات: كلمة فارسية الأصل تعني رباط الصوفية أو مكان التقائهم «التحرير».

وركن الإحسان. ولا معنى لأن تغيب فرقةٌ فرقةً أخرى، بل الأولى أن تقع الوراثة الدينية في المستويات الثلاث (أقوال وأفعال وأحوال النبي ﷺ)، وهو ما نجده مثلاً في منظومة المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، لعبد الواحد بن عاشر الأندلسي الفاسي:

في عقد الأشعري وفقه مالك
وفي طريقة الجنيد السالك

وقد دأبت الدولة المغربية منذ المرينيين والأشراف السعديين ثم الأشراف العلويين على الجمع بين هذه الأركان الثلاث تحقيقا لمقاصد الحديث النبوي الشريف بكمال الوراثة في اتّباع أركان الدين الثلاثة.

من قداسة النصوص إلى قداسة الأنوس:

وبسبب القداسة التي أضفاها المنهج السلفي على النصوص، امتدت هذه القداسة للسلف وللعصر الذي قيلت فيه تلك النصوص، وشاع في الحركة السلفية تعظيم الماضي. وزاد ذلك التعظيم كلما ازداد هذا الماضي إيغالا في القدم واقترابا من عصر صحابة الرسول ﷺ. ولقد روى أعلام الحركة السلفية شعراً يقولون فيه:

دين النبي محمد آثار
نعم المطية للفتى الأخبار
لا تخدعن عن الحديث وأهله
فالرأي ليل والحديث نهار
ولربما جهل الفتى طرق الهدى
والشمس طالعة لها أنوار

رفض الرأي، والالتزام بالنصوص:

في الأمور الدينية يكاد يتفق علماء الإسلام، على أنه لا مجال للرأي أو الاجتهاد إذا ما وجدت النصوص، لكنهم (عدا السلفية) يشترطون أن تكون تلك النصوص قطعية الدلالة وقطعية الثبوت، لا تقبل الاحتمالات، ثابتة من حيث الرواية. والأكثرون يشترطون في النصوص الدالة على أمور اعتقادية، أن تكون «متواترة» ولا يقبلون الإلزام في هذا الباب بأحاديث الآحاد. أما إذا لم تكن قطعية الثبوت وقطعية الدلالة، فإنهم (غير السلفية) لا يرون وجودها مانعاً من إعمال الرأي فيها أو الاجتهاد معها. أما السلفية فيرون في وجود النصوص والمأثورات مانعاً من إعمال الرأي، وذلك بصرف النظر عن قطعية دلالتها وقطعية ثبوتها، حتى ولو وجدت نصوص متعارضة، ولهذا وجدنا الإمام أحمد وابن حنبل يفتي في المسألة الواحدة بأكثر من رأي، حين تعارض نصين أو أكثر، من غير إعمال الرأي في الموازنة بينهما، وترجيح أحدهما على الآخر.

ما الذي ترفضه (السلفية) وما الذي تقره؟ وما المبررات وراء ذلك؟

أما عند غياب النص، سواء قرآنا أو سنَّة أو فتوى الصحابة وأقضيتهم، هنا يجوز الأخذ بالرأي عند الجميع سلفية كانوا أم لا. لكن علماء السلفية يقتربون بهذا الرأي من النصوص والمأثورات، حين يرجحون الرأي المروي، أي رأي الصحابة، ثم الرأي المفسر للنصوص ثم الرأي الذي تواطأت عليه الأمة وتلقاه خلفهم عن سلفهم. ومع هذه الشروط ، فإنهم يلحقون الرأي بالظن وبعدم إلزاميته بل وذمه.

رفض القياس:

في الموقف من القياس، نجد أن السلفيين قبلوا جوانب يعدها غيرهم من القياس، لكنهم يخرجونها من إطاره. كما نجدهم يحددون للمقبول منه شروطا تضيق من نطاقه إلى حد كبير. ثم هم ينظرون إليه نظرتهم إلى الرأي في حضرة النصوص.

فإذا كان المراد بالقياس «رد الشيء إلى نظيره» قبلوه، شريطة أن يكون التماثل بينهما تاماً ومن كل

الوجوه. كما يقبلون رد الفروع إلى أصلها، وإن لم يعدوها - على خلاف الآخرين - قولا بالرأي. أما إذا أريد بالقياس «المعنى المستنبط من النص لتعدية الحكم من المنصوص عليه إلى غيره» فإنه عندهم غير مقبول. وهذا الذي لم يقبلوه من أنواع القياس هو الميدان الأوسع والأساس للقياس عند غير السلفيين من العلماء. لقد وقفوا هذا الموقف السلبي من القياس مع أن هناك مواقف في القرآن والسنَّة تدعو لاستعمال القياس. ولكن تمسك السلفية بالمنهج النصوصي كان مانعاً لهم من الانفتاح عليه.

وللتدليل على موقف السلفية من الرأي والقياس وإيضاح مذهبها، نسوق النص التالي لابن القيم الجوزية: «النصوص محيطة بأحكام الحوادث، ولم يُحلنا الله ولا رسوله على رأي ولا قياس، بل قد بيَّن الأحكام كلها. والنصوص كافية وافية بها، والقياس الصحيح حق مطابق للنصوص، فهما دليلان للكتاب والميزان. وقد تخفى دلالة النص أو لا تبلغ العادل فيعدل إلى القياس، ثم قد يظهر موافقاً للنص فيكون قياساً صحيحاً. وقد يظهر مخالفاً فيكون فاسداً. وفي نفس الأمر لا بد من موافقته أو مخالفته، ولكن عن المجتهد قد تخفى موافقته أو مخالفته.. إننا نقول قولاً ندين لله به، ونحمد الله على توفيقنا له، ونسأله الثبات عليه: إن الشريعة لم تحوجنا إلى قياس قط، وإن فيها غنية عن كل رأي وقياس وسياسة واستحسان، ولكن ذلك مشروط بفهم يؤتيه الله عبده فيها» (أعلام الموقعين).

اعتماد النص ورفض الذوق والعقل والسببية:

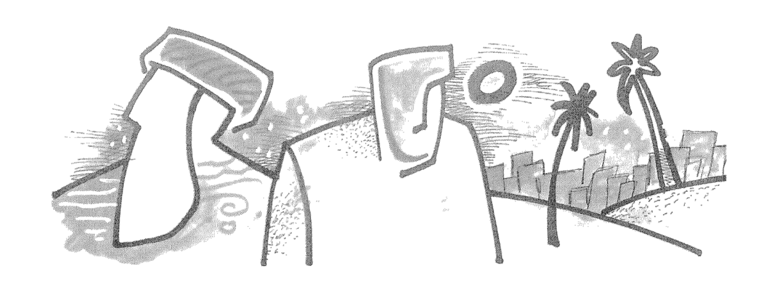
وكما رفضوا الرأي والقياس رفضوا كذلك الذوق الصوفي والكشف والشهود والعقل والسببية، بل وكل إدراكات الإنسان التي يستعملها في فهم النصوص. فالنصوص في نظرهم قائمة بذاتها مستغنية عن أفهام غيرها في تعقلها واستكشافها وتذوقها

واتساق مع منهج السلفية النصوصي رفضوا التأويل الذي هو صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله، بل ذهبوا إلى أن التأويل هو الذي أفسد الأديان وحولها عن الاستقامة والسداد.

وكذلك رفضوا ذوق الصوفية ووجدهم، لأنها في رأيهم أمور ذاتية تختلف باختلاف أهواء صاحبها وما يحبه وما يهواه، واستنكروا تقسيم الصوفية الأمور إلى شريعة لغيرهم وحقيقة لهم جعلوا سبيلها الرياضة والسلوك غير المقيد بأمر الشارع ونهيه، اكتفاء بالذوق والوجد، لأن النصوص هي مصدر الأمر والنهي الإلهيين (رسالة العبودية لابن تيمية ص. 567-568 ضمن مجموعة التوحيد).. ومع أنه لا دليل على العسل إلا بتذوقه ولا دليل على الجماع إلا بنفس الذوق، ولا تغني فيهما الحكاية، فهم أنكروا هذا النوع من المعارف، وخاصة منها ما أخبر به الصوفية عن أذواقهم ومواجيدهم. أما عن الشريعة والحقيقة، فلم يقل بذلك صوفي واحد، بل «الشريعة عين الحقيقة والحقيقة عين الشريعة» كما يقول الشيخ الأكبر. ولكن النصوص يمكن أن تفهم في ذات الآن من حيث الشريعة ومن حيث الحقيقة، أو من حيث الحكمة ومن حيث القدرة، والأمثلة على ذلك كثيرة. وتقسيم الأمر هو أوسع من ذلك، إذ هو شريعة وطريقة وحقيقة. فالشريعة عمل والطريقة قصد والحقيقة تحقق. والكل مصداقاً لتقسيم النبي حقيقة الدين، إلى إسلام وإيمان وإحسان. والسنَّة إما أقوال أو أفعال أو أحوال. وكلها اصطلاحات تشير لنفس المعنى.

هل حقاً كان التصوف يعاني من أزمة ومسئولاً عن تردي أوضاع المجتمع؟

كما رفضوا ما يسميه المتكلمون «حقائق علمية» لم تشهد عليها السمعيات. وعرضوا وهم يناقشون هذه القضية للموقف من العقل، فلم ينكروه لأن السمعيات



قد تحدثت عنه:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سورة المُلك، الآية: 10]

أما السببية، فإن السلفية تتخذ منها موقفاً وسطاً. ففي رأي ابن القيم أن الناس قد افترقوا بإزاء الأسباب والسببية إلى طرق ثلاث: فقوم أنكروا السببية على الإطلاق، وقالوا إن الله سبحانه هو السبب الأوحد لوجود المسببات. وقوم أثبتوا السببية وقالوا بلزوم المسببات عن أسبابها، لزوم المعلول عن العلة، دائماً وأبدا دون تخلف. وهؤلاء هم الطبائعية والمنجمون والدهرية. والفرقة الثالثة هم السلفية، اعترفوا بالأسباب، وبفعلها في المسببات، لكن ليس على وجه الاستقلال بالفعل، لأن السبب عندهم يظل دائماً وأبداً محتاجاً كي يفعل المسبب إلى سبب آخر، والسبب الذي يفعل دون حاجة إلى سبب غيره هو الله سبحانه» (أعلام الموقعين ج 1 / 298 ـ 299).

وهذا الموقف شبيه بموقف من أنكر الأسباب لأن الأسباب إذا لم تستقل بالفعل لم تكن فاعلة على التحقيق، ومن ثم لم تكن أسباباً للمسببات، والقول بأنها مستقلة بالفعل لا يتعارض مع أنها كغيرها مخلوقة لله، فمثلها كمثل القوانين والسنن في الكون، برأها الله لتفعل هي أفعالها دون تبديل.. لكنه المنهج النصوصي الذي اختارته السلفية واتسقت مع معطياته وهي تنظر في مختلف المجالات.

النصوص هي مصدر الحِل والحرمة:

لعل من الأمور الطيبة في المنهج السلفي عند أعلام السلفية القدماء، هو تضييق دائرة الحلال والحرام بقصرها على ما ورد في النصوص، وعدم تعدي ذلك كما فعل بعض من غالوا في استعمال القياس أو الرأي أو هما معاً، لسد الذرائع والتضييق على الناس في أمور دنياهم. أما السلفية فلا يعطون حق الحرمة والحلية إلا لله ورسوله. وهو موقف صائب سيكتب له البقاء لأنه أنسب المواقف وأعدلها خلافاً لمن توهم غير ذلك. فإن أوجب إنسان على نفسه شيئاً فهو يخصه ولا يمكن أن يتعدى لغيره مهما كانت الظروف، لأن مسألة الأحكام تأخذ من المشرع لا من المشرَّع لهم.

الشرع في الفكر السياسي:

في عصر الوحي والبعثة كان مصطلح الشرع يعني الكتاب والسنَّة، أي الشرع المنزل، وكانت أحكام هذا الشرع قد نمت وتكاملت كاستجابة لما طرحته حياة

ذلك العصر من حوادث ومشكلات.. لكن الحوادث لا تتناهي، الأمر الذي جعل الفقهاء والعلماء والمجتهدين. ومنهم الولاة والحكام يشرعون أحكاماً لما استجد، فنشأ إلى جوار الشرع المنزل: الشرع المتأول. وهو شامل لاجتهادات المجتهدين وفقه الفقهاء وتشريعات الحكام والولاة، وهو تراث الأمة القانوني والسياسي، وقد أصبح يندرج تحت مصطلح الشرع والشريعة، وإن لم تكن له قدسية الدين وإلزام الشرع المنزل لجميع المؤمنين. فهو نمو في الشريعة والشرع تكون عنه بناء قانوني ذو طبيعة مدنية وليست دينية.

فالشرع في أزمنة السلفية ثلاثة أقسام:

الشرع المنزل: وهو الكتاب والسنَّة واتباعه واجب.

والشرع المتأول: الذي هو حكم الحاكم أو قول أئمة الفقه، واتباع أحدهم ليس واجبا على جميع الأمة.

والشرع المبدل: الذي هو افتراء على الشريعة وإضافة إليها ما ليس منها.

لكن بعض الجامدين وقف بالشريعة عند عصر الوحي والبعثة، وسمى تراث الأمة القانوني الذي نما انطلاقاً من الشرع واستجابة لمحدثات الأمور وتطورات الحياة «سياسة» ورفض إدراجها تحت مصطلح الشريعة. ولقد أدى تضييق مثل هذا الفكر لنطاق مضمون الشريعة إلى جعل الولاة والحكام يقننون لأحداث الحياة ومشكلاتها وفق أهوائهم، الأمر الذي قطع الصلات بين السياسة والشريعة. لكن أعلام السلفية ردوا على هذا الموقف بتحديدهم لمقاصد الشريعة المتمثلة في: إقامة العدل، وتحقيق المصالح ودفع المضار في المجتمع، ومن ثم فإن كل ما يحقق هذه المقاصد فهو شرع وشريعة أو جزء منهما حتى ولو لم ينزل به الوحي أو لم ينطق به الرسول. وهكذا جعلوا المعيار في الشرعية هو «المصلحة وتحقيق العدل» وليس ما كان شرعاً وشريعة في عصر النبوة والتنزيل. ويزيد من روعة هذا الموقف المتقدم أن أصحابه هم السلفيون أصحاب المنهج النصوصي الذي يميل أصحابه بداهة إلى المحافظة والجمود. ومع ذلك يعود ابن القيم فيقول:« وهذا موضع مزلة أقدام ومضلة أفهام، وهو مقام ضنك في معترك صعب، فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود. وضيعوا الحقوق، وجرءوا أهل الفجور على الفساد، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد.

وتقسيم بعضهم طرق الحكم إلى: شريعة وسياسة كتقسيم غيرهم الدين إلى: شريعة وحقيقة، وكتقسيم آخرين الدين إلى: عقل ونقل. وكل ذلك تقسيم باطل، بل السياسة والحقيقة والطريقة والعقل، كل ذلك ينقسم إلى قسمين: صحيح وفاسد. فالصحيح قسم من أقسام الشريعة، لا قسم لها، والباطل ضدها ومنافيها... (أعلام الموقعين ج 4/ 372). هكذا قنن أعلام السلفية تطور الفكر السياسي والقانوني، فربطوا بين العادل منه وبين الشريعة، واضعين أنظارهم على مقاصد الشريعة.

كيف قنَّن أعلام السلفية تطور الفكر السياسي والقانوني؟

وإذا كانت هذه النظرة الفكرية الثاقبة التي طورت ونمّت مضمون الشرع والشريعة ليشمل السياسة هي واحدة من ثمار الموقف المبدئي للسلفية من ضرورة فقه الواقع قبل فقه الشرع حتى يمكن للولاة والعلماء والحكام الانطلاق من الواقع إلى الشرع في محاولة للتوفيق والمطابقة بينهما التي هي في الحقيقة لب سياسة أمور الناس. لكن هذا الاهتمام بالواقع قد عكس في مجالات أخرى مواقف مترددة انعكس عليها سوء الواقع الظالم الذي عاشه أعلام سلفية العصور الوسطى في ظل مظالم دولة المماليك. ففي آثارهم الفكرية نجد تقرير حقيقة هامة تقول: إن الولاة هم «وكلاء العباد على نفوسهم» وأنهم «بمنزلة أحد الشريكين مع الآخر، ففيهم معنى الوكالة». وهذه الكلمات تقرر ما نسميه الآن «الأمة مصدر السلطات،

والحكومة نائبة عن الشعب». لكن هذه الآثار الفكرية تتحدث عن أن «الولاة: ولاة الله على عباده» (ابن تيمية: السياسة الشرعية 24). بل وتردد المقولة التي تقول:« إن السلطان ظل الله في الأرض» التي قالها ابن تيمية رغم جرأته التي أوصلته إلى السجن حتى مات فيه. والتي تبرأ منها الشريعة. وكان يرى طاعة الإمام الجائر لأن ضررها أقل بما لا يقارن من أضرار العصيان «فستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان» (السياسة الشرعية/ 185). وكما يقول «إن المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف، وإن كان فيهم ظلم لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة، فيدفع أعظم الفسادين بالتزام الأدنى» (منهاج السنّة ج 2/ 87).

وموقفهم هذا انفردوا به دون سائر الفرق الإسلامية رغم وجود النصوص القاطعة. وكما يقول ابن القيم الجوزية في موقف المصطبر «فأما الضرورة والغلبة بالباطل ليس إلا الاصطبار والقيام بأضعف مراتب الإنكار» (أعلام الموقعين ج3/ 4).

قضية الإصلاح عند السلفية المعاصرة:

إن السلفية بدعوتها إلى الرجوع إلى النصوص الشرعية وإلى السلف الصالح تميزت بكونها حركة إصلاحية تهدف إلى الخروج من التخلف الفكري والانحطاط السياسي الذي كان من سماته البارزة انقضاض الاستعمار على الدول الإسلامية. وقد نادت السلفية بالإحياء الذي أخذ عندها السمات التالية:

1. تطهير الدين مما علق به من تحريف والرجوع به إلى نصاعته الأولى.
2. تأكيدها على أن الدين مادة وروح، وأن عملية الإحياء تشمل الجانبين معاً.
3. محاولة الانطلاق من التراث مع الاستفادة من المناهج الغربية.



علال الفاسي — عبد الحميد بن باديس

4. إصلاح مؤسسات الدولة من خلال التأكيد على مبادئ الحرية والعدل والمساواة والشورى الإسلامية بالاستفادة من مناهج الغرب في التدبير السياسي.

ولتحقيق التطهير الديني شنت السلفية حملة على الطرق الصوفية ووصفتها بثلاثة أوصاف: الجمود، البدعة، وموالاة الاستعمار. وقد تشكلت اتجاه هذه المظاهر الثلاثة، ثلاثة أصناف من السلفية: السلفية المبدعة، والسلفية النهضوية، والسلفية الوطنية. وهي وإن اشتركت جميعها في الهجوم على التصوف، فقد اختصت كل منها بجانب معين لانتقاد الصوفية.

وهكذا جندت السلفية المبدعة، التي ظهرت في القرن الثامن عشر، كل طاقاتها لمحاربة كل مظاهر التصوف فمنعت مجالس الصوفية ومواسمهم وهدمت أضرحتهم وزواياهم، بل لقد سعى بعض الغلاة إلى هدم قبور الصحابة. وكان سلاح هذه السلفية هو التبديع.

أما السلفية النهضوية التي ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر على يد الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا، فقد اتهمت الصوفية بالتخلف والجمود، وكان سلاحها هو نعت تجميد الأمة.

وأما السلفية الوطنية، فقد ظهرت هذه الحركة في مطلع القرن العشرين بالشمال الإفريقي وكان من أقطابها عبد الحميد بن باديس وعلال الفاسي وغيرهما، فزيادة على أنها استلهمت من السلفيتين السابقتين تبديع الصوفية وتحميلهم جمود الأمة، فقد زادت على ذلك بأن اتهمت هذه الطرق الصوفية بموالاة الاستعمار ومعاكسة قوى التحرر والانعتاق. وهي

بذلك وصلت الذروة في المواجهة مع التيار الصوفي الذي كان ينتظم المجتمعات الإسلامية لقرون خلت.

والواقع أن التصوف هو الآخر كان يعاني من أزمة وقتية شأنه شأن سائر المجتمع، ولم يكن بأية حال مسؤولا عن تردي تلك الأوضاع بصفة مباشرة، بل هو طرف فيها كسائر الأطراف. ولم تكن تلك، بالمرحلة اللامعة في تاريخ التصوف، بل كان يمر حينها في ما كان يعرف بطور «التبرك». وهو الدرك الأخير في السلوك الصوفي. إذ يأتي في المرتبة الأولى الترقية ثم التربية وأخيراً التبرك. فهذا الأخير يكون عندما تتقلص الوظائف الحقيقية للطرق الصوفية نزولاً من وظيفة الترقية والتزكية مروراً بالتربية ووصولاً في الأخير إلى التبرك، الذي هو أدنى تلك الأطوار وأقلها شأناً، ولا يظهر إلا في غياب الأستاذ المرقي والمربي، فتصبح الزوايا عبارة عن أمكنة للتبرك، وهي مرحلة جمود قطعاً لأن الأتباع وقتها يسعون إلى تطبيق التوجيهات والمحافظة عليها من غير تفاعل مع الوقت. ولا شك أن البدعة قد تتسرب إلى هذه الطرق الصوفية في مرحلة التبرك لغياب الشيخ المربي، وقد تنحرف عن مسارها الذي وضع لها بحب تغلب الدنيا على نفوس الأتباع وقصد الرئاسة وطلب التقدم. وكلها آفات مهلكة نبه عليها شيوخ التصوف.

وأمام هذه الأوضاع، وبإدراك السلفية لقوة الصوفية في تأطير المجتمعات الإسلامية وتنظيمها، سعت بكل ما أوتيت من قوة إلى تبديعها وتخوينها لأن التنظيم الجديد الذي تقدمه للمجتمع عبر نظام الأحزاب غريب عن المجتمعات الإسلامية. وهو تنظيم غربي صرف ولا يستقيم مع شكل التنظيم الذي كان معروفا في الزوايا.

ولا شك أن نظام الاتهام الذي اتبعته السلفية بألوانها المختلفة ضد الصوفية فيه كثير من الغلو ومجانبة الصواب، لأن كل مذهب أو عقيدة كيفما كانت تخضع لقانون التطور الزماني والمكاني والشخصي فيطرأ عليها التحويل والتغيير، وهو الذي يفسر ظهور البدعة. ونفس الشيء نقوله عن تهمة الجمود، وهي أمر يعرض أيضاً لكل مذهب بعد أن يستهلك إمكانات نموه من طور الاجتهاد والتجديد إلى طور الجمود والتقليد. أما عن تهمة الموالاة للاستعمار، فيفسر انطلاقاً من تغلب مذهب على آخر. ففي حدة المواجهة تسقط التهم بسهولة وتوجه للتيار المغلوب أشنع الأوصاف.

نظام الاتهام الذي اتبعته السلفية بألوانها المختلفة ضد الصوفية فيه كثير من الغلو ومجانبة الصواب

ولو أن بعض رجال السلفية المعاصرين نظروا بعين التوازن والموضوعية لما سحبوا تهمهم هذه على كل الصوفية، بل لميزوا بين المبتدعين منهم والمجددين، كما فعل أسلافهم من السلفية حينما انتقدوا المتصوفة في عصورهم وميزوا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان على حد عبارة ابن تيمية. ولكن انخراطهم في الصراع حجبهم عن النزاهة والموضوعية.

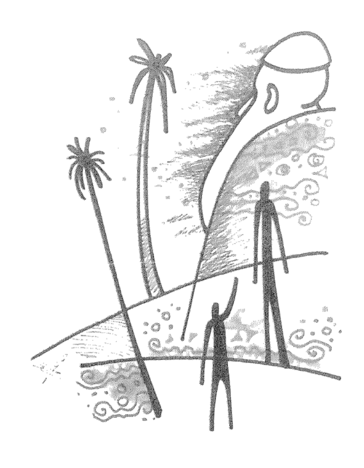
والحقيقة أن لب الصراع بين الطرفين يكمن في تصارع بنيتين تنظيميتين مختلفتين للمجتمع: البنية الصوفية التقليدية داخل الزوايا، والحركات الوطنية داخل الأحزاب الطارئة على المجتمعات الإسلامية. ولقد كانت المواجهة هي السبب الرئيس في هذه التهم الرخيصة البعيدة عن الحق والموضوعية، إذ أن شيوخ التصوف الكبار، كانوا من أكبر المجددين في أزمنتهم، كالجنيد والغزالي والعز بن عبد السلام والسيوطي وغيرهم، وكثير من الصوفية كانوا في طليعة المجاهدين أثناء الحروب الصليبية كمولاي عبد السلام بن مشيش وأبي الحسن الشاذلي وأتباعه وغيرهما، ونفس الأمر يقال على صوفية

العصر الحديث كالأمير عبد القادر الجزائري الدرقاوي والشيخ سيدي أحمد التجاني وأبنائه من بعده، واللائحة طويلة.

بعد أن استتب الأمر للحركات السلفية عاد بعض كبار رموز السلفية عن معاداتهم للطرق الصوفية معترفين بدورها التربوي والاجتماعي والديني، عندما عاينوا النتائج الوخيمة لتراجع السلوك الصوفي والانحلال الخلقي.

وإذا كانت السلفية قد قامت بمناهضة التصوف ووسمته بالأوصاف الثلاث التي ذكرنا من تبديع وجمود وموالاة للاستعمار، فإن السلفية هي الأخرى سقطت في ألوان من البدعة تطغى فيها أعمال الجوارح على أعمال القلوب. وتصبح الممارسة الدينية عند البعض نوعاً من المظاهر الشكلية والصور (الكاريكاتورية) البعيدة عن أصالة الشعور الديني الصحيح.

ولعل تمجيد السلفية للعقل والنص معا يحمل في طياته كثيراً من الآفات التي سنعرض لبعضها. إن الدعوة التي يتبناها السلفي باستقلال العقل بالمعرفة والوصول إلى النصوص بإلغاء التراكمات الفكرية لأجيال من القراء للنصوص، غير صحيحة. والسلفي يعتقد أنه يمكن أن يستقل باستخراج المعاني من النصوص بعقله المجرد، بحجب كل التجربة التاريخية وإسهامات كل أجيال الأمة في تشكيل قراءة النصوص وفهمها. وفي نظر السلفي، أن الاكتفاء بمعرفة قواعد اللسان العربي وأعراف العرب في الخطاب واصطحاب أقوال السلف لذلك، كلها أمور كافية لاستخراج مضامين النصوص. وهذه الدعوى تكذبها أبسط القواعد العلمية، لأن طبيعة الخطاب اللغوي تقتضي أن النصوص تحمل عناصر ذاتية وغير ذاتية تشكلت عبر تجارب القراءة المختلفة في مختلف العصور وفي أمكنة مختلفة. فلا يمكن الوصول إلى النصوص المؤسسة إلا عبر إدماج هذا التاريخ في الحسبان. وبعبارة أخرى إن فهم النصوص المؤسسة تساهم فيه الأجيال المعاصرة



لهذه النصوص والأجيال اللاحقة عليه لأن النص لا يعطيك نفسه في عصره فقط بل إن فهمه غالبا ما يكون لاحقا على عصر صدوره أو ظهوره. ويكفي للدلالة على هذا الأمر تبلور كل العلوم الإسلامية بعد عدة قرون من نزول القرآن وتكلم النبي بالحديث.

خاتمة :

لقد رأينا منذ البداية أن مفهوم السلفية مفهوم متضارب متنازع بحسب المنتسبين لهم وبحسب رؤية خصومه لهم. ومما زاد هذا الغموض شدة اختلاطه تحت تأثير الترجمة بمفاهيم مستوردة. فقد شاع في الفكر العربي المعاصر ولغة الإعلام لفظة الأصولية كمرادف للسلفية. وهذا المفهوم هو ترجمة لمفهوم

غربي ظهر في القرن العشرين عند البروتستانت. يؤكد على عصمة الكتاب المقدس من أي خطأ في العقيدة والأخلاق والأخبار التاريخية والغيبية كقصة الخلق وعودة المسيح وحشر الأجساد. وتتميز الأصولية البروتستانتية بـ:

- تنزيه الإنجيل عن احتمال تسرب أي تحريف أو خطأ إليه.
- فهم الإنجيل ظاهريا دون الحاجة إلى تأويله.
- رفض الفكر الغربي الحديث وخاصة التصورات العلمانية منه.
- المغالاة والتشدد في التدين، واعتبار من لا يوافقهم من النصارى كفارا، والسعي الحثيث إلى التبليغ والتبشير.

وبهذه الأفكار أضحت الأصولية عند الغربيين مرادفا للتزمت والتخلف والانغلاق والجمود والسعي إلى فرض رأيهم بالقوة.

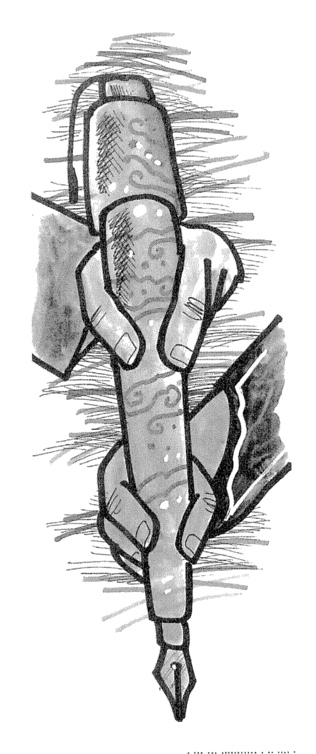
وبعد أن اتسع الخرق على الراقع في عصرنا الحاضر وظهرت تيارات متعددة في البلدان الإسلامية بين سلفية وعلمانية وقومية وغير ذلك، بدأت الفرقة العلمانية المتغربة ومعها الفكر الاستعماري الغربي توجيه التهم إلى التيار السلفي المحافظ، وحولت نفس نظام الدفاع الذي سلكه الغربيون اتجاه غلاة البروتستانت، فنعتوهم بالأصولية. وهكذا بدأت تظهر مثل هذه المرادفات في لغة الإعلام والفكر. وهي من نوع الإسقاطات الخطيرة، لأن للأصولية عند المسلمين مكانة عظيمة من الاحترام. فالأصوليون هم من يشتغل في ميدان أصول الفقه، وهو نوع من المنطق الذي طوره علماء المسلمين لوفهم النص الديني بالوسائل العقلية الدقيقة.كما نعتت حركات أخرى بالسلفية والأصولية مع أنها لا تتبع المنهج السلفي كما أسلفنا ذكره. فحركة «طالبان» مثلاً ليست «سلفية» لأنها «حنفية» في الفروع، «ما تريدية» في الأصول. والسلفية ليست كذلك. فهم عموماً من الحنابلة ويناوئون علماء الكلام من أشعرية ومعتزلة وماتريدية وغيرهم. ولكن فوضى المفاهيم التي نعيشها اليوم قد خلطت الأوراق. ونفس الشيء يمكن أن يقال عن هذا المفهوم الضبابي الآخر: إسلامي أو إسلاميون، فعند علماء الأمة والمؤرخين كان يعني هذا المفهوم أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام على مضض، ولسنا متأكدين من إيمانهم. وخاصة ما كان ينعت به يهود الأندلس، يقول ابن صاحب الصلاة عن الموحدين في سنوات 557هـ.، في كتاب المن بالإمامة: «الخبر عن غدر إبراهيم بن همشك مدينة غرناطة بمداخلة الغوي ابن دهري مع اليهود الإسلاميين الساكنين بها الذين أسلموا على كره... وداخل من فيها من اليهود الإسلاميين مع حليفهم المعروف بابن دهري الفاسق المنافق...» (ص. 123، 124). واليوم يطلق هذا النعت، إسلاميون، ويراد به أتباع الحركات الإسلامية السياسية في العالم الإسلامي. لهذا كان من اللازم أن نشدد على أصول وعقيدة السلفية لنتبينها من غيرها. ومهما يكن من أمر، فإن سلفية هذا الزمان متخلفة بشكل كبير عن أئمة السلفية وأعلامها. وقد وصلت في نموها إلى هذه الحركات التي تدعي انتسابها إلى السلفية مع ما تفعله في الأمة من تخريب وإرهاب لا يقره دين ولا قانون وضعي. نسأل الله أن تكون سحابة صيف لا تلبث أن تزول وأن الحاجة الآن إلى تماسك الأمة وتضافر جميع أبنائها وعدم تغييب بعضهم للبعض الآخر، لأن الاختراق الغربي للمسلمين وحضارتهم قد وصل إلى حد تكييف الفكر والذوق والوجدان والسلوك. إن الأمة محتاجة لكل ألوان الطيف فيها حتى تساهم في بناء الإنسان والإنسانية وفق تعاليم الإسلام الخالدة. والله الموفق للصواب.

السلفية مفهوم متضارب متنازع بحسب المنتسبين لهم وبحسب رؤية خصومه لهم



فوضى المصطلحات ودلالات المعنى

محمد خروب*



تبدو الحاجة ماسة، إلى تحديد معاني وبنى المصطلحات، والتسميات والمفردات المتداولة الآن (ومنذ فترة أيضًا)، التي تحفل بها المقالات والخطب السياسية والتحليلات، التي تظهر بين الحين والآخر، وخصوصًا بعد أن بات كمٌّ هائل منها في نظر كثيرين -حتى من بين العرب والمسلمين، كُتَّابًا ومفكرين وإعلاميين، وحتى من الجمهور العادي- من المسلّمات التي يتم تداولها والقبول بها بدون تمحيص، أحيانًا عن جهل، ودائمًا «بحكم العادة»، بعد أن تكررت على مسامعنا ولم يعد بمقدورنا، في زمن الانحطاط الشامل الذي نعيشه عربًا ومسلمين، أن ندقق فيها أو نغربلها أو نتوفر على المعنى المحدد للمصطلح أو الوصف، الذي لم يأت - للأسف - نتيجة دراسة موضوعية، أو نتاج حوار ثقافي وفكري وأكاديمي مفتوح، توافق عليه المتحاورون، أو في أسوأ الظروف، لم ينجحوا في إيجاد بديل له، ولعل أكثر ما يحضر الآن، في المشهد العربي والإسلامي الراهن، المضطرب والمشوه، هو مفردة الإرهاب، التي استطاع «غيرنا» أن يسوِّقها ويروج لها عبر العالم أجمع، وكنا نحن في مقدمة من ابتلع هذا الطّعم، وراح كثيرون منّا بوعي أو في غير وعي، أقرب إلى التواطئ، بل هو التواطؤ بعينه، يرددها بـ«عادية» لافتة، تدعو للغضب والاشمئزاز في الآن عينه..

* كاتب / الأردن.

لا يقتصر الأمر على مفردة «الإرهاب»، التي باتت بديلاً «موضوعيًا» لمعنى «المقاومة»، والتي هي أسمى وأنبل، في معناها الإجرائي واللغوي، من عمل إجرامي دموي، كالإرهاب الأعمى الذي يضرب هنا وهناك، في إطار خطاب تضليلي خبيث، يلتقي في أهدافه ومراميه مع تلك الدوائر والجهات، التي عممت مفردة «الإرهاب»، حتى نجحت في عولمتها، وإن كان أصحابها لم ينجحوا (أقله حتى الآن) في انتزاع «اعتراف» شعوب المعمورة، بدقة وصحة ومشروعية مصطلحهم هذا.

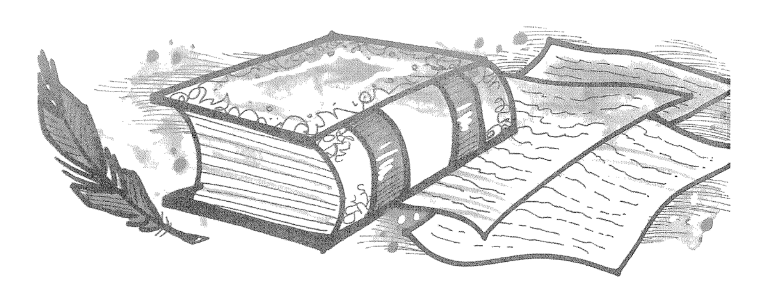
لا نروم من وراء هذه المقدمة الزعم، بأن كل ما يجري في العالم من أحداث عنف وقتل وسفك دماء، وترويع وتفجيرات وسيارات مفخخة، هو عمل مقاوم، بل أردنا من ذلك «توظيف» هذه المقاربة، للولوج إلى التسميات والمصطلحات والتصنيفات، التي تكثر الدوائر الغربية تحديدًا، من مراكز دراسات وأبحاث ومؤسسات إعلامية وسياسية، وحتى دينية وحزبية، إطلاقها على تيارات الإسلام السياسي أو الحركات الإسلامية والأحزاب ذات التوجهات الإسلامية، في مسعى واضح لتعميم هذه التصنيفات وفرضها عند التعاطي مع تلك الأطراف والجماعات الإسلامية.

نحن إذن أمام مقاربة تريد الإضاءة على المصطلح أو التصنيف، ولا تتوخى الوقوف عند تأييده أو تفنيده، بل التعاطي مع الحالة الراهنة، من منظور دلالات المعنى والمصطلح، ولعل أكثر ما يبرز هنا، هو مصطلح «التطرف الإسلامي» الذي يقابله الآن تحديدًا، مصطلح آخر، هو: «الاعتدال الإسلامي» أو لنقل في وصف آخر، متطرفون إسلاميون، يجري تجريمهم ونعتهم بأوصاف عديدة، تذهب بعيدًا في إبرازهم، كمنتج للدين الإسلامي الحنيف... بما هو في نظر أولئك، دين يحض على العنف والكراهية، وتمجيد القتل ورفض الاعتراف بالآخر أو الحوار معه، مقابل تيار يطلقون عليه، «تيار الاعتدال»، الذي يجري توظيفه لأهداف سياسية واضحة، وإن تم بلبوس ديني، وتحميله خطابًا آخر، يدعو إل نبذ العنف وإدانة الإرهاب، والدعوة الصريحة إلى الحوار (وهنا يراد إخضاع الحوار لأهداف سياسية واضحة، بعناوين ومقاربات وحيثيات تغرف من قضايا الصراع وبؤر التوتر، والحرائق المشتعلة في داخل المنطقة العربية، وعلى تخومها)..

كيف يرى غير المسلمين (الصراع) مع العالم الإسلامي؟

ولعل أكثر ما يمكن التوقف عنده والإضاءة عليه، بهدف استجلاء المسألة، هو الدراسة التي صدرت عن مؤسسة «راند» الأمريكية، قبل ثلاث سنوات (2004م) صنفت فيها الإسلام السياسي، إلى أشكال متعددة، كان أهمها «الإسلام المعتدل» ثم أتبعتها هذا العام، بدراسة أخرى «شاملة» حول بناء شبكات من المسلمين المعتدلين في العالم الإسلامي.

وإذ يجب التنويه هنا بالفرضية الأساسية، التي انطلقت منها الدراسة المشار إليها، والتي وردت في العدد 103، من تقرير واشنطن، بتاريخ نيسان» 2007م، وهي: أن الصراع مع العالم الإسلامي، هو بالأساس «صراع أفكار» وأن التحدي الرئيسي الذي يواجه الغرب، يكمن في ما إذا كان العالم الإسلامي، سوف يقف في مواجهة المد الجهادي الأصولي (كما يصفونه)، أم أنه سيقع ضحية للعنف وعدم التسامح، فإنه من الضروري الإشارة هنا إلى «مجموعة الأسئلة» التي تطرحها الدراسة، كي يتم بموجبها «اختيار» مدى اعتدال أي جماعة إسلامية من عدمه، نوردها هنا لتعميم الفائدة، والتأمل في المعايير والمقاييس، التي تعتمدها الدوائر الغربية، في تعاملها مع جماعات وحركات الإسلام السياسي كافة:



- هل الجماعة تتساهل مع العنف أو تمارسه؟ وإذا لم تكن تتساهل معه، فهل مارسته في الماضي؟.
- هل الجماعة تؤيد الديمقراطية، باعتبارها حق من حقوق الإنسان؟.
- هل تحترم الجماعة، كافة القوانين والتشريعات الدولية لحماية حقوق الإنسان ؟.
- هل لديها أية استثناءات، في احترام حقوق الإنسان (مثل الحرية الدينية على سبيل المثال)؟.
- هل تؤمن بأن تغيير الديانة أحد حقوق الإنسان؟.
- هل تؤمن بضرورة أن تطبق الدولة قانونًا جنائيًا (الحدود)، يتطابق مع الشريعة الإسلامية؟.
- هل تؤمن بضرورة أن تفرض الدولة قانونًا مدنيًا متلائمًا مع الشريعة؟ وهل تؤمن بحق الآخر في عدم الاحتكام لمثل هذا القانون، والرغبة في العيش في كنف قانون علماني؟..
- هل تؤمن بضرورة أن تحصل الأقليات الدينية على نفس حقول الأغلبية.
- هل تؤمن بحق الأقليات في بناء دُور العبادة الخاصة بها في البلدان الإسلامية؟.
- هل تؤمن بأن يقوم النظام القانوني على مبادئ غير دينية؟.

نحن إذًا أمام فرضيات، تكاد أن تتحول في اللحظة التالية، إلى أحكام في نظر تلك الدوائر والمؤسسات ومراكز الأبحاث، يتم بموجبها وضع التصنيف النهائي لهذه الحركة أو الجماعة، في ذلك الجانب، أو ذاك الذي بات مفروزًا، على قاعدة محور الشر ومحور الخير، أو في اصطلاح أكثر حداثة، تم نحته بعد الحادي عشر من سبتمبر «أيلول» 2001م، من لم يكن معنا فهو بالضرورة مع الإرهاب»..

في السياق ذاته، وضمن المنظومة الفكرية والقيمية ذاتها، سادت في فترة لاحقة مصطلحات وتصنيفات، وجدت قبولاً في عديد من المجتمعات والدول الغربية، وباتت مستخدمة على نطاق واسع، في الدراسات السياسية والفكرية والاجتماعية، وحتى الأكاديمية والمعرفية مثل:

❖ **الإسلاموفوبيا:**

وهو تعبير كما هو واضح، تمت استعارته من علم

النفس والاضطرابات النفسية، التي تلحق بالمصاب بالخوف المرضي، من شيء ما «ظاهرة الرهاب» وهنا تم نحت اصطلاح الإسلاموفوبيا، ليطلق على المصابين بالخوف المرضي من الإسلام، وباتت الآن ظاهرة واضحة في علاقة الغرب بالإسلام، أو العكس، لتعزز من تكريسها هذه الصراعات المحتدمة، في أكثر من ساحة «إسلامية» في العالم، دون أن نهمل ما يحمله المصطلح من إحالة، بأن المصاب بالرهاب قد لا يتعرض بالفعل إلى تهديد جدي وحقيقي، وإنما يعكس حقيقة وجود اضطرابات نفسية وإدراكية داخلية.

❖ الأصولية:

وهنا أيضًا، يأتي الجدل حول هذا المصطلح، الذي يرى كثيرون أنه «اختراع» غربي لتشويه صورة الإسلام، واتهامه بأنه دين يدعو إلى التعصب، ويحض على العنف والإرهاب، ضد الآخر غير المسلم، بل أن هناك من يقول إن مجرد اتهام المسلمين بالأصولية، إنما يراد منه تعميم الاتهام لكل المسلمين، باضطهاد الأديان الأخرى، والتمييز ضد المرأة، ومعاداة الحضارة الغربية، والتشدد ورفض الحوار معها، إلا بالسيف، ويذهبون بعيدًا في الغرب، إلى حد الاستشهاد بالنصوص القرآنية، التي تدعو إلى الجهاد، ونظرية دار السلام ودار الحرب، بهدف تبرير اعتداءاتهم على الإسلام.

❖ الإسلام السياسي:

وهو مصطلح استخدم لتوصيف حركات سياسية، تؤمن بالإسلام، باعتباره نهج حياة، ما لبث مفكرون وعلماء في الغرب، أن راحوا يحدثون فيه تقسيمات، استقر على أن هناك حركات إسلام سياسي معتدلة، وأخرى متطرفة، حيث الأخيرة (حركات الإسلام السياسي المتطرفة) هي تلك التي تؤمن بأن الإسلام، ليس «دينًا» فقط، وإنما هو نظام سياسي واجتماعي واقتصادي وقانوني، يصلح لبناء مؤسسات الدولة.

يمكن القول في النهاية، إنه وفي ظل فوضى المصطلحات، وخبث الأهداف، التي يسعى مطلقو هذه الأوصاف إلى تحقيقها، يصعب حصر معنى مصطلح واحد، لأنها تبدو متداخلة يغلب عليها التعميم والخلط، وهو هنا ليس عفويًا، بل مقصودًا، حيث من السهولة بمكان، نقل مجموعة أو حركة ما، من خانة الإسلام المعتدل، إلى المتطرف أو العكس، إذا ما تعارضت الأهداف السياسية، أو أُريد بها أن تخدم هدفًا سياسيًا أو استراتيجيًا، لهذه الدولة الغربية أو تلك، دون أن نهمل للحظة، أن هناك في بلاد العرب والمسلمين، من أعطى الذريعة والمبرر للدوائر الغربية، وما تحفل به مؤسساتها من إمكانات وقدرات، كي تمارس حروبها القذرة على بلداننا وشعوبنا، لأنهم يرتكبون من الجرائم والخطايا، ما لا يقبله منطق أو عقل أو دين، فما بالك بالدين الإسلامي الحنيف، الذي يحض على المحبة والبناء والانفتاح، والحوار وإعلاء شأن الإنسان حياة وقيمة، وعدم قتل النفس التي حرم الله إلاّ بالحق، وتحديد الحق هنا، ليس من مسؤولية جماعة أو حزب أو حركة أو تنظيم، يدعي أن له الحق في تنفيذ القانون بيده، أو احتكار الإسلام أو الزعم بامتلاك الحقيقة، بل هو من واجب المؤسسات الدستورية المختارة أو المنتخبة، التي تحظى بدعم أغلبية الناس، في مجتمع يسوده القانون والعدل، وتنعم فيه مؤسسات المجتمع المدني بالحرية، ينبذ العنف ويعترف بتداول السلطة على نحو سلمي.

فرضيات تكاد أن تتحول إلى أحكام في نظر الدوائر والمؤسسات ومراكز الأبحاث

تفسير أم إخبار؟

الحقائق الدينية والتغطية الإعلامية

أ. د. محمود مصطفى أيوب *

منذ زمان سحيق وحتى عهد قريب، ظلت الحقائق الدينية تنقل شفاهة، بواسطة الأنبياء والحكماء وأتباعهم، من عقلاء القوم وأتقيائهم. في ذلك الوقت كانت حقائق الدين بمثابة أمانات شخصية، تتطلب من حماتها وناقليها، الإيمان والتقوى والأمانة، وعند كتابة هذه الحقائق في الكتب المقدسة والأسفار، لم يكن ذلك إلا لحفظها من الضياع والتحوير، بعد وفاة حماتها الأصليين، أو خوفًا من خيانة الذاكرة البشرية، وحفظًا لهذه الحقائق أيضًا كمصدر هدى إلهي للأجيال القادمة، على أن العلاقة الشخصية بين هذه الحقائق الدينية، والأوصياء عليها، من ناقلين ومعلمين، تظل حتى يومنا هذا، شاهدًا حيًا على أصالة هذه المعتقدات، ومعناها في حياة المجتمعات البشرية.

والاعتقاد في عمومية الحقيقة الإلهية، وعدم تقيدها بزمان معين، مبدأ أساسي في الأديان السماوية: ـ الإسلام، والمسيحية، واليهودية ـ، حيث نجد في اليهودية، أن هذا المبدأ، معبّر عنه في الميثاق، بين الله والنبي نوح ـ عليه السلام ـ، نيابة عن البشر، وفي المسيحية نجد في العهد الجديد، أن مطلع الرسالة إلى العبرانيين، يؤكد أن الله كلّم البشر بطرق مختلفة، في أوقات شتى، ليذكرهم بهذا الميثاق، وفي الإسلام، نجد أن هذا المبدأ، يمثل الإطار العام للإيمان ونظرة الإسلام على العالم، وحسب ما ورد في القرآن الكريم، فإن الله قد أخذ عهدًا على البشر، منذ كانت البشرية في مبدئها (في عالم الذر)، أن الله وحده ربهم الأعلى، وأنه سيرسل لهم الأنبياء والرسل، لتذكرهم بهذه الحقيقة الأزلية والمطلقة. وفي «سورة الأعراف، الآية: 172» يخاطب الله تعالى كل بني آدم قائلاً:

﴿...أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [سورة الأعراف، الآية: 172]

فيجيبون

﴿...بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [سورة الأعراف، الآية: 172]

فيقول تعالى:

﴿...أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: 172]

ويحفظ الله عهده، بأن يرسل لكل الجماعات والمجتمعات رسلاً من بينهم، يحدثونهم بألسنتهم، ويذكرونهم أن يحفظوا عهدهم مع الله. وزيادة على ذلك، فإن الله قد وضع في نفس كل ابن آدم، قدرة

---

* أستاذ في جامعة تمبل ـ فيلادلفيا، بنسلفانيا/ الولايات المتحدة الأميركية.

داخلية لمعرفة خالقه. هذه المقدرة، هي الوضع الطبيعي للإيمان (الفطرة)، التي فطر الله الناس عليها. وهي دين الله الحق، الذي ارتضاه لبني البشر. وأمر كل إنسان أن يتبع هذا الإيمان الطبيعي. والخالص، إذ يقول:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم، الآية 30]

ويخاطب القرآن الكريم أهل الكتاب، على أساس مبدإ التوحيد وشمولية الحقيقة الدينية، أن يأتوا جميعًا إلى كلمة سواء،

﴿...أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [سورة آل عمران، الآية 64]

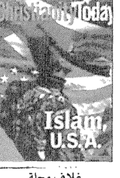
وفي آية أخرى، يأمر الله المسلمين، أن يكون حوارهم مع أهل الكتاب حول الإيمان، بالحسنى وعلى مبدإ تأكيد وحدانية المعبود،

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت، الآية: 46]

على أن الأمر في المجادلة بالحسنى، يستثني الذين ظلموا، ومفهوم الظلم في الإسلام، لا يعني الاضطهاد والجبروت فحسب، بل يشمل أيضًا اعتداء الإنسان على نفسه أو الآخرين، ويعني أيضًا العدوان على الحقائق، بالتشويه أو التحوير أو التلفيق، والظلم مرادف للكفر، من حيث إن الكفر ظلم في حق النفس، بقيادتها إلى الهلاك الأبدي، وظلم في حق الغير بتضليلهم، أو بالتجني على معتقداتهم بالتبديل أو التشويه.

ومن ناحية أخرى، فإنه وحتى وقت قريب، كان المسلمون والمسيحيون، يركزون حوارهم، على فهم الدين وتطبيقه في حياتهم، وليس في كنه الدين ذاته أو حقيقته، حيث كان حقيقة وجود الله وسلطته المطلقة، ورحمته لكل المخلوقات، قائمة ومثبتة بذاتها، ومستقلة عن كل نظام ديني أو لاهوتي، على أنه منذ عهد التنوير، وعصر العقلانية، من القرن الثامن عشر وحتى الآن، نلاحظ أن هذه الحقيقة، ما كانت موضع سؤال أو أنكرت، أو تجوهلت، باعتبارها خرافة لا علاقة لها بالواقع، ومن هذا الفهم نجد أن المعتقدات والحقائق الدينية، طالما نسبت إلى اهتمامات سياسية، أو إلى صور موهومة وعتيقة، ومع مجيء الإسلام، إلى مسرح التاريخ العالمي، نجد أن هذه الصور الخاطئة والمقلوبة، ظلت تلون وجهة نظر كل منًا، لمعتقدات الآخرين، ونظرتهم للعالم.

هذا الوضع غير الملائم، له أسباب كثيرة، وآثار مأسوية بعض هذه الأسباب، أثرت في الإسلام الديني، في الشرق والغرب على حد سواء، وشمل تأثيرها الديانات والمعتقدات الأخرى، ففي افتتاحية نشرت، في مجلة المسيحية اليوم عدد «يوليو» 1993 "Christianity Today" يندب الكاتب حقيقة أن وسائل الإعلام قد فشلت في تبيين أهمية الدين في أنفس متلقيها أو متتابعيها، ولذا جاءت تغطيتها للمواضيع الدينية من جهة تنافس الاهتمامات، وليس حقيقة الإيمان.



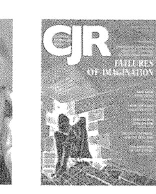
غلاف مجلة المسيحية اليوم

يمكننا أن نعد أسبابًا كثيرة لهذا الفشل، أولها وأوضحها هو، أولاً: أن الكثير من الصحفيين والمحررين، ليسوا متدينين في أنفسهم. وثانيًا: أن مبادئ العمل الصحفي، تتطلب معاملة الدين كأي موضوع آخر، يستحق التغطية الإعلامية، في أي الحالتين، فإن تجاهل المواضيع الأخلاقية، التي يرتبط بها النقاش، أو الخلاف في المواضيع الدينية، يمكن الإشارة إليه كسبب مباشر، في فشل التغطية الإعلامية للدين.

وفي مقال للكاتب الديني المعروف، بول ويلكز، في مجلة «Columbia Journalism Review» عدد «سبتمبر» / «اكتوبر» 1992م، نجده ينتقد بدوره ضعف التغطية الإعلامية في أمريكا، للمواضيع الدينية، وحسب رأي الكاتب، فإن رغبة المحررين في الظهور بمظهر الموضوعية، يؤدي بهم إلى معاملة المواضيع الدينية، مثلها مثل أي موضوع إخباري آخر، ولذا نجدهم يهتمون بالشخصيات الدينية اللامعة، والأحداث المثيرة، ويتجاهلون الأفكار الدينية الهامة، والحشود التي تجمع بين طوائف متعددة، ما لم تشارك فيها شخصيات أو منظمات عالمية. والحقيقة المؤسفة، أن كثيرًا من الشخصيات المهمة في الأمور الدينية، لا تتحدث للإعلام، إلا عن مضض.

هذه الممارسات الإعلامية ومثيلاتها، أثرت كذلك في التغطية الإعلامية، في ما بين الأديان، حيث نجد أن مجموعة من الافتراضات، قد طغت على التغطية الإعلامية، للمواضيع الإسلامية، منذ الحرب العالمية الثانية، والهيمنة أو الاستعمار المحدث الأمريكي والأوروبي، في فترة ما بعد الاستعمار الفعلي. هذه الافتراضات أصبحت تظلل لتناسب المناخ السياسي في العالم الإسلامي، حسب ما يراه الإعلام ويفسره، وأصبحت تستخدم لاستثارة العواطف تجاه مشكلة ما، أو حدث معين، أو لتبرير اعتداء غربي على بلد إسلامي، كما حدث خلال ما سُمي بحرب الخليج.

هذه الافتراضات، تنبني أساسًا على أن الإسلام والمسلمين، ظاهرة واحدة ومتناغمة، وعليه يمكن تعريفهم أو تصويرهم، بدون الحاجة للتمييز بينهم، على أساس ثقافي أو عرقي أو لغوي، وحتى حين استخدام هذه التمييزات بواسطة «الخبراء»، الذين يكتبون للإعلام، فإن هذه الفرضية الأساسية، تؤخذ باعتبارها من المسلمات، ومن أمثلة الاستخدام الأثيم لهذه المسلمات، ما ورد في مجلة «Foreign Affairs» عدد «يونيو» 1993م، فيما كان يفترض أن يكون بحثًا



غلاف مجلة Columbia Journalism Review

بول ويلكز

عالميًا يليق بمكانة كاتبه، صامويل هنتنغتون أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفارد، فقد كتب «هنتنغتون» في مقاله «صدام الحضارات»، أن الجولة القادمة من الصراع، لن تكون حول الثروة أو الموارد الطبيعية، وإنما ستكون صداماً بين الحضارات، ونزاعاً بين الغرب وبقية العالم.

في المقال يتصور الكاتب تحالفًا في المستقبل، بين الإسلام والكونفوشيوسية، أو بين العالم الإسلامي والصين ضد الغرب. وهنا نجد أن الكاتب علاوة على افتراضه، أن كل المسلمين شيء واحد، فإنه يفترض أن الإسلام غريب عن الغرب ـ أو ما يسميه التراث اليهودي المسيحي ـ ، غرابة الصين والتراث الصيني عن الغرب. وهنا نرى حقيقة أن تراث الأديان الثلاثة: اليهودية، والمسيحية، والإسلام، يكون جزءًا مهمًا من حضارات البحر الأبيض المتوسط، مبني على تراث نبي الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وفلسفة أرسطوطاليس، هذه الحقيقة التاريخية ليس لها أي اعتبار عند هنتنغتون.

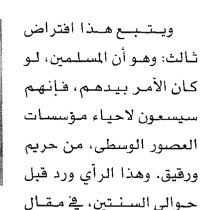
ووراء هذا المقال وكتابات أخرى من الدارسين المعروفين، ممن يستخدمهم الإعلام كمصدر معلومات ـ افتراضات أخرى كثيرة، على أن التعرض لها كلها، أو حتى لجزء منها، يسوقنا بعيدًا عن موضوعنا، وعليه سأتطرق للقليل منها، الذي له علاقة مباشرة، بموضوع مقالتنا هذه، وعلى أي حال، فإن هذا الموضوع برمته، قد بحثه باستفاضة، أدوارد سعيد، منذ حوالي

عقد من الزمان، في كتابه الذي لا يزال وثيق الصلة «تغطية الإسلام: كيف يتحكم الإعلام والخبراء، في نظرتنا لبقية العالم»

Covering Islam: How the Media and the Experts Determine How We See the Rest of the World (New York,1981)

أول هذه الافتراضات الخاطئة، التي سأتعرض لها، هو: أن الإسلام دين عنف، مبني على الجهاد، أو الحرب المقدسة. وفي الحقيقة فإن الجهاد أولاً وقبل كل شيء، نضال روحي وديني واجتماعي، يكون فيه حمل السلاح، هو الملاذ الأخير، ولا يلجأ إليه، إلاَّ للدفاع عن النفس، أو الدفاع عن المستضعفين في الأرض، وفوق ذلك، فإن الحروب التي وقعت في صدر الإسلام، كانت فتوحات ولم تكن جهاداً، بحسب رأي المؤرخين والفقهاء، على حد سواء، وهذه الحقيقة وللأسف، يجهلها الدارسون الغربيون، بل والكثير من المسلمين، وكمثال على الخلط المتعمد، في تأويل الجهاد، كحرب مقدسة، فإنه حين تغزو إسرائيل لبنان، وتقتل الآلاف من الأبرياء فإن ذلك مقبول، لأنها تفعل ذلك دفاعاً عن النفس - كما يدّعون - وحينما يقاوم اللبنانيون هذا الاحتلال، فإنهم يدانون ويوصفون بالإرهابيين، أعلنوا حرباً مقدسة على دولة غربية متحضرة وديمقراطية.

وثاني هذه الافتراضات: هي أن الإسلام ميراث بسيط وغير مصقول، من مخلفات العصور الوسطى، وهو في نظرهم، حالة من التقدم المكبوح، هذا بطبيعة الحال، يعني أن الغرب محق في هيمنته على المسلمين، حتى يتمكن من المحافظة على تطوره الاقتصادي والصناعي والتقني، بدون أن يعوق ذلك سعي بعض الناس لاستعادة كينونتهم، والتحكم في مصائرهم، ولأن المسلمين ما زالوا غير ناضجين، فيجب ألا يتحكموا في ثرواتهم وحياتهم الثقافية، والاجتماعية، والسياسية.


برنارد لويس

ويتبع هذا افتراض ثالث: وهو أن المسلمين، لو كان الأمر بيدهم، فإنهم سيسعون لاحياء مؤسسات العصور الوسطى، من حريم ورقيق. وهذا الرأي ورد قبل حوالي السنتين، في مقال كتبه الباحث المعروف، «برنارد لويس»، في مجلة وول ستريت Wall Street Journal.

والقائمة تطول وتصير أكثر احباطًا، مع كل تشكيل أو تظليل، على أن الأمل مازال موجودًا، في حقيقة أنه ما زال هناك الكثير من المسلمين والمسيحيين، وغيرهم من الملتزمين دينيًا، والذين يرغبون بصدق، في أن يشاركوا في حوار مثمر وبنّاء، وعلينا نحن المسلمين والمسيحيين في روح هذا الحوار، أن نتكاتف ضد أي تشويه، أو تحوير لديننا وكل مقدساتنا، وأن نرشّد الإعلام، ليتجنب البحث عن الإثارة، وما يعتقد الصحفيون أن الناس يودون سماعه، والاهتمام بدلاً عن ذلك بالحقيقة، ولو كانت مملة. فللمرة الأولى، في تاريخ غرب أوروبا، وأمريكا الشمالية، على الأقل، منذ سقوط غرناطة، في 1492م، فإن المسلمين واليهود والمسيحيين، وأهل الملل الأخرى، يعيشون متجاورين، ويتشاركون المدارس والمستشفيات وأماكن العمل، وحتى المدافن. على أنه وفوق كل شيء، فإننا نتشارك عالمًا واحدًا، يصغر كل يوم، بواسطة وسائل الاتصال والمواصلات، فدعنا نجعله مكانًا أفضل، لنعيش فيه نحن وأبناؤنا من بعدنا. هذا لا يمكن لنا أن نتوصل إليه، إلا ونحن متساوون، كأعضاء في الأسرة الإنسانية الواحدة، والقرآن يؤكد لنا هذا في قوله:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [سورة الحجرات، الآية: 13]

الإعلام الغربي..

مصطلحات تكرّس الإساءة للإسلام والمسلمين

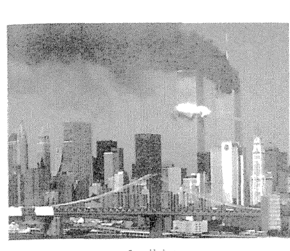


لقد جاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام 2001م الأمريكية، لتشعل نيران الحرب الإعلامية على العالم العربي والإسلامي، وتطلق روح العداء الكامن الذي كانت مظاهره موجودة، تشتد أو تخف حدّتها، حسب الظروف ونوعية الأحداث، ولكنها موجودة ومكرّسة في صلب الخطاب الإعلامي الغربي، كما تظهر في التغطيات الإخبارية، والمعالجات الصحفية والإعلامية، والأعمال المسرحية (الدرامية) التي تبثها الفضائيات المرئية وفي أشرطة الخيالة «السينما») وكانت في كلّ ممارساتها وشعاراتها، تنطلق من العداء الغربي القديم للإسلام والمسلمين، وتنتظر الفرصة السانحة لكي تعبّر عن نفسها، وتفرز ما في جعبتها من الأفكار والاتهامات والأقاويل.

* عميد كلية الآداب وأستاذ الصحافة/ جامعة البتراء/ الأردن.

ولعلّ الدراسات العلمية الموثّقة والرسائل الجامعية، التي بحثت في أشكال هذه الهجمة الإعلامية، قد عرّفتنا على أصول هذا العداء الغربي للإسلام، والعوامل التاريخية التي استند إليها، وتلك الصورة النمطيّة المقلوبة، التي قام الإعلام الغربي برسمها وتعميمها، مدفوعًا بأسباب ثأرية تاريخية، قامت بتغذيتها الحركة الصّهيونية، التي أرادت أن ينظر الغرب إلى العرب والمسلمين بعيون إسرائيلية، والتي كانت وما تزال ترى من مصلحتها، إلصاق صفات الإرهاب والهمجيّة والعدوانية، بالعرب والمسلمين، وذلك لصرف الأذهان عن الطبيعة الإرهابية للحركة الصهيونية، التي شكّل الغرب قاعدة حامية لها، في كلّ مخططاتها ومحاولاتها الاستيلاء على فلسطين، وإحكام السيطرة على العالم العربي ومقدّراته وموارده.

لقد قدم العديد من الباحثين والمفكرين العرب ـ المقيمين في الغرب، أو الدارسين في جامعاته، من المسلمين والمسيحيّين على حدّ سواء ـ دراسات معمّقة، بيّنوا فيها طبيعة النظرة الغربية التي تزدري العرب والمسلمين، في وسائل الإعلام الغربية، التي تتميز بالقوة وسعة الانتشار، والطبيعة الاحتكارية متمثلة في مؤسسات إعلامية ضخمة تستخدم الأموال الطائلة، وتمتلك العديد من الأصوات الإعلامية داخل المؤسّسة الواحدة، فيما يشبه الإمبراطوريات الإعلامية، التي تنوع مجالات عملها واستثماراتها، في الصحافة والإذاعة المرئية والمسموعة والخيالة «السينما»، وهي بهذه القوة التي تميّزها، تحكم الحصار على الرأي العام الغربي، الذي لا يستطيع الإفلات من تأثيرها، خاصةً إذا عرفنا أن هذا الرأي العام، لا يجد منافذ أخرى لاكتساب المعلومات، إلى جانب الدور المحكم الذي تقوم به جماعات الضغط (اللّوبيات الصهيونية) متحالفة مع الجماعات المسيحية المحافظة والمتشدّدة، التي قدّر لها أن تكون في



حدث 11 سبتمبر

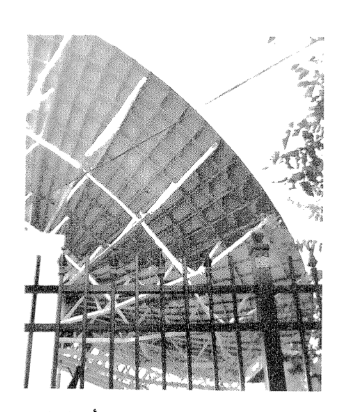
قمة صناعة القرار السياسي الأمريكي، في عهد الرئيس الحالي جورج بوش. إضافة إلى الغياب الإعلامي العربي والإسلامي، عن مواقع التأثير في الرأي العام الغربي، إمّا افتقارًا للإستراتيجيات الإعلامية العربية والإسلامية، أو عدم توفّر الإمكانيات التي تصنع إعلامًا عربيًا وإسلاميًا قادرًا على الوصول ونقل الحقائق إلى شرائح الرأي العام الغربي.

لقد وجد الإعلام الغربي، والأمريكي على وجه الخصوص، من أحداث الحادي عشر من سبتمبر، فرصته ليسنّ أسنانه، ويطلق لنفسه العنان، ويفتح قاموس العداء للعرب والمسلمين، نافخًا في أبواق الحرب الإعلامية، التي كانت مواكبة للحرب الفعلية، والاحتلال الفعلي لكل من العراق وأفغانستان، وقد جاءت منطلقات هذا الإعلام وشعاراته مبنية على أرضية الحرب على الإرهاب، ويقصد به الإرهاب العربي والإسلامي، دونما تفريق بين عربي ومسلم، أو تفريق بين التصرفات الفردية التي تعبّر عن جماعة أو تنظيم معيّن، وبين العرب والمسلمين كافة، فكل العرب والمسلمين في نظر الإعلام الغربي هم إرهابيون في نظر الغرب، وهم وراء المصائب التي تحدث للغرب، متناسيًا الإعلام الغربي، أن الإرهاب عدوّ الجميع، وأن الإسلام هو دين الرحمة والمحبة، وهو لا يقرّ العدوان والإرهاب، ولا يقر الانتحار، ولا يقر قتل النفس التي حرّم الله قتلها إلاّ بالحق، وأنّ هذه السياسات

الأمريكية والأوروبية المتحالفة معها، بما تنشره من الظلم، وما تمارسه من الاحتلال والقهر، إنما هي التي توجد البيئة الملائمة للإرهاب والتطرف، وهل يظن المحتل أنه سيتم استقباله بالورود، وهو يدمّر ويقتل، ويحرق الحاضر والمستقبل؛ أليس حقًا مشروعًا لكل من يخضع وطنه للاحتلال، وكرامته للإهانة، أن يقاوم هذا الاحتلال، أوليس هناك فرق واضح إذن بين المقاومة والإرهاب؟

لقد بدا من ممارسات الإعلام الغربي وشعاراته، أنه يجهل الإسلام أو يتجاهله، كدين إلهي سماوي، تقوم رسالته على الحرية والتسامح والتعايش ونبذ العنف، بينما يقوم هذا الإعلام، الذي يوظف نفسه في خدمة الآلة الحربية الإحتلاليّة، بإلصاق التهم بالإسلام كدين، وبالمسلمين جميعًا، وأصبحت صفة المسلم الرئيسة عنده تعني «الأصولية والإرهاب» وبدا وكأنه تسابق إعلامي أوروبي وأمريكي على نعت الإسلام بما ليس فيه، ونعت المسلمين بأبشع الصفات.. حيث يتم نعتهم، وسط عبارات التحامل والازدراء والاحتقار، بصفتهم متعصّبين منغلقين أغبياء، جامدين ومستبدين، عنصريين وقتلة، لا حقوق للإنسان عندهم، وهذا الدين الذي يعتنقونه يعادي الغرب، ويهدد حضارته بالفناء، وهو دين يتصف باللاعقلانية وسفك الدماء، ليس فيه أي وجه للديمقراطية وحرّية الرأي، ويتجاهل الحقوق المدنية للأفراد، وفي البلاد الإسلامية يتم قمع الأقليات غير المسلمة، ومن ذلك إدعاء الإجحاف بحقوق الأقباط المصريّين، كما يزعم الإعلام الغربي، علمًا بأن هناك نفيًا مستمرًا لذلك من بابا الأقباط، شنودة الثالث، والعالم الإسلامي، كما يردّد هذا الإعلام الغربي، أن الإسلام دين تعشّش فيه الخرافات، وهو دين يقوم على الأساطير.

وقد سمح الإعلام الغربي لنفسه، بالتطاول على النبي محمد ﷺ، الذي يزعم أنه لم يأت بحقيقة



جديدة في دينه كما يقول هذا الإعلام، وأن ما جاء به ليس أكثر من خرافات وحكايات مؤلّفة لا صلة لها بالسماء، بقدر ما هي ديانة محاربة، هدفها إشعال القتال ضد الآخرين، وقد تمادى هذا الإعلام الغربي في عداوته بما عبّرت عنه الرسوم الساخرة (الكاريكاتورية) التي تمارس التشنيع والإساءة للرسول الكريم ورسالته. وهو ما أثار العالم الإسلامي بأسره، والذي اعتبر مثل هذه الرسوم عدوانًا وقحًا مسّ قلوب المسلمين وضرب عقولهم وهزّ أقدس ما يمتلكونه من الوجدانيات والمشاعر.

ومن البدهي القول، إن هذه الممارسات المعادية، لم تنطلق من فراغ، بل هي تعبّر عن بيئة سياسية وفكرية معادية، وجدت لها مناخًا مواتيًا بعد أحداث 11 سبتمبر الأمريكية، وما رافقها، ونتج عنها من أعمال ومواقف وتصريحات للإدارة الحاكمة في واشنطن، ومن يتحالف معها ويبرّر سياساتها من سياسيّين ومفكرين وإعلاميين في الدوائر الأمريكية والأوروبية.

إن هذا المناخ المواتي للعداء، الذي كان للإعلام الأمريكي والغربي دور في صنعه وصياغته، أتاح للرئيس الأمريكي أن ينفث ما في صدره، فهو يتحدث عن حرب

صليبية جديدة، ويطلب اعتبار حديثه زلة لسان، وهو يتحدث عن إيحاء إلهي يحرّكه ضد الإرهاب، وعن الدول المارقة، والدول التي تشكّل محور الشر، وعن إمبراطورية إسلامية فاشية تمتدّ من إسبانيا إلى أندونيسيا.

وفي هذه الأجواء أيضاً، آتيح لغيره من القادة والساسة أن ينهجوا نهج الرئيس الأمريكي، وأن يدلوا بأقوال مشابهة، وكان من بينهم «بيرلسكوني» رئيس وزراء ايطاليا السابق، والنائب الأمريكي الجمهوري (توماس تانكريد) الذي تحدث عن إمكانية تدمير مكة نوويًا إذا تطلب الأمر!.

وهكذا أصبح الإسلام هو العدوّ الأكبر للغرب، بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ومعسكره الشيوعي، وهكذا سمح الغرب لنفسه أن يجنّد قواه الفكرية والإعلامية لمواجهة هذا العدوّ الإسلامي!

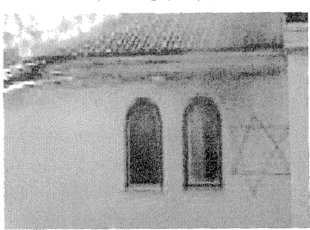
ففي العراق كانت ممارسات الجنود الأمريكيين المشينة ضد الأبرياء، والتعذيب المريع للمعتقلين في سجن «أبو غريب»، وفي قاعدة غوانتانامو كان تدنيس المصحف الشريف، على أيدي المحققين والضباط والجنود الأمريكيّين.

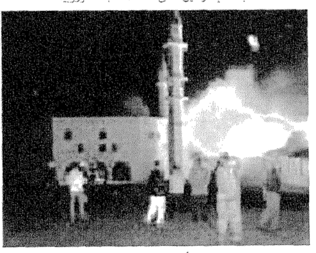
وفي الإعلام يشتدّ الخطاب المعادي لكل ما هو مسلم، وتشتدّ وتيرة استخدام الرسوم العنصرية ضد العرب والمسلمين، إضافة إلى ممارسات عدوانية كثيرة، منها على سبيل المثال:

- حرق عدد من المساجد في الولايات المتحدة الأمريكية.
- تخريب الساحات التي يصلي فيها المسلمون.
- رمي المخلفات الحيوانية على المساجد.
- الشعارات التي تدعو إلى قتل جميع المسلمين.
- الحرائق التي يتم إشعالها في متاجر المسلمين.
- الاعتداء على قبور المسلمين وتدنيسها.
- استخدام شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) للهجوم على الإسلام والمسلمين.

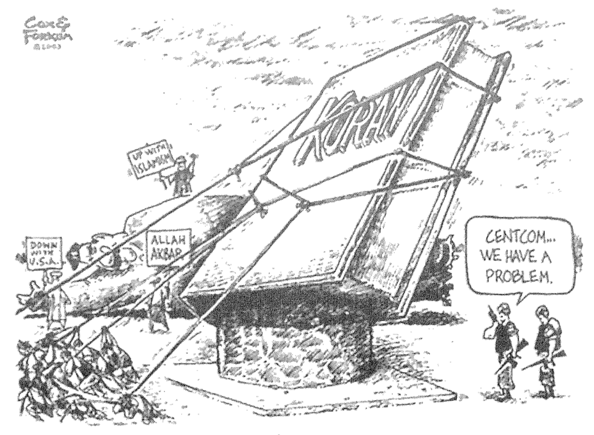


رسم ساخر من الفلسطينيين


نجمة «إسرائيل» على أحد المساجد الأوروبية


مسجد أوبسالا وعملية إحراقه


تدنيس المساجد في العراق



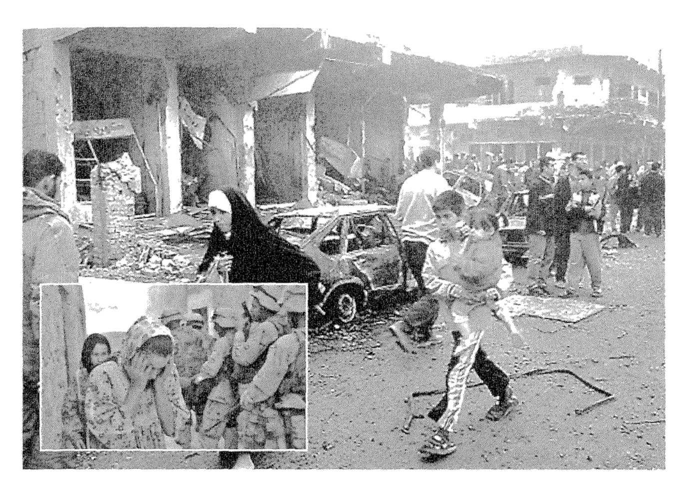
رسم يسخر من القرآن الكريم والمسلمين

وفي هذا الجو المحموم من العداء، بدا أن هناك تجاهلاً تامًا للدور الحضاري التاريخي الذي لعبه المسلمون وما قدّموه للحضارة الإنسانية، والحضارة الغربية الأوروبية على وجه الخصوص، من مساهمات علمية وفكرية، لا يمكن إنكارها، يوم كان المسلمون وحدهم صناعًا للعلم والحضارة في العالم.

وبدا أيضًا، أن هذه العقلية الغربية المعادية، غير قادرة على استيعاب الانتشار الكثيف للإسلام في العالم الغربي المعاصر، وحرص المسلمين الذين يعيشون في المجتمعات الغربية، على التمسّك بشعائر دينهم وبتقاليدهم التي تراعي مناهج الإسلام وفضائله، وأن هؤلاء الغربيين، الذين يلحّون في إعلامهم ومواثيقهم، على الحريّات الشخصيّة، والحريّات الدينية، إلا أنهم، فيما يتعلق بالإسلام والمسلمين، يقومون بالتدخّل والقمع والتضييق، وهو ما يعني ازدواجية المعايير، والتناقض بين القول والممارسة.

ويقوم الإعلام الغربي، لإضعاف الجاليات المسلمة، وزعزعة صفوفها، بنشر الشائعات و اختلاق وفبركة المزاعم، بأن هناك مخططات لإقامة الخلافة الإسلامية في بريطانيا، وكذلك إشعال فتيل الفتنة بين صفوف هذه الجاليات، فلا يتم الحديث عن الإسلام كدين واحد متكامل للمسلمين كافة، بل يتم التركيز على إيجاد صفات وتقسيمات لا حصر لها، كالحديث عن إسلام أوروبي، وإسلام بريطاني، وإسلام ليبرالي.... الخ.

وتقوم وسائل الإعلام الغربية، عند بثّ رسائلها الإخبارية، المتعلقة بالشؤون العربية والإسلامية، بربط الأخبار والأحداث بالانتماءات الطائفية والعرقية، سعيًا منها لتكريس الطائفية والمذهبية، وإظهار العالم العربي والإسلامي بأنه عالم ممزّق، هوياته متناقضة متحاربة، وذلك لفتح الأبواب للهيمنة الغربية والاستعمار الغربي.



من نتائج إحتلال العراق

ويركز الإعلام الغربي، الذي تغذيه وكالات الأنباء العالمية، التي تمتلكها الدول الغربية الكبرى والولايات المتحدة، فيما يتصل بأحداث العالم العربي والإسلامي، على الأخبار السلبية والكارثيّة، التي تتعلق بالفواجع والحروب الأهلية والعرقية، وكل ما يحمل معنى الإساءة، ويثير الخوف والرعب. وكأن هذا العالم العربي والإسلامي يختلف عن سائر العالم كله، الذي لا يخلو أي بلد فيه من الحوادث الأمنية، والجماعات الغاضبة، وأشكال البؤس التي تعيشها كثير من الفئات. وهذا التركيز الإعلامي الذي يعتبر المصدر الرئيسي لمعلومات الإنسان الغربي ومعارفه عن العرب والمسلمين، يقدم صورة للعرب والمسلمين لدى الغربيين تتسم بالخوف والبشاعة، وهي أبعد ما تكون عن الحقيقة.

وتحت مظلة الاحتلال الأمريكي للعراق وأفغانستان، يجد الإعلام الغربي نفسه غارقًا في العبارات والمصطلحات، التي لا سند لها من الواقع، وهو يتحدث عن «التحرير» و«الدمقرطة» بينما واقع الحال يشير إلى تكريس الاحتلال والقهر، وفتح أبواب جهنم للاقتتال الطائفي تحت سمع الاحتلال وبصره، الذي يطبق سياسة «فرق تسد» ويوجّه بوصلة العداء لتحصد أرواح الأشقاء بدلاً من مقارعة قوات الاحتلال.

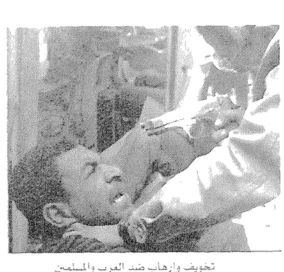
ويأتي الإعلام الغربي لنا بمصطلح «الشرق الأوسط الجديد» الذي يقصدون به تحويل الوطن العربي إلى دويلات طائفية ومذهبية متناحرة، تكون فيها السيادة والقوة لدولة اليهود، وذلك كلّه بالطبع، حماية للدولة الصهيونية، حتى لا تظل جسمًا غريبًا مصطنعًا داخل العالم العربي والإسلامي.

إن هذا الإعلام الغربي، الذي وجد ضالته في الهجوم على العرب والمسلمين، تحت شعارات ومصطلحات معدة سلفاً (مفبركة) ومضلّلة، لا يسمح

لنفسه بقبول الرأي الآخر، ويقوم بكل ما أوتي من آلة إعلامية، بقمع الأصوات التي تدعو إلى الاعتدال في النظر إلى العرب والمسلمين، وإلى النظرة المتوازنة تجاه التعايش بين الثقافات والحضارات. وتكاد هذه الأصوات لا تجد لها مكانًا وسط هذا الجحيم المعادي، علمًا بأن هناك اعترافات كثيرة معلنة، تؤكّد زيف الشعارات التي بنيت عليها الكثير من السياسات والقرارات، خصوصًا فيما يتصل بالحرب العدوانية على العراق.

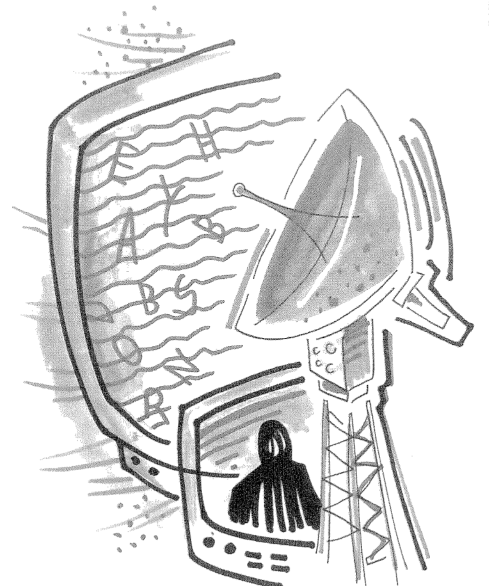
ولعلّ الحركة الصهيونية، والإعلام الذي تملكه، أو الذي يخضع لها، لا يرى مجالاً للرجوع عن الخطأ، وقد ولغ في الخطأ والادعاءات الجوفاء، ويصرّ على أن يبقى الغرب ومقدراته في أيدي الحركة الصهيونية ومنظماتها، التي يعرف الغربيون، أمريكيون وأوروبيون، سطوتها في حرق الشخصيات، وملاحقة المفكرين وابتزازهم، وعدم السماح لأي منهم بالاقتراب من الصهيونية وانتقاد مشاريعها ومخططاتها وأساطيرها، وذلك تحت شعار «معاداة السامية» والأمثلة على ذاك كثيرة لا مجال لذكرها!.

وبعد... فإننا في العالم العربي والإسلامي، شخصيات وهيئات، ووسائل إعلامية، مطالبون بالقيام ببث الرسائل الإعلامية النابضة بالحياة والقوة، الناشرة لحقائق الإسلام وأباطيل خصومه، الشارحة لأركان الإسلام وفضائله، باعتباره رسالة السماء إلى الناس كافة، مستفيدة من القدرات الهائلة التي تتميّز بها صناعة الإعلام المعاصرة التي تستطيع أن توظف تقنيات (تكنولوجيا) الاتصال المتطورة، ووسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية، وكذلك الصحافة الالكترونية، مستخدمة اللغات الأجنبية الحية، إلى جانب اللغة العربية، للوصول إلى سائر أنحاء المعمورة، ومخاطبة كل من يرغب في استقبال هذه الرسائل الإعلامية، لمعرفة هذا الدين وما قدّمه المسلمون عبر التاريخ، ومعرفة الظلم الذي يقع على


تخويف وإرهاب ضد العرب والمسلمين

مسلمي اليوم، من جانب القوى الصهيونية والاستعمارية العاتية، التي تلقب الحقائق، وتشوّه الصورة، وتجعل من الجلاّد ضحية، وتسميّ الاحتلال تحريرًا. وأن يكرّس هذا الإعلام العربي والإسلامي كل جهده، في عزل بعض التصرفات غير المسؤولة، التي تقترفها بعض العناصر أو التنظيمات باسم الإسلام، عن عالم الإسلام والمسلمين، وأن ينصّب جهد هذا الإعلام العربي والإسلامي على تكريس صيغ التعايش والحوار، وأن تتاح الفرصة للمفكرين العرب والمسلمين - الذين يعيشون في الدول الغربية - الإمكانيات التي تسمح لهم بقول الحقائق التي يحاول الإعلام الغربي طمسها، وصولاً إلى الرأي العام الغربي، الذي جعله إعلامه الغربي، وآلته الخطيرة، ضحية للافتراءات والتشويهات زمنًا طويلاً. وأن يكون لدينا الوعي بالإعلام وأهميته ودوره، لقطع الطريق على الدعاية الإعلامية الغربيّة، التي تقوم برسم أهدافها وخطوطها الرئيسة، الحركة الصهيونية وأذرعها الإعلامية، بهدف إخضاعنا ونهب ثرواتنا وتزييف الوعي عند شعوبنا، وكذلك الوعي بأهمية الإصلاح الداخلي، الذي يجب أن ينبع من بيئاتنا، ويراعي حقوق الأفراد والجماعات في بلداننا. وكذلك حرية الرأي والقول، في إطار التعدديّة الفكرية، بمنأى عن التدخلات الخارجية، «والنصائح» الأجنبية التي قادت دائمًا، إلى إشعال الفتن والحروب الداخلية.





الإعلام الإسلامي

بين إشكالية المتغيرات والحفاظ على الثوابت

نائلة محمد*

يعيش الإعلام الإسلامي، تحديات لم تواجهه طوال العقود الماضية، لما شابها من إشكاليات❖ وحوادث، غيرت صورة العالم الجديد؛ فقد أفرز الواقع الإسلامي والعالمي اليوم، مجموعة تحديات، تصادف الإعلام الإسلامي - ربما لأول مرة بهذا الشكل وبهذه الطريقة ..

* كاتبة / سورية.

❖ الاشكالية: من شكل وأشكل واستشكل الأمر، أي إلتبس واختلط على الفهم، فلا يُدرى المعنى الحقيقي له، أو هي قضية تعتمد في صدقها أو كذبها على قضية لم يبرهن على صحتها بعد. (التحرير)

طوال القرن المنصرم وسنوات القرن الجديد، كنا، ولم نزل نتعلل بالاستعمار، كسبب رئيسي لمعظم مشاكل العالم الإسلامي الإعلامية وغيرها، ولا يمكننا - بأي حال من الأحوال - أن نبرئ الاستعمار، من أسباب التخلف والجهل، وسوء استخدام الموارد التي يعش بها العالم الإسلامي، إلا أن الغريب في الأمر، أنه بالرغم من استقلال دول العالم الإسلامي، وخروجه تماماً، عن عباءة الاستعمار، ما يزال تأثيره واضحاً في عالمنا الإسلامي، إلا أن الصورة اختلفت عما كانت عليه في أواسط القرن العشرين، فقد أصبح عدد من حكومات ومؤسسات العالم الإسلامي، تساهم إلى حد كبير، في ممارسة ما كان يمارسه الاستعمار، سواء كان عن قصد أو عن غير قصد؛ فالإهمال والالتفات إلى قضايا ثانوية، جعلت من الآلة الإعلامية، آلة تصنع ما هو بعيد عن واقعها وماضيها ومستقبلها، ففي دراسة أعدتها مؤسسة إعلامية عربية - غير حكومية - ظهر فيها أن الإعلام الإسلامي، لا تشكل وسائله سوى 5٪ من مجموع الوسائل الإعلامية الأخرى، المقروءة أو المسموعة أو المرئية، وأظهرت تلك الدراسة، بالإضافة إلى ذلك، نسبة المتابعين له، مقارنة بعدد المتابعين لوسائل إعلام أخرى، إذ أن نسبة المتابعين له، تتباين من بلد لآخر، وهي تتراوح من 15٪ إلى 25٪. وعند البحث في أسباب تدني هذه النسب، نجد أن ثمة إشكاليات كثيرة، يعانيها الإعلام الإسلامي، جعلت الكثيرين ينؤون بأنفسهم عن متابعته، وعدم الاهتمام بما ينشره ويطرحه، وأهم هذه الأسباب: عدم محاكاة الواقع الذي يعيشه المسلمون، في مشارق الأرض ومغاربها، ومحاولة تلمس الواقع بشكل مغلوط، بالإضافة إلى أزمة الخوف من أن يتحول الإعلام الإسلامي إلى أداة، لما يسميه الغرب (الإرهاب الإسلامي)، وذلك دون أن ننسى أن عدداً من الوسائل الإعلامية الإسلامية، أصبحت أداة لتمرير خطط تدمير الإسلام من الداخل، بتغذية النعرات وإثارة مناقشات لا طائل منها، سوى تشتيت العقل المسلم، وإبعاده عن همومه الحقيقية.

عمدت وسائل إعلام مشبوهة، إلى تغذية النزعات المذهبية هنا وهناك وهذا كله استنزاف للمسلمين ومقدراتهم، على حساب بروز قوى أخرى وتكريسها

المتغيرات وإشكالية التعاطي معها:

لا ينكر أحد، أن السنوات العشر الأخيرة، شهدت متغيرات كثيرة على المسرح الدولي، بدأت بظهور بوادر الحرب على الإسلام، ومن ثم الحرب على عدد من دول العالم الإسلامي، والتضييق على المسلمين، باستهداف معتقداتهم وشعائرهم الدينية، وتشويه أفكارهم وثقافتهم؛ والحرب على الإسلام قديمة حديثة، باختلاف صورها وشعاراتها، فاستعمار العالم الإسلامي قديماً، كان تحت شعار المصالح، واليوم تحت شعار نشر الحرية والديمقراطية، فإلى أي مدى تواءم الإعلام الإسلامي، مع هذه الشعارات المتغيرة، الثابتة في المضمون؟؟

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م في أمريكا، أخذ الإعلام الإسلامي، يتراجع شيئاً فشيئاً، عن طرح قضاياه بشكل واقعي، وأصبح إعلاماً قلقاً، يتحاشى الدخول في صلب المشكلة، فعوض أن يطرح وجهة نظره، ظهر وكأنه بلا هُوية، والأحداث تلك لا تخصه من قريب أو من بعيد، بالرغم من أن المتهم الأول في تلك الأحداث، جماعة من المسلمين، فازداد الإعلام الغربي قوة، على حساب الإعلام الإسلامي، الذي بدا مستكيناً راضياً، بما يسوق عن الإسلام والمسلمين، من تشويهات، وحمى التشويه هذه، لم تنته ولن تنتهي، بل على العكس زادت، وذلك بسبب غياب الإعلام الإسلامي الناضج، الذي يواجه مثل تلك

الإشكاليات، دون خوف أو خجل؛ وفي ظل هذه المتغيرات، كان الإعلام الإسلامي سلبيًا، إلا بعض الوسائل الإعلامية، التي لا نستطيع القول إنها مارست هذه السلبية، بل وقفت بكل ما أوتيت من مقدرات ضد الهجمة على الإسلام، وذلك بإظهار، أن قوة الإسلام تتجلى في واقعيته، بالتعاطي مع مختلف المتغيرات والظواهر الطارئة.

بالإضافة إلى ذلك، لم يكن لكثير من وسائل الإعلام الإسلامي، موقف محدد من الظلم، الذي لحق بعدد من الدول الإسلامية، وذلك بسبب الخشية من إدراج تلك الوسائل في قائمة الاستهداف، من قبل أعداء الإسلام الأمر الذي أدى في واقع الحال إلى النظر لتلك الوسائل، على أنها تمارس دورًا، لا يقل خطورة عن وسائل إعلام أعداء الإسلام، وذلك بممارسة حياديتها، وكان من نتيجة هذه الحيادية، ابتعاد جمهور المسلمين عن عدد من وسائل إعلامية إسلامية، مع العلم أن أهم قاعدة لإعلام ناجح، هي محاكاة الواقع وتحليله.

ومن ناحية أخرى، فإن أحد أهم المتغيرات، هو النزاع الذي تدور رحاه بين عدد من المذاهب الإسلامية على أراض إسلامية، بالإضافة إلى أنه لم يكن هناك رأي واضح من هذا النزاع، وفي غياب هذا الموقف عمدت وسائل إعلام مشبوهة، إلى تغذية النزعات المذهبية هنا وهناك، وهذا كله استنزاف للمسلمين ومقدراتهم، على حساب بروز قوى أخرى وتكريسها، وهذا ما أدى إلى ابتعاد كثير من المسلمين عن وسائل إعلامهم، لأن الدور التوعوي المنوط بالإعلام الإسلامي، أصبح شيئًا ثانويًا في هذا الإعلام.

ومن هنا، نرى أن الإعلام الإسلامي، لم يؤد دوره كما يجب، مع المتغيرات الدولية، بل كان سلبيًا بالتعاطي معها، وهذه إحدى أهم الإشكاليات التي يعانيها الإعلام الإسلامي، التي لا تزول ما بقي هذا



الإعلام بعيداً عن واقعه، ولا يحاكيه بلغة عصرية مفهومة وواضحة الموقف.

الثوابت وكيفية المحافظة عليها:

ثمة ثوابت للإعلام الإسلامي، لا يمكن أن تتغير أو تتبدل بالتقادم، ومن أهم تلك الثوابت: الحفاظ على الدعوة، والتبشير بالمجتمع الذي تسوده العلاقات الإسلامية، فالمؤسسات الإعلامية الإسلامية كما الأفراد، مطالبون دوماً بالدعوة للإسلام، وتقديمه كحل لمختلف الإشكاليات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية؛ والإسلام لم يكن في يوم من الأيام غير ذلك. إن الإعلام الإسلامي، بتقديمه الإسلام على هذه الصورة، لا يروج لمنتج، بل يظهر الإسلام بعيداً عن دائرة التشويه، ويقدمه للبشرية كما قدمه يوماً الرسول الكريم ﷺ وصحابته - رضي الله عنهم -.

ما دور الإعلام في تصحيح الصورة السلبية التي ألصقت بالإسلام والمسلمين؟

وعلى هذا النحو، تعرض المفاهيم الإسلامية المعاصرة، حتى لا يقال إن المسلمين لا يستطيعون طرح القضايا ومناقشتها بشكل عصري، فالإسلام واحد ثابت ومتطور في آن واحد، ويعايش الركب الحضاري، ويتواءم معه، بل ويرقيه بمفاهيم العدل والمساواة والتسامح، وبمختلف مفاهيمه الخلاقة.

ومن الثوابت الإسلامية أيضاً، عدم التفريط بالحقوق، والتأكيد على الواجبات، وهذا ما يقرّب المجتمعات الإسلامية من إعلامها الإسلامي، ويجعلها تتعلق به، لأنه يحاكيها ويؤكد على حقوقها، ويدعو لتأدية واجباتها، وهذا يجعل الإعلام الإسلامي ذا مصداقية مطلقة، لأن من يتلمس الواقع بعين الواقع، يتقرب من الشعوب وتتقرب الشعوب منه.

كما أن نشر مفاهيم الألفة والتعاضد، ونبذ المصطلحات التي تشيع التفرقة بين أصحاب الدين الواحد، يجب أن تكون من الثوابت التي لا تراجع عنها ولا تحوير فيها، بالإضافة إلى التنبيه بشكل دائم وعدم التغافل عن الرد على المشوهين، والذين يحاولون نشر الفرقة بين المسلمين، لإضعاف المجتمعات الإسلامية، وإن الجريمة الكبرى التي يرتكبها عدد من مؤسسات الإعلام في العالم الإسلامي، بحق الإسلام والمسلمين، هو السكوت عن التشويه، ولهذا يجب أن يكون الإعلام الإسلامي، السلاح الأول، في مقاومة الحملات التي تستهدف العالم الإسلامي، إعلامياً وثقافياً.

ومن الأمور الهامة أيضاً، في تحقيق إعلام إسلامي ناضج وناجح، محاكاة غير المسلمين، وبلغاتهم المختلفة، والتأكيد على أن ثقافة الإلغاء، ليست ثقافة إسلامية، كما يروّج لها البعض، بل التأكيد على أن الإسلام، لا يلغي الآخر، بل يحاكيه في المنطق؛ فالعادات والتقاليد، يجب أن لا تقيد حرية الإنسان، ولا أن تكون حريته وبالاً عليه. وعلينا التذكير في هذا الموضع، والإشادة في هذه السطور، بالتجربة الرائدة، التي تخوضها جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، بوسائل إعلامها، في تقديم الإسلام وشرح مفاهيمه، وبعدة لغات، حتى يتسنى لغير المسلمين، مهما كانت ثقافتهم أو لغتهم، من الإطلاع على هذا الدين، الذي لا سبيل لخير البشرية دونه.

وأخيراً وليس آخراً، إن تحديات الإعلام الإسلامي كثيرة، وكل متغير جديد، يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار، مع الحفاظ على الثوابت، حتى يصبح الإعلام الإسلامي جديراً بالمتابعة بشكل أكبر، من قبل الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية.



مجلة فصلية ثقافية تتناول بالدراسة والتحليل

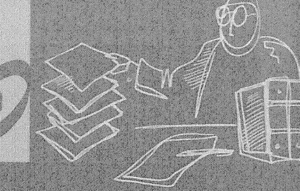
عـددا من القضايا والموضوعات مثل:

- ❖ الدعوة الإسلامية: حاضرها ومستقبلها.
- ❖ الدعوة: المناهج والمعوّقات.
- ❖ الاجتهاد والتقليد.
- ❖ المسلم المعاصر في مواجهة التحديات.
- ❖ الشرق والغرب: جدلية الزمان والمكان.
- ❖ أصول الفقه الإسلامي: بين إبداع الأوائل وعجز الأواخر (الحاجة إلى تطوير علم الأصول).
- ❖ مناهج التفكير بين الخلق والاستيراد.
- ❖ علم الانسان (الانتروبولوجيا) الثقافية والاستعمار.
- ❖ الإنسان المعاصر: دعوة إلى صناعة غربية (أنسنة الآخر).
- ❖ آداب الجدل والحوار.
- ❖ المسلمون والاستعمار الجديد.
- ❖ الفتوى والفتوى المضادة.
- ❖ مرتكزات الهوية ووسائل الحفاظ عليها.
- ❖ الإعلام والدعوة.
- ❖ الاقتصاد الإسلامي.
- ❖ العولمة واستبعاد الآخر (الجانب الديني والاقتصادي، والاجتماعي والسياسي).
- ❖ بين الرعية والمواطنة: تحديث السياسة الشرعية.
- ❖ أوهام النهايات:
  - نهاية التاريخ.
  - نهاية الإستشراق.
  - نهاية الدولة.
- ❖ التغريب الجديد.
- ❖ صراع الأنا والآخر.
- ❖ الحركات الإسلامية المعاصرة: نظرة موضوعية.
- ❖ فقه الفضائيات.. إلى أين؟
- ❖ الإرهاب صناعة غربية.
- ❖ حرب المعلومات.
- ❖ خرافة العالم الجديد.
- ❖ المجامع الفقهية: لماذا؟ وإلى أين؟
- ❖ الإسلام: من الدين إلى المؤسسة.
- ❖ الإستشراق تأثره وتأثيره.
- ❖ حوار الحضارات.
- ❖ مقارنة العقائد.
- ❖ الحوار بين أتباع الرسالات.
- ❖ الصحوة الإسلامية: رؤية مستقبلية.

هذه دعوة

لجميع الكتّاب للمساهمة في مناقشة وعرض واثراء هذه المواضيع وغيرها مما يخدم (التواصل).





- إسهام الصينيين في تدريس اللغة العربية

علي عبد السلام ما خه بين

- الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا (النيجر نموذجا)

د. علي يعقوب

- لغة الماندينغو وعلاقتها باللغة العربية

أبو بكر كيبا فاتي

إسهام الصينيين في تدريس اللغة العربية

إعداد : علي عبد السلام ما خه بين *

لقد دلت الحقائق التاريخية على أنّ العلاقات التّي وقعتْ متبادلة بين أهل الصين الشعبية والعرب منذ زمن مبكر، لا تزال تتطور وترتقي منذ أكثر من ألف عام، فأفادتْ هذه الحركةُ التبادلية المباركة أهل الصين مباشرة بتعليم اللغة العربية، ومن جانب آخر قد ثبتتْ العلاقات الصينية العربية ثبوتاً متيناً حتى يومنا هذا. إنّ إسهام أهل الصين في الحضارة العربية الإسلامية، له تاريخ عريق حيث إنه حفل بالعلاقات الحميمة، والتجارب الغنية في تبادل الود بين الطرفين. ولم يكن تعليم اللغة العربية من مكونات تاريخ تعليم اللغات الأجنبية في الصين فحسب، بل من أهم مضامين العلاقات الودية بين الصين والعرب.

العلائق الصينية العربية حتى أواخر القرن 13

وتمتد العلاقات الصينية العربية بعيداً في أعماق التاريخ، وفي عهد أسرة هان، أي قبل ألفي عام وجدت أوليات الاتصال بين الصين والعرب، وفي عهد أسرة هان الغربية (206 قبل الميلاد ـ 28 م) أرسل إمبراطور الصين مبعوثه تشانغ تشيان مرتين إلى البلاد العربية حيث وصل إلى العراق والشام وغيرهما من المناطق العربية. وكان تشانغ تشايان ومرافقيه، أول من رحلوا عن الصين، بصفة رسمية إلى تلك المناطق، حيث قاموا بالاستطلاع الميداني وربطوا بين خطوط المواصلات بجهودهم المستمرة[1]. وبعد تشانغ تشيان وفي عهد أسرة هان الشرقية (25 ـ 320 ميلادي) قد أرسل (بان تشاو وقان يينغ) مرتين لمتابعة المبعوثين

* باحث وأستاذ جامعي/ الصين.

1 ـ أ. قوه ينغ ده ، تاريخ العلاقات الصينية العربية، الناشر: د. مصطفى السفاريني، المركز العربي للمعلومات، بكين، ص4، 2004 م.

السابقين إلى أقاليم وراء حدود الصين الغربية، و قد حصلا على معلومات كثيرة عن العرب[2]، منها ما يتعلق باللغة العربية.

ففي عهد الأسرتين الملكيتين تانغ (618 ـ 907 ميلادي) وسونغ (760 ـ 1279 ميلادي) كثرت الاتصالات بين الصين والعرب يوماً بعد يوم، ووفدت إلى الصين مجموعات كبيرة رسمية وغير الرسمية من وفود العرب كالتجار، الذين استوطن بعضهم بالصين بشكل دائم حتى تكونت الجاليات العربية أو الإسلامية، في كل من: مدينة كانتون وتشيوانتشو وهانغتشو ويانغتشو وغيرها من المدن الساحلية في جنوب شرقي الصين، وسكنوا حول المساجد التي بنوها بأيديهم في الأماكن المعينة، لأجل تسهيل حياتهم اليومية، ومع تقدم التبادل والاتصالات بين الصين والعرب ودخول الإسلام في أرض الصين مع اللغة العربية أصبحت للعرب المسلمين أحياء خاصة بهم منذ ذلك الوقت.

وبجانب ذلك، قد أفادنا الإدريسي الجغرافي (1100/1166م) في كتابه الذي سجل فيه أحوال العالم تحت عنوان «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» بأن السفن الصينية كانت تصل إلى مدينة عدن من وقت إلى آخر[3]. ولذلك يمكن أن أقول إنّ الصين من أقدم البلاد في العالم التي دخلت فيها اللغة العربية والحضارة الإسلامية، وإنّ التعامل بين أهل الصين والعرب من بدايته قد تمتع بامتيازات من قبل حكومة الصين في مجال السياسة والتجارة[4]. و بعد دراساتنا للتاريخ وجدنا أهل الصين قد جالوا أرض العرب في منتصف القرن الثامن المسيحي وحصلوا على كثير من المعلومات عنها، فكتب أحدهم كتابا



شهيراً باسم «مذكرات في ديار الغربة» حيث أصبح هذا الكتاب مصدرا للمعلومات عن العرب بذلك الزمن، وقد صار المؤلف وهو دو هوان، هو أول من عرف الناس بأحوال العرب بما درسه مدققاً[5]، وهو كذلك أول من ساح في أرض العرب في تاريخ الصين

2 ـ د. أ. ما مينغ لينغ ، التعامل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية تاريخه ومستقبله. ص102، دار العلوم الإجتماعية الصينية، 2006 م.

3 ـ أ. قوه ينغ ده ، تاريخ العلاقات الصينية العربية، الناشر: د. مصطفى السفاريني، المركز العربي للمعلومات، بكين، ص6، 2004 م.

4 ـ انظر د. أحمد لطيف دينغ جون، دراسات حول تعليم اللغة العربية في الصين قديما وحديثا، دار العلوم الإجتماعية الصينية ، ص8 من «تمهيد»، 2006 م.

5 ـ د. أ. ما مينغ لينغ ، التعامل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية تاريخه ومستقبله. ص118، دار العلوم الإجتماعية الصينية، 2006 م.

القديم. وجدنا هذا الكتاب قد ذكر المواقع الجغرافية والمناخ والعادات والتقاليد في كل أماكن العرب التي زارها، وأيضا فيه ذكردقيق عن الإسلام[6]. ومع أنه لم تمض إلا مدة وجيزة فقد ازداد التعامل بين أهل الصين والعرب ازدياداً كبيراً، وازدهر التبادل بين الحضارتين العظيمتين عبر البحار. كثير من الملاّحين خبروا أحوال الشعب العربي بعد سفرهم إلى تلك المناطق بما شاهدوا عينا ورحلوا قدماً وفهموا عقلاً، ومن المشهورين المؤلف تشنغ تشو الذي ألّف «دليل ما وراء الجبال الجنوبية»، والمؤلف تشاو رو سي الذي كتب «سجلات البلدان الأجنبية». ففي هذين الكتابين وجدنا أنهما كانا قد قدما أدق التسجيلات وأوسع المعلومات وأوضح التعبير، عن أحوال العرب، حيث لم يبلغ به علم السابقين[7]. ونعتبر أنّ هذين الكتابين كتابان جيدان يتناولان العادات والتقاليد والطبيعة والإنتاج في الأقطار العربية وغيرها من الأقطار. قد صدر كل منهما نتيجة للتطور العظيم الذي حققته أسرة سونغ (970/1279م) في مجالي الاتصالات البحرية والاتصالات البرية بين الصين والشعوب المختلفة في الأقطار العربية والأقطار الأخرى.



إسهام أهل الصين في الحضارة العربية من أواخر القرن 13 إلى نهاية القرن 18 المسيحي

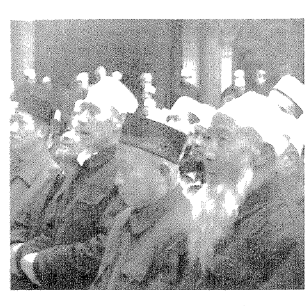
فإذا وصلنا إلى تاريخ عهد أسرة يوان (1271/1368م) وجدنا أن الأوضاع السياسية قد تغيرت في الصين تغيراً كبيراً وكذلك في مناطق آسيا الوسطى وآسيا الغربية، مما أدى إلى تبادل أكثر بين الصين وغيرها، وانتقال كثير من المسلمين العرب والفرس، وهجراتهم إلى الصين واستيطانهم بها، من بينهم جنود وصنّاع وتجار وعلماء، وتشكلت منهم كتلة فريدة متميزة بعد تزاوجهم مع أهل الصين، ويطلق عليها فيما بعد اسم هوي هوي (يعني المسلمين الصينيين)، وقد قام أبناء هوي هوي بدور مهم في إقامة أسرة يوان في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والتقنية، وفي تأسيس العلاقات الخارجية، مما جعل اللغة العربية تنتشر وتستخدم في الصين على نطاق واسع، فلم تكن اللغة العربية لغة التخاطب والتدين للمسلمين الوافدين من بلاد ما وراء حدود الصين الغربية فحسب، بل أصبحتْ من اللغات الأجنبية الرئيسة المستعملة في الصين لتسهيل التبادل الدولي في ساحات السياسة والثقافة و(التكنولوجيا)، فقد انتقلت من الصين إلى بلاد ما وراء حدودها الغربية الطباعة وصناعة الورق والخزافة والنساجة من العلوم والفنون المختلفة، وكذلك الحرير والخزف والبارود والبوصلة وغيرها من المنتجات الفنية والتقنية بكمية كبيرة، حتى إنها تنقل عبر بلاد العرب إلى الدول الأوربية، وفي الوقت نفسه انتقلتْ من العرب إلى الصين كثير من العلوم والتقنية الحديثة ومصادرها التّي تتعلق بعلم الفلك وعلم التقويم والطب والحساب والعسكرة والبناء، حتى كانت الكتب العربية

6 ـ أ. قوه ينغ ده، تاريخ العلاقات الصينية العربية، الناشر: د. مصطفى السفاريني، المركز العربي للمعلومات، بكين، ص26، 2004 م.
7 ـ جينغ تشون، أ. قوه ينغ ده ، تاريخ العلاقات الصينية العربية، دار جريدة إقتصادية يومية ، ص75-79، 2001 م.

والإسلامية التي اكتنفتها المكتبة الملكية في عهد أسرة يوان بلغت أكثر من 242 مجلدا[8]، وأغلبها من المصادر العلمية المهمة الثمينة في علم الفلك وعلم التقويم والصيدلة والحساب وغيرها، وكانت أسرة يوان تولي للغة العربية اهتمامات كبيرة كوسيلة التخاطب والتواصل في شؤونها الداخلية والخارجية.

وفي الحقيقة نشط أهل الصين أكثر بحركة ودية بين الجانبين لا يكون متأخرا عن ذلك من العرب. فعلى سبيل المثال، أحد أكبر الرحالة وانغ دا يوان قد خرج في رحلتين بحريتين ما بين عام 1330 و1334 المسيحي وما بين عام 1337 و1339م، جاب خلالهما مناطق كثيرة في آسيا وسواحل المحيط الهندي في إفريقيا، ووصل إلى ما لم يصل إليه السابقون، وزار مكة المكرمة التي تدعى بالجنة عند الصينيين، وزار البصرة في العراق ودمياط في مصر وغيرها من المرافئ والمدن العربية. ربما وصل إلى طنجة في المغرب، فأصبح وانغ من بين أول من وصل إلى ساحل المحيط الأطلسي في المغرب العربي من الصينيين[9]. وهو كتب «لمحة عن البلدان والجزر» الذي تناول فيه أكثر من 220 دولة ومنطقة حيث دوّن أحوال هذه البلدان في عام 1349م. فقال في تذييله: «إن ما ورد في هذا الكتاب هو ما شاهدته بأم عيني في الأماكن التي وصلت إليها بنفسي، أما ما ترامى إلى مسمعي فلم أترك له مجالاً».[10]

مع ازدياد تصيين أبناء جاليات المولودين المستوطنين بالصين منذ عهد تانغ وسونغ، وكذلك شأن المسلمين الوافدين إلى الصين من بلادها ما وراء حدودها الغربية منذ قيام دولة يوان، والذين شكلوا تدريجياً قومية هوي هوي وانتشروا في أنحاء



الصين، وأنشأوا مساجد في المناطق التى سكنوا بها، وقاموا بتعليم اللغة العربية نشروا الكتب الإسلامية وبنوا المساجد، فمن الواضح أن الازدهار المستمر لطريق الحرير البري، وانتشار الإسلام في بلاد المشرق، والتبادل العلمي والتقني الحديث، بين الصين والعرب من عهود أسرة تانغ وسونغ ويوان الملكية، وحتى ظهور قومية هوي كلها من الأحداث التاريخية الكبرى و من أعظم ثمرات التبادل والتواصل الحضاري والثقافي بين الصين والعرب، وكل ذلك يمثل صلة وثيقة باللغة العربية التّي هي وسيلة للاتصالات.

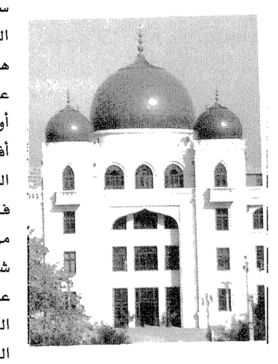
منذ عهد أسرة مينغ الملكية (1368/1644م) وعهد تشينغ (1644/1911م) قد ضعفتْ الحاجة إلى اللغة العربية على مستوى الدولة، وقلّ دورها مقارنة بالعصور السابقة، وتقلصتْ سياسة الانفتاح نحو الخارج التي كانت سائدة ومعمولا بها في عهود تانغ وسونغ ويوان، وبالتالي قل التبادل والتعامل بين الصين والعرب، إلاّ في بداية عهد أسرة مينغ الملكية وجدنا هناك كثرة التبادل والتواصل بين الطرفين،

8 ـ د. أحمد لطيف دينغ جون، دراسات حول تعليم اللغة العربية في الصين قديماً وحديثاً، دار العلوم الإجتماعية الصينية، ص 2 من «تمهيد»، 2006م.

9 ـ أ. قوه ينغ ده، تاريخ العلاقات الصينية العربية، الناشر: د. مصطفى السفاريني، المركز العربي للمعلومات، بكين، ص38، 2004 م.

10 ـ جينغ تشون، أ. قوه ينغ ده، تاريخ العلاقات الصينية العربية، دار جريدة إقتصادية يومية، ص100، 2001م.

واشتهر من بين ذلك أن الملاّح الصيني المسلم تشنغ خه (1381/1435م) قام بسبع رحلات إلى بلدان آسيا وإفريقيا على رأس قوافل بحرية ضخمة في خلال 28 عاماً من عام 1405 إلى 1433م، وزار أكثر من ثلاثين دولة ومنطقة من جنوب شرق آسيا والمحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر وسواحل إفريقيا الشرقية، مثل: سلطنة عمان والمملكة العربية السعودية واليمن والصومال ومصر وغيرها من الدول الموجودة اليوم، وكان الوفد المرافق له أكثرهم من المسلمين المتقنين للغة العربية والذين يقومون بدور الترجمة، مثل: ما هوان وقوه تشونغ لي، وحسن وشعبان، حتى ألّف بعضهم كتباً ومذكرات سجلوا فيها ما شاهدوه طوال الرحلات من الأحوال الاجتماعية العربية وغيرها، فأصبحتْ تلك الكتب والمذكّرات من المصادر المهمة التي تتناول الحديث عن التبادل الودي بين الصين والعرب، وتدل على ما أسهم به أهل الصين في الحضارة العربية الإسلامية فعلاً. وأبرز الكتب والمذكرات وجدناها تفيدنا حتى اليوم، نذكر منها كتاب: «مشاهدات رائعة وراء البحار الشاسعة» الذي كتبه الرّحالة ما هوان الذي كان مسلماً متقناً اللغة العربية، وقد بدأ عمله مترجماً عند تشنغ خه في رحلته الثالثة إلى المحيط الهندي، ثم رافقه في رحلتين أخريين، فاطلع على ما تتميز به البلدان التي وصل إليها من سلوك الإنسان وصفاته وخصائص العادات اليومية والتقاليد الاجتماعية والمنتجات المحلية وأنطمة الحكم. ويتناول كتاب مشاهدات رائعة وراء البحار الشاسعة، 20 دولة بأسلوب يجمع بين التفصيل والشمول ويحتوي على زيارته إلى «الكعبة المشرفة» التي تقع في مكّة المكرمة موطن الإسلام، والتي بدأ فيها النبيّ محمّد ﷺ الدعوة إلى الاسلام»، وأن «لغة هذا البلد هي اللغة العربية، ونظامها يحرم على سكانها شرب الخمر، ولأهلها عادات طيبة وتقاليد حميدة»، و«مسجد الجنة» الذي يسمى الكعبة... وفي اليوم العاشر من ذي الحجة من كل عام يتوافد الحجيج من مختلف البلدان، حتى ولو استغرق سفرهم سنة أو سنتين ليؤدوا فيه مناسك الحج». [11] نرى كل ما ورد في هذا الكتاب من المعلومات متفق عليها. والحقيقة، أن ما هوان، هو أول من نقل لفظة «عربي» إلى أقرب المقاطعات الصينية إليها. الكتاب الثاني الشهيرهو: تجولات في أقاصي الأرض، والذي يكون من جزئين، أولهما: سجل فيه ما شاهده الكاتب، وثانيهما: مأخوذ عما نقله المترجم من المعلومات المحققة، وقد ألّفه في شين هو، الذي وقع عليه الاختيار للاشتراك في الرحلة إلى المحيط الهندي، كان مبعوثاً خاصاً إلى ما وراء البحار أربع مرات، مرافقا تشنغ خه[12].



والكتاب الثالث المعروف هو: سجل البلدان في المحيط الهندي أكمله الكاتب قونغ تشن، مستشار لتشنغ خه، في الرحلة السابعة إلى ما وراء البحار، ويتناول هذا الكتاب 20 دولة. حيث يقول: إن كتاب: دو هوان مذكرات في ديار الغربة وهو أقرب إلى معلومات البلدان العربية، وأنّ كتاب تشنغ تشو في: «دليل ما وراء الجبال الجنوبية» وكتاب تشاو روسي: «سجلات البلدان

11 ـ أ. قوه ينغ ده ، تاريخ العلاقات الصينية العربية، الناشر: د.مصطفى السفاريني، المركز العربي للمعلومات، بكين، ص51 ـ 52، 2004 م.
12 ـ بي شو يي، كبار رجال قومية هوي(مينغ)، دار الشعب نينغ سيآ، ص54، 1988 م.



الأجنبية» قد تناولت هذه الكتب، معلومات عن العرب كخطوة أولى، فأصبحت مذكرات أهل الصين في عصر أسرة مينغ الملكية مثل: «مشاهدات رائعة وراء البحار الشاسعة» و:«تجولات في أقاصي الأرض» و: «سجل البلدان في المحيط الهندي» مصادر ذات أهمية بالغة للتفاهم بين أهل الصين والعرب، وتكون أدلة متينة على إسهام الصينيين في انتشار الحضارة العربية الإسلامية.

لقد نشط أهل الصين في تعليم وتعلم اللغة العربية في الصين، وما زالت الحاجة إليها ماسة على مستوى الديانة للمسلمين الصينيين، وفي خلال مئات السنين من عهد أسرة مينغ الملكية وبعدها كانت اللغة العربية تدرس في جميع المساجد والجوامع على غرار التعليم في البلاد العربية، مع أن اللغة العربية لم تكن اللغة الأم لأبناء قومية «هوي هوي» التي تدين بالدين الإسلامي، فالذين يتقنون اللغة العربية هم قلة، حتى برزت ظاهرة ضعف العلوم الدينية وقلة العلماء وطلاب العلم، لذلك بدأ بعض علماء المسلمين يفكرون في البحث عن طرق الحفاظ على الثقافة الإسلامية الأصيلة. فبدأ هذا النوع من التعليم في زمن «جيا جينغ لأسرة مينغ» (1522 / 1566م)، على يد «خو دنغ تشو» (1522/1597م) العالم والمعلّم المسلم من قومية «هوي» في مقاطعة شانشي، فكان يستقبل الطلبة في بيته ويعلمهم مجاناً اللغة العربية والعلوم الإسلامية، ثم انتقل إلى المسجد، لقد انتقل هذا الشكل من التعليم من مقاطعة «شانشي» وامتدّ تدريجياً إلى مقاطعات: خنان، وشاندونغ، ويوننان، وقانسو، وبكين وغيرها، وكان التعليم الديني في المساجد مزدهراً يشمل المراحل: الابتدائية والإعدادية والعالية، وكانت حالته مثل حالة التعليم في الدول العربية، حيث المساجد في الدول العربية تقوم بدور المدارس في مجال التدريس والتعليم والتربية. وأن التعليم الديني في مساجد الصين، له طريقة خاصة وصفة متميزة ومتبعة فيما بعد، ولهذه الطريقة أنظمة ثابتة ومواد محددة، ووجدنا أن في هذه الطريقة أساليب متميزة من حيث أسلوب الترجمة وتدريس قواعد اللغة العربية، وعلوم البلاغة والأحكام الفقهية لدين الإسلام، لأجل إفهام الطلبة الذين يرغبون في طلب العلم، فتوارث المسلمون الصينيون هذه الطريقة التعليمية جيلاً بعد جيل، من تلك الفترة إلى يومنا

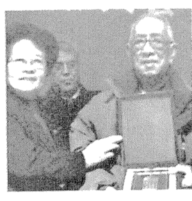
هذا، وقد كان لهذه الطريقة أثر فعّال في مجالات تعليم اللغة العربية والترجمة والدراسات الإسلامية في الصين، خرجتْ دفعات متعددة من العلماء البارزين، مما جعل دراسات الثقافات الإسلامية والعلوم العربية في الصين تتطور وتستمر. إن التعليم الديني في مساجد الصين هو تراث التبادل الحضاري الذي يستحق أن يدرس ويبحث بين الشعبين الشقيقين ـ الصين والعرب ـ . وبعد دراسة تاريخ التعليم الديني في مساجد الصين، قد حصلنا على كثير من المعلومات القيمة منها وأن المواد التي فرضت على الطلبة اشتملت على جميع علوم الإسلام، حيث إنّ قواعد اللغة العربية تدرس في ثلاث مقررات، هي: كتاب: (أساس العلوم) لمؤلفه محمد بن خياط بنجابي، و(ضوء المصباح) لأبي فتح ناصر الدين المطرزي (1143 / 1213 م)، و(الإملاء) لابن الحاجب (1175 / 1249 م) شرحه عبد الرحمن الجامي (1397 / 1477م)، والكتاب المقرر في البلاغة العربية هو (تلخيص المفتاح) لسعد الدين التفتزاني (1321/1389م)، والكتاب المقرر في العقيدة هو (عقائد النسفي) للشيخ نجم الدين أبو حفص عمر بن محمد النسفي(461 / 537 هـ ـ الموافق 1068 / 1142 م)، ومن الفقه الإسلامي كتاب (شرح الوقاية) لمؤلفه : محمود ابن سعد شالي الحنفي(ت 1346 م)؛ ومن الحديث الشريف، (خطب) باللغة العربية وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الفارسية، ومن الأخلاق (مرصاد) و(كلستان) كلاهما يدرس باللغة الفارسية؛ ومن تفسير القرآن الكريم (تفسير الجلالين).[13]

العالم الصيني الشهير الشيخ «وان دي يووف» عرف بإتقانه علوم الإسلام.

وهكذا تقدم تعليم اللغة العربية في المساجد، بمنهج قيم وأسلوب متين إلى الأمام، مع انتشار الإسلام وزيادة عدد المسلمين في الصين ، حتى ظهر كثير من العلماء الصينيين في مجال علوم الإسلام والحضارة العربية منذ أواخر القرن 17، واستمر إلى أوائل القرن 20 مسيحي، حيث بذل العلماء الصينيون أقصى الجهود لإفهام أبناء قومية «هوي هويف العلوم الإسلامية والحضارة العربية بواسطة الحضارة الصينية، المتمثلة في اللغة الصينية، أي بالأسلوب «الكونفشيوسي»❖ لكي يحفظوا خصائص الحضارة العربية الإسلامية إلى حد ما في أرض الصين، ومن الجانب الآخر، قد وقعت مشكلة التفاهم والتعامل بين قومية «هوي هوي» الصينية المسلمة وأهل الصين الأصليين، لذلك بدأ أبناء «هوي هوي» يتكلمون اللغة الصينية واستخدمونها في حياتهم الاجتماعية، حتى إن معظمهم صار يتكلم اللغة العربية أو الفارسية، ولا يستطيع فهم حقيقة الحضارة العربية والإسلامية من التراث الإسلامي القيم الأصيل، وهذا أمر خطير وقع أمام رجال العلم الصينيين، الذين تبحروا في الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الصينية، وفهم كيفية أنْ يتابعها في الحياة، فما كان عليهم إلا اعتماد اللغة الصينية ليعلم الذين عليهم أن يفهموا الحضارة العربية والإسلامية خطوة خطوة، لذلك يمكن أنْ أقولَ هنا: إنّ حركة شرح حقيقة العلوم الإسلامية باللغة الصينية مع أسلوب معين، هي نتيجة مهمة وجديدة أدخلتْ الحضارة العربية الإسلامية في الحضارة الصينية، ومنحت مكانة شريفة للحضارة

13 ـ محمد يوشع يانغ هوان جونغ وعلي يوي تشن قوي، الإسلام والحضارة الصينية، دار الشعب نيغ سيآ، ص346 ـ 368، 1995م .

❖ الكونفوشيوسية: نسبة إلى الفيلسوف الصيني العظيم(551 ـ 479 ق.م) صاحب المذهب الأدبي والفكري الداعي إلى حياة اجتماعية مثالية، قائمة على المثل الإنسانية والأخلاق الفاضلة. (التحرير).


العربية والإسلامية في مجال العلوم الصينية، مثلت خطوة أولى ومهمة قام بها علماء المسلمين الصينيين لنشر العلوم الإسلامية وتفسيرها باللغة الصينية لأبناء «هوي هوي» بالذات.

ووجدنا في التاريخ أن هؤلاء العلماء البارزين قد أسهموا في انتشار الإسلام والحفاظ عليه بين أبناء «هوي هوي» إسهاماً كبيراً، وصنفوا مؤلفات مختلفة أفادتنا حتى هذا الزمن في تعريف الناس عن الإسلام وحقيقته: مثل كتاب: (بيان التوحيد الإسلامي) و(جوامع العقيدة الإسلامية)، صاحب هذين الكتابين هو العالم الصيني الشهير الشيخ «وان دي يووف (نحو1584 / 1670م) الذي عرف بإتقانه علوم الإسلام والعقائد القديمة الأخرى مثل: الكنفوشيوسية والبوذية والدوية، وفي نفس العصر كان العالم «محمد عزيز ليو تشي» (نحو 1664 / 1730م) قد ألّف كتاب «أركان الإسلام وأحكامها» متضمناً 20 باباً احتوت على الإيمان والأخلاق والمعاملات، وكتابي «حقائق التصوف في الإسلام» و«سيرة خاتم الأنبياء»، ومثلهما العالم الإسلامي والمفكر الصيني «ما تشو» (1640 مسيحي) الذي كتب كتاباً ضخماً باسم «دليل العلوم الإسلامية» اشتمل على التاريخ والفقه والعقيدة والفلسفة وعلم الفلك والروايات[14]، إنّ أولئك العلماء الثلاثة من الصين، قد شقوا طريق دراسة علوم الإسلام باللغة الصينية في ظروف خاصة، لأجل تعليم الناس الذين رغبوا في تحصيل الحق. وأنهم فتحوا كافة المجالات في طريق دراسة العلوم الإسلامية وتعليمها، وكتبوا مؤلفات مختلفة أفادتْ الناس جيلاً بعد جيل حتى يومنا هذا، قد ساهموا في انتشار الإسلام في أرض الصين بواسطة اللغة الصينية.

إسهام أهل الصين في انتشار الحضارة العربية في القرن 20 مسيحي

في بداية القرن العشرين تغيرت حالة الصين تغيراً كبيراً فأثرت في مجال التعليم والثقافة سيما في ساحات تعليم اللغة العربية وحضارتها. وحدثت فيها تغيران كبيران: أحدهما انتقال تعليم اللغة العربية والعلوم الإسلامية من التعليم المسجدي الديني التقليدي إلى التعليم المدرسي الحديث، والثاني الانتقال من التعليم المسجدي الديني التقليدي إلى المعاهد والجامعات الحكومية. هذا التغير مبني على تيارات الأفكار الحديثة والاتجاهات الفكرية (الأيديولوجية) التي ظهرت في أوائل القرن العشرين في الصين، وجعلت أبناء «هوي هوي» هم من يقوم بالبحث عما يمكن أن يدفعهم إلى الأمام. فكثير من المتحمسين نادوا بإصلاح وتعديل التعليم المسجدي الديني التقليدي وإنهاض التعليم وإعداد الرجال الأكفاء، لذلك ظهر عدد من مدارس تعليم اللغة العربية الحديثة، التي تدرس فيها العلوم الإسلامية

14 - وان يوه بين، الموسوعة الإسلامية الصينية، دار النشر للمعاجم بشيتشوا، ص352، 1996 م.

واللغة العربية واللغة الصينية في آن واحد، منها مدرسة «تشنداه» للمعلمين ببكين عام 1925 المسيحي؛ والمدرسة الإسلامية للمعلمين بـ(شانغهاي) عام 1928 مسيحي، ومدرسة «مينغ ده» الثانوية بـ(يونان) عام 1929 المسيحي وغيرها، هذه المدارس ربت أكثر رجال العلم الحديث الذين أتقنوا العلوم الإسلامية وحضارتها، وفهموا حضارة الصين التقليدية أيضاً، إنهم ذوو قدرة على التعامل مع غيرهم، سواء كانوا مسلمين أو غير المسلمين، وقد تمكنوا من التبادل مع غيرهم في مجال الحضارة والثقافة، كما أنّ بعض الرجال المتحمسين أسسوا مجمع التقدم للحضارة الإسلامية الصينية ببكين عام 1911م، وما أن ازدهر هذا المجمع حتى ظهرت مجامع أخرى مثله، في معظم المدن بالصين عام 1943 المسيحي، استهدفت هذه المجامع «توحيد جهود أبناء هوي هوي» بالصين في سبيل تعليم حقيقة الحضارة الإسلامية ورفع مستواهم العلمي وتعزيز قيمتهم ومكانتهم في المجتمع».[15] وبالإضافة إلى ذلك فإن بعض المثقفين

قد أصدروا مجلات متعددة بيانا عن الحق، إذا بفكرة إنشاء المدارس، قد أصبحت خطوة أولى من الوعي الحضاري للمسلمين الصينيين، في أوائل القرن العشرين، فإن حركة تأسيس الجوامع صارت منفذة ومتواصلة للفكرة التي سبق ذكرها، وأن بعث الطلبة المتفوقين، الذين قد درسوا في تلك المدارس، إلى خارج الصين لطلب العلم، كان أمراً منفذاً لتحقيق أهدافهم الحميدة، على هذا الأساس أرسل بضعة وثلاثون طالباً إلى الأزهر الشريف من عام1931 حتى عام 1945 مسيحي للحصول على العلوم الإسلامية العربية[16]. ويشرفني أن أبين في هذه الورقة، أن فعاليات أهل أبناء «هوي هوي» للحضارة العربية الإسلامية في ذلك الوقت وصلتْ إلى الغاية، وأن نتيجة هذه العمليات جعلتْ أكثر شباب المسلمين يبذلون جهوداً في سبيل الحق، وكثيرون منهم قد أصبحوا أئمة المساجد أو رواد العلم أو مفكري الحضارة أو الأساتذة والباحثين في الجامعات الحكومية.

في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين، بذل العلماء العائدون من مصر، من أمثال الأستاذ المرحوم محمد مكين(1906 / 1978 م) والأستاذ عبد الرحمن نانشون (1910 م / ....) جهودا بالغة في تأسيس تخصص اللغة العربية و فتح باب الدراسات للحضارة الإسلامية في الجامعات الحكومية، وفي عام 1946 مسيحي أنشأت جامعة بكين قسماً مستقلاً لتعليم اللغة العربية، والمرحوم الأستاذ «محمد مكين» افتتح مواد العلوم الإسلامية لطلبة هذا القسم . وبعد ذلك، كثير من الجامعات الحكومية في الصين أدخلتْ مواد اللغة العربية في مناهج التدريس والتعليم، وتخصصتْ تلك الجامعات بمرحلة الدبلوم والبكالوريوس والماجستير والدكتوراه، وعدد هذه الجامعات قد وصل

سيرة الكاتب:
علي عبد السلام ما خه بين

التحق بكلية اصول الدين الإسلامي في الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد/باكستان عام 1988م. وفتح باب تعليم اللغة العربية والحضارة الإسلامية بعد عودته في جامعة شمال غربي الصين للأقليات منذ عام 1997م، الآن أستاذ مساعد في اللغة العربية والحضارة الإسلامية بالجامعة نفسها.

العنوان الإكتروني: mahebin@sina.com

15- محمد يوشع يانغ هوان جونغ وعلي يوي تشن قوي، الإسلام والحضارة الصينية، دار الشعب نيغ سيآ، ص137، 1995 م.

16- بأنغ سي تشان، تسع سنوات في مصر، الناشر الجمعية الإسلامية الصينية، ص21-22، 1988م.

إلى 25 جامعة والطلبة إلى نحو 2000 طالب وطالبة والأساتذة نحو 200 أستاذ بنهاية سنة 2006 مسيحي، ومن بداية إنشاء قسم اللغة العربية حتى الآن ساهمتْ جامعة بكين وجامعة اللغات الأجنبية ببكين وجامعة شانغهاي للدراسات الدولية وغيرها من الجامعات مساهمة جليلة في ساحات تعليم اللغة العربية وحضارتها، وخرجتْ أعداداً كبيرة من المتخصصين فيها، وقامتْ هذه الجامعات كذلك بإعداد ونشر كثير من الكتب الدراسية والمعاجم اللغوية والكتب العلمية ونشرتْ أبحاثا قيمة منقطعة النظير في مناهج تعليم اللغة العربية في الدراسات العليا، وكما أن تعليم اللغة العربية في ساحة الدين الإسلامي حقق تقدماً إلى حد بعيد، بصدور ترجمات لمعاني القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه الإسلامي وغيرها من اللغة العربية إلى اللغة الأم لأهل الصين، وهي التي عبَّدت الطريق للناس ليتفهموا الحقيقة الإسلامية والحضارة العربية .

ويستحق أنْ أذكر في هذه الورقة أنّ جامعة شمال غربي للأقليات بمدينة «لانتشو» مقاطعة «قانسو» بالصين، هي إحدى جامعات الصين التي تفتح أبواب تدريس اللغة العربية و تعليم حضارتها منذ عام 1997م. تحتوي المقررات الدراسية على أكثر المواد اللغوية والأدبية والعلمية وغيرها، يدرس الطلاب فيها العلوم المتنوعة المختلفة التي تتكون من اللغة العربية وآدابها والحضارة الإسلامية وأحوال الدول العربية وعادات الأمة العربية وتقاليدها بمدة 4 سنوات. لا يدرّس لهم علم اللغة فحسب، بل يدرّسون العلم الإنسانيّ، فيمكن أن يحصل الطلبة على كافة التدريبات اللغوية والأدبية والعقلية والخلقية من الدراسة، وكثير من المتخرجين قد يشتغلون في مختلف المجالات الاجتماعية لخدمة الوطن بعلمهم الوافر وإخلاصهم المحسن، وأنّ بعضاً منهم قد أصبح شخصية مهمة في بيئة عمله، لذلك فإنّ جامعة شمال غربي للأقليات الصينية بمدينة «لانتشو» مقاطعة «قانسو» الصينية، قد لعبتْ دوراً عظيماً في مجال تدريس اللغة العربية وتعليمها بالصين. لاسيما جانب الجامعات الحكومية بالصين.

إنّ الحضارة العربية هي إحدى الحضارات الإنسانية العالمية ذات قيمة جليلة، قد أفادتْ كثيراً الشعوب المختلفة التي من بينها أهل الصين. والحضارة العربية الإسلامية منقولة إلى أرض الصين منذ زمن بعيد، وأنّ تعليم اللغة العربية والحضارة الإسلامية فيها، حقق نجاحاً ملموساً منقطع النظير منذ دخول الإسلام إليها، خاصة خلال نصف قرن، من بداية قيام دولة الصين الجديدة، وأنّ أهل الصين أسهموا في الحضارة العربية الإسلامية إسهاماً كبيراً لا يمكن أن يهمل.

المراجع

1 - د. أحمد لطيف دينغ جون، دراسات حول تعليم اللغة العربية في الصين قديماً وحديثاً، دار العلوم الإجتماعية الصينية، 2006م.

2 - بي شويي، كبار رجال قومية هوي (مينغ)، دار الشعب نينغ سيآ، 1988م.

3 - بأنغ سي تشان، تسع سنوات في مصر، الناشر الجمعية الإسلامية الصينية،1988م.

4 - جينغ تشون، أ. قوه ينغ ده ، تاريخ العلاقات الصينية العربية، دار جريدة اقتصادية يومية ، 2001م.

5 - أ. قوه ينغ ده، تاريخ العلاقات الصينية العربية، الناشر: د. مصطفى السفاريني، المركز العربي للمعلومات، بكين، 2004م.

6 - د. أ. ما مينغ لينغ، التعامل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية تاريخه ومستقبله. دار العلوم الإجتماعية الصينية، 2006م.

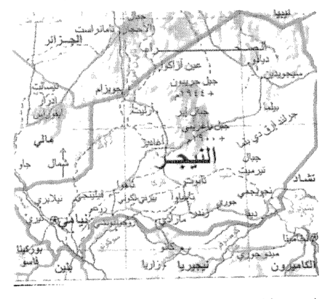
7 - محمد يوشع يانغ هوان جونغ وعلي يوي تشن قوي، الإسلام والحضارة الصينية، دار الشعب نيغ سيآ، 1995م.

8 - وان يوه بين، الموسوعة الإسلامية الصينية، دار النشر للمعاجم بشيتشوا، 1996م.



الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا
(النيجر نموذجاً)

د. علي يعقوب*



بدأت أقدام الأوروبيين تطأ أراضي إفريقيا في القرن الخامس عشر المسيحي، وذلك عندما أبحر البرتغاليون إلى سواحل غرب إفريقيا، عام 1444 مسيحي، وأسسوا بعض الحصون على السواحل مثل حصن سان جورج ـ الميناء ـ غانا، وفي القرن السابع عشر وصل الهولنديون، وبعدهم وصل الإنجليز، ثم الفرنسيون والدانماركيون، ولكنهم رغم كل هذا التكالب على الساحل لم يتمكنوا من التوغل إلى الداخل، بسبب قوة الملوك والطبيعة، وقد اكتفوا بتجارة الرقيق على الساحل، وامتدت هذه المرحلة إلى القرن التاسع عشر. وتعتبر هذه المرحلة الأولى لاستعمار إفريقيا.

أما المرحلة الثانية، فتبدأ في القرن التاسع عشر، وذلك بعد مؤتمر برلين عام 1884 ـ 1885مسيحي، الذي خُطط فيه لاحتلال القارة الإفريقية، وقد أصبحت إفريقيا عامة، وغربها خاصة، موزعة على الدول الأوروبية، فحصلت ألمانيا على الكامرون والتوغو، واستولت بريطانيا على سيراليون وساحل الذهب ـ غانا حاليًا ـ ونيجيريا وغامبيا. أما فرنسا فقد استولت على مساحة شاسعة في غرب إفريقيا، وأطلقت عليها إفريقيا الغربية الفرنسية (A. O. F) والتي شملت موريتانيا، السنغال، السودان الفرنسي ـ مالي حاليًا. النيجر، داهومي ـ بنين حاليًا ـ ساحل العاج، غينيا كوناكري، فولتا العليا ـ بوركينا فاسو حاليًا ـ [1]. وإضافة إلى إفريقيا الغربية كانت هناك إفريقيا الاستوائية الفرنسية، وتشمل تشاد، الغابون، أوبانجي شاري ـ إفريقيا الوسطى حاليًا ـ الكونغو الفرنسي.

بدأت علاقات فرنسا بغرب إفريقيا في القرن السابع عشر المسيحي، حيث أسست شركة السنغال الملكية عام 1697 مسيحي، في سان لويس، بقصد

* باحث وأستاذ جامعي / النيجر.

1 ـ انظر: الاستعمار الفرنسي والهُوية العربية الإسلامية الدوافع، المراحل، السمات والآثار، لمحمد عاشور المهدي، ندوة الإسلام والمسلمون في إفريقيا عام 1998 مسيحي، طرابلس، جمعية الدعوة الإسلامية، ص: 115.

الاتجار في الرقيق، ولم تتوغل في الداخل إلا في القرن التاسع عشر، عندما فكرت فرنسا في توجيه أنظار شعبها إلى النشاط الاستعماري؛ ولتعويض ما فقدته أثناء الصراع في أوروبا - حيث هزمت أمام الألمان في عام 1870 مسيحي، وفقدت أقليم الألزاس واللورين -، وحولت منطقة السنغال من مجرد محطة للتجارة إلى مستعمرة حقيقية. وكانت قد عينت في عام 1854 مسيحي، الجنرال لويس فيدرب (LOUIS FAIDHERBE) حاكمًا على السنغال، فكان أول من استخدم القوة العسكرية ضد الوطنيين، ونجح في التوغل إلى الداخل، وفتح الطريق إلى حوض النيجر[2]، ولم يكن الطريق سهلاً لأنه قد قوبل بمقاومات من زعماء الإسلام، من أمثال الحاج عمر الفوتي، وابنه أحمد سيكو، والشيخ لامين درامي، وساموري توري، وألفا شعيب الضرير، وغيرهم، وقد استطاعوا أن يكبدوا جيش الاستعمار خسائر فادحة، واضطروا إلى إرسال التعزيزات مرات عديدة، وأن يغيروا القيادات، وعقد اتفاقيات الهدنة مع هؤلاء الزعماء المسلمين، والملوك المحليين. ولم يستطع الفرنسيون الدخول إلى وادي النيجر الأعلى، إلا في عام 1883 مسيحي، حيث استولوا على مدينة بماكو. وفي عام 1894 مسيحي، استولوا على مدينة تمبكتو - التي كانت عاصمة العلم والعلماء، وبخاصة في عهد إمبراطورية سنغي الإسلامية -.

وكذلك استولوا على مدينة ساي (SAY) ودوسو (DOSSO) في النيجر، وأسسوا مستعمرة ساحل العاج على الساحل عام 1893 مسيحي، ولم يأت عام 1900 مسيحي، حتى استولت فرنسا على معظم أراضي غرب إفريقيا ووسطها[3].



احتلال فرنسا للنيجر:

لقد بدأ الاحتلال الفرنسي لبلاد النيجر في نهاية القرن التاسع عشر المسيحي، وكانت بدايته عن طريق البعثات الاستكشافية للمنطقة، بذريعة استكشاف منبع نهر النيجر ومصبه. ومن تلك البعثات بعثة منغو بارك، (MANGO PARK) الذي قام بعدة رحلات في المنطقة بهدف استكشاف نهر النيجر. فقد قام برحلته الأولى عام 1795 مسيحي، التي بدأها من نهر غامبيا، وسار حتى وصل إلى مدينة سيغو - في مالي - الواقعة على نهر النيجر، ثم اضطر للعودة إلى لندن لتدهور صحته، ونضوب مدخراته. وقد ذكر ذلك في مذكراته حيث قال: «أنهكني الجوع والإعياء ولا أدثر إلا بما يستر العورة... ولا أملك أي سلع يمكن مقايضتها بطعام وملابس»[4]. وفي عام 1805 مسيحي، قام برحلته الثانية للمنطقة وبدأها من غامبيا أيضًا، إلى أن وصل إلى سيغو، ومنها مع نهر النيجر، في الضفة الشرقية منه، واصل رحلته إلى أن وصل إلى بلدة بوسا (BOUSSA) - في نيجيريا -، حيث لقي حتفه وذلك في عام 1805 مسيحي.

---

2 - المصدر السابق، ص: 119.

3 - انظر: المسلمون والاستعمار الأوروبي لأفريقيا، عبدالله عبدالرزاق، ص:20، وندوة الإسلام والمسلمون في إفريقيا، ص: 120.

4 - بوفيل تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ترجمة الهادي أبو لقمة ومحمد عزيز، ط2، 1988 مسيحي، جامعة بنغاري، الجماهيرية العظمى، ص:347.



ثم بعثة كلابرتون (CLABARTON)، الذي بدأ رحلته عام 1822 مسيحي، من مدينة طرابلس الغرب، إلى بحيرة تشاد، حيث افترق مع زميله دنهام (DANHAM)، الذي اتجه نحو جنوب البحيرة، واتجه كلابرتون مع زميل له نحو الجنوب الشرقي، ليكتشف نهر شاري، ومنه اتجها إلى الغرب ليكتشفا نهر النيجر، وتوفي زميله أثناء الرحلة، وواصل كلابرتون رحلته حتى وصل إلى مدينة صكتو، عاصمة الخلافة العثمانية، في عهد الشيخ محمد بلو بن الشيخ عثمان بن فودي، وقد منع الشيخ محمد بلو، كلابرتون من مواصلة رحلته إلى نهر النيجر، عند مدينة ياووري (YAWORI) وعاد أدراجه إلى كوكو (KAUKUA) عاصمة إمبراطورية كانم برنو الإسلامية، حين اتجه مع زميله دنهام نحو الشمال عبر الصحراء الكبرى، مرورًا بمدينة بلما (BILMA) في النيجر. ثم طرابلس، حيث وصلا إلى بريطانيا عام 1825مسيحي، وقد عاد كلابرتون إلى المنطقة في رحلة ثانية في نفس العام، حتى وصل إلى مدينة صكتو، التي لقي حتفه فيها عام 1827 مسيحي[5]. ولعل أهم هذه البعثات الاستكشافية هي بعثة هنري بارث (HENRI BARTH) الذي تمكن من زيارة قسم كبير من البلاد، واستمرت رحلته لمدة خمس سنوات، وقد قضى فترة في مدينة أغاديس وكذلك في زندر (ZINDER) وزار مدينة ساي والصحراء الكبرى، وغيرها من المناطق. وكانت رحلته ما بين عام 1850 ـ 1855 مسيحي، وقد سجل ملاحظاته في كتاب ضخم ووصف فيه القبائل والمدن التي زارها وصفًا دقيقًا.

وقد أدت نتائج هذه البعثات إلى إثارة مطامع الحكومات الأوروبية للمنطقة، ثم ما لبثت أن نظمت حملات عسكرية لاحتلال البلاد، وأرسلت لذلك حملات عدة، ومن أشهر تلك الحملات حملة الكابتن فولي (VOULET) ومساعده شانوان (CHANOINE) وقد اشتهرت بدمويتها، حيث أحرقت وأبادت قرى كثيرة في طريقها، وقتلت عددًا كبيراً من سكانها رميًا بالرصاص أو الشنق. وقد انطلقت هذه الحملة البربرية الدموية من مدينة بماكو عام 1898

5 ـ رحلة استكشاف إفريقيا لكلابرتون، ترجمة د. عبدالله عبدالرزاق، طبعة المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، عام 2003 مسيحي، 185/2.

مسيحي، - بهدف إنشاء إمبراطورية تشمل السودان الغربي وتشاد - ببضعة جنود فرنسيين، ورماة السنغال، انقسمت إلى فريقين: أحدهما سار نزولاً باتجاه النهر - الصفة اليسرى - والآخر ذهب عبر غُورما (GORMA) أي = الضفة اليمنى للنهر - ، وكان ذلك في يناير عام 1899 مسيحي، ولما وصل الكابتن فولي (VOULET) - الذي سار مع النهر - إلى قرية سَنْسَنْ هوسا (SANSAN HAUSSA) في منطقة تيلابيري (TILLABERI)، أحرقها وأعدم مائة شخص من أهلها، لما رفضوا الانصياع لأوامره، واتبع مساعده شنوان (CHANOINE) نفس المنهج في مدينة ساي، فأعدم حوالي عشرة من الحمالين لما أبطئوا في تنفيذ أوامره، ونهب وأحرق قرى عديدة في المنطقة، ثم التقيا في الشهر الثامن من نفس العام 1899 مسيحي، وسارا معًا[6] وازداد الشر والفساد باتحادهما وأبادوا قرية سَرَونْيَا - الملكة - في منطقة دوتشي (DOUTCHI) لما قاومتهم. وكذلك مدينة برني كوني (KONNI) في منطقة طاوا (TAHOUA) التي دمروها تدميرًا كاملاً، وأعدما جميع الأسرى، واتبعوا هذا الأسلوب في جل المدن والقرى التي مروا بها لكن موجة العنف هذه ما لبثت أن حملت أصداءها إلى باريس، فكان أن أرسلت الأوامر إلى الكولونيل كلوب (COULOB) الذي كان في مدينة كاي (KAYES) - مالي - بأن يلحق بفولي ومساعده ويعزله عن منصب القيادة. ومر في طريقه بجميع القرى التي أبادها فولي ومساعده إلى أن أدركهما في شمال تساوه[7] (TASSAWA) وأمر فولي بإطلاق النار على كلوب فقتله فكان ذلك سبب تمرد الجند عليهما. فقتلوا فولي ومساعده شانوان في عام 1899 مسيحي. وتولى القيادة بعدهما مينيه (MENIA) مساعد كلوب وجوالان (JAWALAN) مساعد فولي ثم قررا استئناف مهمة البعثة، كما كانت مقررة، فاحتلا زندر والتقيا بعد ذلك على بحيرة تشاد، مع بعثتي فور لامي (FORT LAMY) وجنتيل (GENTIL) واتحدوا وشنوا حربًا ضدر رابح فضل[*]. وقد مهدت هذه الحملة الدموية لفرنسا لاحتلال النيجر، وذلك لما أذاقه الشعب من الإبادة على أيدي هذه الحملة وغيرها. ولكن مع ذلك فإن قوات الاحتلال قد واجهت مقاومة قوية من الشعب، حيث رفعوا راية الجهاد في سبيل الله. ولم تستطع فرنسا أن تسيطر على البلاد كاملاً إلا في عام 1919 مسيحي، وفي عام 1922 مسيحي، أصبحت النيجر مستعمرة فرنسية عاصمتها زندر، وفي عام 1926 مسيحي، تم نقل العاصمة إلى مدينة نيامي (NIAMEY) واعتبرت النيجر امتدادًا للجمهورية الفرنسية فيما وراء البحار عام 1946 مسيحي، ثم أعلنت جمهورية النيجر عام 1958 مسيحي، واستقلت عام 1960 مسيحي(8).

نظرية الامتصاص أو الاستيعاب تعني صبغ المستعمرات بالصبغة الفرنسية عن طريق ثقافة الفرنسيين المستعمرين، ولغتهم وتقاليدهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية

ومن الجدير بالاستدراك والذكر هو أن جمهورية النيجر من الدول التي دخلها الإسلام في القرن الأول الهجري، السابع المسيحي وبخاصة الشمال الشرقي

---

6. انظر: النيجر اليوم، ص: 124-125، بتصرف.

7. المصدر السابق، ص: 125.

* وهو من الزعماء المسلمين الذين لعبوا دورًا مهمًا في مقاومة الاستعمار ونشر الإسلام في المنطقة، وقتل في عام 1900 مسيحي، في معركة مع الفرنسيين.

8. انظر: اللغة العربية وآدابها في النيجر في عهد الاستعمار، علي يعقوب، أطروحة دكتوراه 2005 مسيحي، ص: 20.

منها وذلك حيث توغل التابعي الجليل، عقبة بن نافع، بفتوحاته الإسلامية في جنوب فزان عام 46 هـ، إلى أن وصل إلى منطقة كعوار في النيجر ففتح عدة حصون في المنطقة ثم واصل فتوحاته إلى غدامس في ليبيا، ومنها إلى القيروان في تونس[9] وكانت النيجر جزءًا من الإمبراطورية الإسلامية التي قامت في المنطقة، مثل: إمبراطورية مالي وسنغي، والخلافة العثمانية في صكتو (SOKOTO) وإمبراطورية برنو، وتبلغ مساحتها 1,267,000 كيلومتراً مربعاً، وهي دولة داخلية حيث لا تطل على البحار والمحيطات، وتحل الصحراء أكثر من نصف مساحتها وبخاصة في الشمال، وأخذت اسمها، من النهر الذي يمر في جنوبها، ويبلغ طوله في أرض النيجر حوالي 550 كيلو مترًا.

آثار الاحتلال الفرنسي في الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا (النيجر نموذجًا):

أصبحت اللغة العربية لغة الدين والثقافة، والحياة الإدارية في غرب إفريقيا، منذ أن رسخ قدم الإسلام فيها، وأصبحت الثقافة الإسلامية هي السائدة في المجتمع وبخاصة في عصور الإمبراطورية الإسلامية، مثل: إمبراطورية مالي وسنغي، والفلانيون في صكتو، وماسنا وكانم وبرنو.

وقد ظلت سائدة حتى مع سقوط الدول الإسلامية وسيادة الفوضى في عهد الرماة في تمبكتو والمناطق المجاورة لها. «والناظر في الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا يجد أن خير مقاييس لها هو: عدد العلماء وعدد الطلاب وتنوع أماكن التعليم وحركة التمدن والكتب الواردة والمكتبات الخاصة ودرجة اتساع التأليف»[10]، وفيما يخص عدد العلماء يذكر السعدي صاحب تاريخ السودان، أنه عندما أسلم سلطان جني، كان بها 4200 عالم[11]. وقد يظن البعض بأن في العدد مبالغة، ولكن لو نظرنا إلى قرى متلاصقة بجني، نجدها سبعة آلاف وسبعًا وسبعين قرية.

وعليه ففي كل قريتين عالم واحد - بمعنى معلم الصبيان القرآن - وهذا الوجود الكثيف للعلماء في المدن والقرى، ساعد على نشر القراءة والكتابة اللتين أضحى لهما دلالة دينية مرتبطة بقراءة القرآن وكتابته، مما يسر تخريج أعداد كبيرة ممن يتلقون هذا النهج من التعليم[12]، ثم لا يستغرب أن يُخَرج هذا العدد من العلماء، عددًا من التلاميذ، وأحصى بعضهم عدد التلاميذ في كتاب واحد في تمبكتو، فوجدهم مائة وثلاثة وعشرين تلميذاً، وفيها حوالي مائة وخمسين كتابًا. هذا في تمبكتو وحدها، فما بالك بباقي المدن مثل غاو وأغاديس وكانو، وكان للعلماء مكتبات عامرة، وكذلك بعض الملوك. وكان لعلماء المنطقة مساهمات فعالة في حركة التأليف، وقد ألفوا في فنون عدة، مثل: الفقه والتاريخ والعقيدة والنحو والصرف وغيرها، من العلوم الشرعية واللغوية، ومن أشهر المؤلفين في عهد سنغي: الشيخ أحمد بابا، الذي اشتهر في داخل المنطقة وخارجها بدروسه ومؤلفاته، ومن أشهرها: تطريز الديباج، ولقد بلغت حركة التأليف ذروتها في عهد الخلافة العثمانية في صكتو، وفي عهد حركة الحاج الفوتي في غينيا والسنغال ومالي، وبخاصة في فترة اختلافه مع الشيخ أحمد لبو في ماسنا، حيث تبادلا رسائل عدة يحاول كل منهما أن يقنع الآخر بفكرته، وتعكس هذه الرسائل مدى تمكنهما من زمام اللغة العربية. وقد جمعت تلك الرسائل في كتاب بعنوان: (ما وقع) وكذلك الرسائل المتبادلة بين أحمد لبو وأمير

9. علي يعقوب، المصدر السابق، ص: 15، وانظر: ابن عبدالحكم، فتوح مصر والمغرب، ص: 95.
10. عز الدين عمر موسى، دراسات إسلامية غرب إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2003 مسيحي، ص. 113.
11. السعدي، تاريخ السودان، ص: 12.
12. عز الدين عمر موسى، المصدر السابق، ص: 117، بتصرف.

المؤمنين في صكتو، في عهد الشيخ أبو بكر العتيق بن عثمان بن فوديو، وكذلك ساهم علماء منطقة أغاديس وتغيدا في حركة التأليف، ومن أشهرهم الشيخ جبريل بن عمر، شيخ وأستاذ الشيخ عثمان بن فوديو. ولعلماء البرنو مساهمة مماثلة في هذا المجال. وبخاصة الشيخ أحمد فرتو. وهذه المساهمة تمثل مدى انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية في منطقة غرب إفريقيا قبل الاستعمار.

«إن هذه الثقافة لم يصبها الضعف إلا عندما خضعت القارة الإفريقية للاستعمار الأوروبي، وفرض كل مستعمر لغته في الإدارة والتعليم، غير أن لغة المستعمر، ظلت في الغالب لغة التفاهم والتواصل بين الصفوة المتعلمة تعليمًا غربيًا على اختلاف لغاتها الأصلية. ولكن العامة في كل قطر ظلت تستعمل اللغات المحلية في أغلب الأحيان، وهي لغات متأثرة بالعربية تأثرًا كبيرًا»[13]، بسبب غلبة الثقافة العربية الإسلامية في مجتمعات غرب أفريقيا. وكان الحرف العربي هو الحرف الذي أصبح تكتب به أشهر اللغات في المنطقة، مثل: لغة الهوسا والفلاني والولوف والبمبارا. ولما احتلت فرنسا المنطقة في بدايات القرن العشرين، حاربت الحرف العربي حربًا لا هوادة فيها، وأحلت محل الحرف العربي الحرف اللاتيني. وحاربت كذلك اللغة العربية والثقافة الإسلامية السائدة في المجتمع، واتبعت في محاربتها أساليب متنوعة. وقبل ذكر تلك الأساليب، أرى أنه من الأفضل ذكر سياسة فرنسا الاستعمارية في إفريقيا. فقد رسمت فرنسا سياستها الاستعمارية في إفريقيا على أساس فلسفة معينة. ويختلف نظام الحكم الاستعماري الفرنسي عن النظام البريطاني. فبينما يعتبر نظام الحكم غير المباشر أحد المظاهر الرئيسة المميزة للحكم البريطاني، فإن الحكم المباشر هو سمة النظم الحكومية التي أقامتها فرنسا



نهر النيجر

في قارة إفريقيا... والعجيب أن السياسة الاستعمارية الفرنسية بنيت على بعض المبادئ البراقة في مظهرها التي أعلنتها الثورة الفرنسية، فقد استند الفرنسيون على أن جميع سكان المستعمرات يجب أن يكونوا مواطنين فرنسيين لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات، وعلى هذا الأساس قامت نظرية الامتصاص أو الاستيعاب؛ والمقصود بها صبغ المستعمرات بالصبغة الفرنسية عن طريق ثقافة الفرنسيين المستعمرين، ولغتهم وتقاليدهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية. حتى يصبح تفكيرهم واتجاههم في مختلف نواحي الحياة كالفرنسيين. وهذا يتطلب بالطبع قطع كل صلة للإفريقي المسلم بتاريخه الإسلامي وحضارته الإسلامية بمختلف مظاهرها ومقوماتها[14]. ولما هيمنت فرنسا على غرب إفريقيا ووجدت أن اللغة العربية هي لغة الدين والثقافة والحياة الإدارية، وقد أشار إلى هذا حاكم عام لفرنسا بإفريقيا الغربية (من عام 1908 - 1911 مسيحي) وليام بونتي (WILLIAM PONTY) في مرسومه الذي أصدره يوم 1911/5/8 مسيحي، وهو موجه إلى حاكم

13 ـ عز الدين عمر موسى، المصدر السابق، ص: 140.

14 ـ عبد الله عبد الرزاق، وشوقي الجمل، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، دون تاريخ، ص: 303.

المستعمرات التابعة له، مثل: النيجر والسنغال ومالي حيث قال: «لقد أثار انتباهي ما يحدث من عراقيل بسبب استعمال اللغة العربية في تحرير الأحكام، الصادرة عن القضاء الأهلي، وفي المراسلات الرسمية مع الرؤساء والأعيان، وفي كل ظروف الحياة الإدارية تقريبًا... إن العربية لم تدخل البلاد الإفريقية إلا مع الدعوة الإسلامية، وهي اللغة المقدسة في نظر الأسود!!»[15] وانطلاقًا من هذه الفكرة ضد اللغة العربية والثقافة الإسلامية، كثفت السلطات الاستعمارية جهودها لاستئصال اللغة العربية والثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا الفرنسية واستخدمت لذلك كل الوسائل المتوفرة لديها، ومن ذلك:

- فرض قيود صارمة لاستيراد الكتب العربية من البلدان العربية، حتى الحجاج قد منعوا من حمل الكتب الدينية والعربية معهم عند رجوعهم من الحج.
- تشديد الرقابة على كل المطبوعات العربية سواء أرسلت بالبريد أو بغيره.
- إحصاء كتب العلماء بغرض حصرها وفرض الرقابة عليها لمعرفة ما إذا زادت أم لا؟ ومن ذلك قيامها بإحصاء كتب مكتبة الشيخ أحمد كيار، والشيخ حسن سليمان في مدينة زندر في النيجر[16].
- مراقبة المؤسسات الدينية الإسلامية حيث حددوا نطاق إنشاء المساجد فكانت لا تسمح ببناء مسجد إلا لأفراد يحظون بثقتها وهم القلة بطبيعة الحال. وكان الاستعمار يخاف من المسجد خوفه من سائر المؤسسات الإسلامية فبناء المسجد يعتبر وسيلة لتقدم الإسلام. ولم يخف (فيدرب) - حاكم إفريقية الغربية الفرنسية - خوفه من المسجد حيث صرح في عام 1855 مسيحي، بذلك وقال: «إن الإسلام لدى السود أمر معرقل أمامنا... لكن في النهاية إن وُجد المسجد، فلا رجوع لنا بعدئذ»[17].
- حصر استعمال العربية في كل المرافق الإدارية والاقتصادية والاجتماعية، فعمدت إلى نشر المدارس الفرنسية في سائر المدن والقرى، وقلصت حصص العربية وتعليم القرآن، ثم حذفتها نهائيًا، بل لقد وصل الأمر إلى حد منع الفرنسيين الموجودين في المنطقة من مخاطبة السكان بغير اللغة الفرنسية مهما كانت الظروف والملابسات[18]، لأنهم كانوا في بداية أمرهم يخاطبون ويراسلون السكان باللغة العربية وبخاصة العلماء وطلاب العلم.

هذه الثقافة لم يصبها الضعف إلا عندما خضعت القارة الإفريقية للاستعمار الأوروبي، وفرض كل مستعمر لغته في الإدارة والتعليم.

- فرض قيود صارمة على افتتاح المدارس العربية فأصدرت لذلك قرارات جائرة للحيلولة دون أداء المدارس العربية، ومن ذلك فرض على كل من يريد افتتاح مدرسة إسلامية ولو كتّابًا أن يتقدم لامتحان خاص بهدف معرفة مستواه بهذه اللغة، وذلك بدعوى تحسين التعليم الإسلامي، واختيار معلمين أكفاء، ثم تلى ذلك قرار آخر وهو الحصول على الرخصة من السلطات الاستعمارية قبل افتتاح مدرسة إسلامية وغالبًا ما ترفض إعطاء الرخصة.
- منع المتعلمين من ممارسة النطق باللغة العربية والتعامل بها بأي شكل من الأشكال، وبلغ من تعنتها أن حاولت استبدال اللغات المحلية في المجالس

---

15 ـ عبد العلي الودغيري، الفرنكفونية والسياسة اللغوية والتعليمية الفرنسية بالمغرب، ط1، 1992 مسيحي، ص: 79.

16 ـ الإسلام والقبائل في مستعمرة النيجر، بول مارتي، ص: 352.

17 ـ انظر: المسلمون في السنغال، عبدالقادر سيلا، ص: 87.

18 ـ الودغيري، المصدر السابق، ص: 72.

والمدارس باللغة العربية. ولهذا الغرض توجه أحد كبار إدارة الشؤون الإسلامية إلى مدرسة في سيغو (مالي) فعرض على الشيخ ديمبا واغي - مؤسس مدرسة عربية هناك- تغيير لغة التدريس عن طريق إلقاء الدروس باللغات المحلية[19] ولكن الشيخ رفض أن يرضخ لأوامر السلطات الاستعمارية.

- تصيد ضعاف القلوب من سكان المنطقة لتحطيم مقوماتهم الدينية والثقافية بتسهيل سبل العلم والعمل لهم، بقصد إضعاف الثقافة الإسلامية في نفوس الذين يشتغلون بها خاصة، ثم في نفوس سكان المنطقة عامة.
- أخذ أبناء الشيوخ والأعيان عنوة وإرسالهم إلى مدارس فرنسية وأسسوا لذلك مدرسة الرهائن، ثم إسناد الأمور إليهم بعد تخرجهم، وهم بالطبع سيكونون موالين لهم ولثقافتهم الفرنسية.
- تأسيس بعض مدارس عربية نظامية عصرية في بعض المدن التي كانت مراكز للثقافة الإسلامية فأسست مدرسة عربية في سان لويس بالسنغال وأخرى في بوتلميت في موريتانيا، وأخرى في تمبكت في مالي، ولما لاحظوا رفض العلماء إرسال أبنائهم إلى مدارسهم حملوهم على التعليم الإجباري وذلك بأخذ أبنائهم في مناطق متعددة وإدخالهم في تلك المدارس، وليحلوا محل آبائهم في تسيير شؤون الكتاتيب بعد تخرجهم. وقد ظهرت آثار هذه الأساليب على الثقافة الإسلامية بعد فترة من الزمن وذلك بتناقص عدد المدارس الإسلامية وتلامذتها.

ويصرح حاكم مقاطعة النيجر عام 1923امسيحي، في بريفيه (BREVIE) قائلاً: «أما الآن فتقهقر الدعوة الإسلامية أمر لم يبق فيه شك، وإن إحصاء عدد الناشئة المتعلمة من المسلمين يتناقص في بلاد النيجر، كما أنه لم يتقدم إلى الأمام في سائر البلدان التي امتد إليها الإسلام من قبل»[20] وقد عزا الحاكم سبب هذا التقهقر إلى تناقص عدد الزعماء الإسلاميين - أي العلماء - وإلى تزايد عدد مدارسهم التي زاحمت مدارس المشايخ المرابطين[21] وكذلك صرح بول مارتي لما قام بإحصاء المدارس الإسلامية وتلامذتها في زندر بعد دخول الإستعمار الفرنسي إلى البلاد بعشر سنوات تقريبًا وقال: «عدد المدارس والطلاب انخفض جدًا مع استمرار الاستعمار»[22].

ومن آثار الاحتلال الفرنسي على الثقافة الإسلامية في المنطقة، ركود الأنشطة الفكرية بين صفوف المسلمين وقلة الاهتمام بالتأليف وكتابة المقالات حتى باللغات المحلية فضلاً عن العربية،

19. عبد القادر سيلا، المصدر السابق، ص. 89 بتصرف.
20. لوثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، تعليق الأمير شكيب أرسلان، طبعة دار الفكر، بيروت 2/ 353.
21. المصدر السابق، 3532.
22. بول مارتي، المصدر السابق، ص: 193.

فأصبح الناس لا يستطيعون القيام بالكتابة والتأليف كما كان الأمر قبل الاحتلال[23] وقد غرس الاحتلال قبل رحيله العداوة للثقافة الإسلامية في نفوس المثقفين بثقافته، وأبعدها عن الساحة الفكرية ورفع الثقافة الفرنسية، وجعل مثقفها هو المثقف الحقيقي، وأما المثقف بالثقافة الإسلامية فيعد بمثابة أُمي، ومن هنا أبعدوه عن أية مشاركة في العمل السياسي والاجتماعي والاقتصادي، ومكانهم المناسب هو المسجد فقط. وأن الثقافة الإسلامية إنما هي وسيلة إلى الشعوذة والدجل، وصور لدى الرأي العام الأفريقي بأنه درويش ينقصه التفكير العلمي والحس السياسي.

وقد عمل الاحتلال الفرنسي على نشر الدين المسيحي، الذي لم يكن له وجود في المنطقة قبل الاحتلال، وحاول أن يسند الأمور إلى المسيحيين، وإن كانت النيجر قد نجت من هذه الورطة أيام الاستقلال لندرة من اعتنق المسيحية من النيجريين.

وقد ظل شعبها يرفض إرسال أبنائه إلى المدارس الفرنسية، ويراها مدارس الكفار، وظل سكانه يطالبون بإنشاء مدارس عربية عصرية لإرسال أبنائهم إليها.

ومن الجدير بالذكر هنا مع الأسف الشديد أن النيجر لم تكن فيها مدرسة عربية نظامية واحدة سواء كانت حكومية أو أهلية إلى عام 1957 مسيحي، حيث استجاب الحاكم العام لمنطقة النيجر لضغط السكان واضطر إلى إصدار مرسوم رقم 32، 57/2/1957 مسيحي، أمر فيه بإعادة تنظيم مدرسة ساي، ولكن تحت إشراف وزارة الداخلية، وقد ظلت المدرسة تحت وزارة الداخلية إلى عام 1965 مسيحي، أي بعد الاستقلال بخمس سنوات حين ضمت إلى وزارة التربية الوطنية ثم أوفدت الدولة بعثات علمية إلى معظم الدول العربية لدراسة العربية والثقافة الإسلامية التي فقدت معالمها في البلاد التي كانت الثقافة الإسلامية هي السائدة والحرف العربي هو المستعمل، وقد حذت معظم بلدان غرب إفريقيا حذو النيجر. فبتخرج هذه البعثات افتتحت المدارس العربية بجميع مراحلها من الابتدائية إلى الجامعة في البلاد، وتكاد الأمور تعود إلى أحوالها السابقة قبل الاحتلال الفرنسي، وكذلك الحال في جل دول غرب إفريقيا حيث افتتحت أقسام اللغة العربية في جل جامعاتها.

المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم.

1. بوفيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ترجمة الهادي أبو لقمة ومحمد عزيز، ط2، 1988 مسيحي، جامعة بنغازي، الجماهيرية العظمى.
2. عبد الله عبد الرزاق إبراهيم (دكتور)، المسلمون والاستعمار الأوروبي لإفريقيا، عالم المعرفة 1988 مسيحي، الكويت.
3. عبد الله عبد الرزاق وشوقي الجمل (دكتور)، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، بلا تاريخ.
4. عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، باعتناء خوداس باريس 1964 مسيحي.
5. عبد العلي الودغيري (دكتور)، الفرنكفونية والسياسة اللغوية والتعليمية الفرنسية بالمغرب، ط1، 1993 مسيحي، المغرب.
6. عبد القادر سيلا، المسلمون في السنغال، كتاب الأمة 12 الدوحة، قطر.
7. عثمان برايما بري، جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، ط1، 2000 مسيحي، دار الأمين، القاهرة.
8. عز الدين عمر موسى (دكتور)، دراسات إسلامية غرب إفريقية، دار الغرب الإسلامي، ط2، 2003 مسيحي، بيروت، لبنان.
9. كلابرتون ودنهام، رحلة استكشاف إفريقيا، ترجمة عبدالله عبدالرزاق، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003 مسيحي.
10. لوثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة وتعليق شكيب أرسلان، طبعة دار الفكر، بلا تاريخ، بيروت، لبنان.
11. ندوة الإسلام والمسلمون في إفريقيا، 1998 مسيحي، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الجماهيرية العظمى.
12. النيجر اليوم، طبعة جون أفريك.
13. علي يعقوب، اللغة العربية وآدابها في النيجر في عهد الاستعمار، أطروحة دكتوراه بجامعة عثمان بن فوديو عام 2005 مسيحي.

23 ـ انظر: جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، عثمان برايما بري، ص: 75.



لغة الماندينغو وعلاقتها باللغة العربية

أبو بكر كيبا فاتي *

قبيلة الماندنغو، هي إحدى قبائل إفريقيا الغربية الكبرى، وكانت لها حضارة تاريخية عظيمة في هذه المنطقة، حيث إنها أسست مملكة إسلامية كبيرة، في منطقة إفريقيا الغربية، منذ القرن الثاني عشر، حتى نهاية القرن السادس عشر، وكانت هذه المملكة، تمتد من عاصمة النيجر الأعلى، إلى غامبيا السفلى ـ وتسمى مملكة مالي ـ. لقد لعبت هذه المملكة دوراً بارزاً في نشر الإسلام، بين القبائل التي تسكن هذه المناطق، حيث إنها وفرت السلم والأمن في مملكتها، الأمر الذي جعل التجار العرب يتوافدون إليها، ويجوبون هذه البلاد الإفريقية، وهؤلاء التجار، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن نشر هذا الدين الحنيف، وكان تعاملهم مع الأفارقة مثلاً يحتذى، الأمر الذي جعل سكان هذه المنطقة، يقبلون على الدين الإسلامي، برغبة وشغف، كما أن هذه المملكة الفيحاء، وحدت بين شعوب هذه المنطقة، رغم تعدد قبائلهم، لأنهم كانوا يعيشون في ظل هذه الإمبراطورية، تعايش سلم ومحبة، ويعترفون بسلطان واحد، والفضل في ذلك، بعد الله ـ تعالى ـ، يرجع إلى



النظام السياسي المرن، الذي اتخذته قبيلة الماندينغو، لتسيير هذه المملكة، وهذا النظام هو الذي حقق لهذه المملكة عصرًا ذهبيًا، دام أكثر من قرن، وهو نظام الإدارة اللامركزية، حيث كانت المملكة تنقسم إلى ولايات، وكل ولاية يديرها وال، يتبع إدارة الملك[1]. كان من أبرز ملوك هذه المملكة، «مانسا موسى» الذي حج سنة 724هـ/1324م، وكان حجه حدثاً تاريخياً لا ينسى، واصطحب معه في هذا الحج، عددا من الرجال، وكمية كبيرة من الذهب، الذي وزعه على أهل

....

* باحث / غامبيا.

1 ـ انظر تاريخ إفريقيا السوداء / جوزيف ـ كي ـ زيربو. ترجمة يوسف شلب الشام. ص 205 ـ 225.


سونديتا أحد أقوى ملوك مالي

مصر والحجاز، فأدى ذلك إلى انخفاض سعر الذهب في تلك السنة، وعند عودته عاد بالعلماء والمهندسين، الذين شاركوا في بناء هذه المملكة.

هذا الدور الريادي، الذي لعبته قبيلة «الماندينغو»، بالتضامن مع القبائل الأخرى، هو الذي أدى إلى انتشار هذه القبيلة، في معظم بلاد إفريقيا الغربية، حيث كانوا يمارسون التجارة مع الدعوة إلى الإسلام[2]، هذه القبيلة تدين بدين الإسلام، أينما حلت في البلاد التي هاجرت إليها للتجارة، أو نشر الإسلام.

بناء على هذا الانتشار الواسع، الذي حظيت به هذه القبيلة، يمكننا أن نتتبع مواطن شعب هذه القبيلة، في بلاد إفريقيا الغربية في هذا المبحث، ثم نتتبع تقسيماتهم اللغوية، حسب مواقعهم، في المبحث الثاني.

الماندينغو، لغة اتصال منتشر في غامبيا، والسنغال، ومالي، وغينيا بيساو، وغينيا كوناكري، وليبريا، وساحل العاج، وبوركينافاسو، وسيراليون[3]، وغانا. يمكن توضيح هذا الانتشار، بقدر موجز، في النقاط التالية:

1 ـ غامبيا: تسكن قبيلة الماندينغو في جميع أنحاء غامبيا، وهي تحتل المرتبة الأولى، في الكثرة من مجموع القبائل، الموجودة في غامبيا، ولغتها أكثر شيوعا فيها، ويجيدها أغلبية أفراد القبائل الأخرى، التي تتعايش معها، في جو السلام والمصاهرة. ويدين أهلها بالإسلام، وتوجد مراكز دراسية كبرى (كتاتيب)، يتولى التدريس فيها علماء هذه القبيلة.

2 ـ السنغال: تسكن أغلبية قبيلة «الماندينغو» في جنوبي السنغال، في المنطقة المعروفة بـ(كازمانس)، وشرقي البلاد في إقليم (تمباكندا)، وتدين بالإسلام

2 ـ انظر: تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع ص 131 / لليونسكو.

3 ـ انظر: إفريقيا المسلمة، الهوية الضائعة، ص 35/ الخليل النحوي. وكتاب الموسوعة العربية العالمية، المجلد 22، الطبعة الثانية، ص 166 (الماندينغو).

في السنغال. مثل غامبيا، وتوجد أيضاً مراكز دراسية كبرى، لعلماء هذه القبيلة في هذه المناطق. شعب «الماندينغو» في السنغال، له علاقة أخوية وثيقة مع شعب الماندينغو في غامبيا.

3 ـ مالي: دولة مالي هي منبع هذه القبيلة، حيث قامت الإمبراطورية العظمى ـ الممتدة من عاصمة النيجر الأعلى إلى غامبيا السفلى ـ التي أسستها قبيلة الماندينغو، وقيل إن تسمية هذه القبيلة، ترجع إلى منطقة تسمى (ماندي)، وهي توجد في مالي، هناك فرع من فروع هذه القبيلة ـ سيأتي الحديث عن فروع هذه القبيلة ـ تسمى «بمبارا»، هي الأغلبية في مالي، ويجيد لغتها معظم الشعب، تدين هذه القبيلة بالإسلام، كمثلها في الدولتين سابقتي الذكر.

4 ـ غينيا بيساو: هي دولة ذات أقلية مسلمة، وقبيلة الماندينغو، هي غالبية المسلمين في هذا البلد، ويسكن أغلبهم في إقليم (بافتا).

5ـ غينيا كوناكري: قبيلة الماندينغو تحتل المرتبة الثانية بعد الفولانية في غينيا، ولغة الماندينغو، منتشرة جدا في هذا البلد، معظم الماندينغو، يسكنون في المناطق الشمالية، ويدينون بالإسلام.

في غينيا، قبيلة الماندينغو تحتل المرتبة الثانية بعد الفولانية

6 ـ ساحل العاج: قبيلة الماندينغو المعروفة باسم (ديولا) في ساحل العاج، تأتي في المرتبة الأولى من مجموع السكان، وأهل هذه القبيلة يسكنون في شمالي البلد المعروف بمنطقة (بواكي)، ويمارسون التجارة. هذا الاسم جولا يهدي إلى ذلك، لأنه يعني في لغة الماندينغو التاجر، وكتابته ديولا نطق فرنسي، هم يدينون بالإسلام.

7 ـ بوركينافاسو: تسكن قبيلة الماندينغو المعروفة باسم (ديولا) في بوركينافاسو، في جنوبي البلد المعروف بمنطقة (بوبوجولاسو)، وهي منطقة تجارية، وتأتي هذه القبيلة في المرتبة الثانية، بعد قبيلة موسي، التي تحتل المرتبة الأولى، لغة الماندينغو (ديولا)، هي لغة التجارة، والتخاطب، بين الشعب في هذه المنطقة، وهم مسلمون في بوركينا.

8ـ ليبيريا: تسكن قبيلة الماندينغو في شمالي ليبيريا، في المنطقة المعروفة بـ(لوفاكوتا)، ويمارسون التجارة، ويدينون بالإسلام.

9 ـ سيراليون: تقطن قبيلة الماندينغو في شرقي سيراليون، في المنطقة الغنية بالماس، المعروفة بـ(سيفادو)، وكذلك في (كونو)، وهم يمارسون التجارة، ويدينون بالإسلام.

10 ـ غانا: تسكن قبيلة الماندينغو المعروفة باسم (ونكرا)، في غانا، في منطقة (كوماسي) التجارية، ويدينون بالإسلام.

ثانياً: تقسيمات لغة الماندينغو حسب المواطن:

لقدم هذه القبيلة، والدور الذي لعبته في نشر الإسلام، في منطقة إفريقيا الغربية، أدى إلى انتشار قبيلة الماندينغو، في معظم دول غربي إفريقيا، وممارسة التجارة، التي اشتهرت بها هذه القبيلة، لها يد في انتشار القبيلة، لأن التاجر يجوب الأرض، ويستقر حيث تستقر به الأوضاع. هذا الانتشار الواسع في أماكن مختلفة، ومتنائية، بعضها عن بعض، في الأماكن التي هاجر إليها بعض أفراد هذه القبيلة، نتج عنه وجود تسميات متعددة، لقبيلة الماندينغو، كما نتجت عنه أيضاً، فروق بسيطة، في نطق بعض الكلمات، وأحياناً يكون الفرق كبيراً، لكن هذا الاختلاف، في النطق لا يمنع من تفاهم أبناء هذه القبيلة، بلغتهم هذه الماندنكية، مهما اختلفت مواطنهم.

لسبب وجود هذه الاختلافات، في تسمية هذه القبيلة، من مكان إلى آخر، واختلافهم في النطق

أحياناً، أريد إلقاء ضوء موجز، على هذه الفروق، حسب المواطن: في غامبيا، تسمى هذه القبيلة الماندينغو، وكذلك في السنغال، وغينيا بيساو، وغينيا كوناكري، وليبيريا، وسيراليون، وفي مالي تعرف ببمبارا، وفي غانا، تسمى ونكرا، أما في ساحل العاج، وبوركينا فاسو، فتعرف بديولا. هذا الاختلاف في مواقعهم، هو الذي أدى إلى ظهور فروق، في النطق، وتميزت كل منطقة، بنطق خاص، هذه التسميات، هي التي تعرف بفروع قبيلة الماندينغو.

نظراً لاتفاق بعض المناطق في النطق، أرى أن أقسم هذه القبيلة، إلى مجموعتين:

1 ـ قبيلة الماندينغو في غامبيا، والسنغال، وغينيا بيساو، تتفق في النطق.

2 ـ قبيلة الماندينغو في مالي، وغينيا كوناكري، وساحل العاج، وبوركينا فاسو، وليبريا، وسيراليون، وغانا، تتفق في النطق.

يمكن ضرب الأمثلة، على اختلاف نطق بعض الكلمات، بين المجموعتين، في الجدول التالي:

المجموعة الأولى	المجموعة الثانية	معنى الكلمة في العربية
كُعو	كٌ	رأس
يا	ي	عين
تلو	ترو/ كلو	أذن
سسو	دس/ دش	صدر
كبو	كما	كتف
كرتو	كرس/ كرش	سروال
فانو	فان	ثوب
بلو	بل/ برو	يد
سعو	س	رجل
وتو	وتو/ ورو	فخذ
مو	مكو	إنسان
يرو	ير	شجرة
سبو	سكو	لحم
كلو	كل/ كرو	عظم
جيو	جي	ماء
بنكو	بنكو/ بكو	أرض
سمتو	سمر	نعل
دندكو	درك	قميص
سيرا	سكلا	كرسي
كو	ككو	ملح

لغة الماندينغو.. التأثر والتأثير، ومحاولة الكتابة (التدوين) بها:

أولاً:

أ - تأثر لغة الماندينغو، باللغة العربية:

كانت اللغة العربية قبل الإسلام، تتوزع إلى لغات قبائل، وكان ظهور الإسلام انقلاباً كبيراً، في تاريخ اللغة العربية، فقد أخذت لهجات القبائل العربية، تتجمع وتنصهر في لغة واحدة، ولكن اللغة الواحدة الجامعة، لم تعد لغة قوم، بل أصبحت لغة إنسانية، لا يختص بها قوم دون قوم، منذ أن اختارها الله مفصحة، عن خطابه الأزلي للناس أجمعين[4]، هذه الميزة، التي امتازت بها اللغة العربية، من بين لغات العالم، وذلك بنزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين، هي التي جعلت هذه اللغة بالغة الأثر، في تنمية اللغات الإفريقية، وتيسير التواصل بين مجموعات كبيرة من أبناء القارة، ففي كنف الدين الحنيف، تكونت وتنامت لغات جامعة، هي إلى اليوم، أوسع اللغات الإفريقية انتشاراً وأرسخها قدماً، في تاريخ الإنسان الإفريقي، وأعلقها بوجدانه، وأمكنها في حياته اليومية؛ والماندنكية، من إحدى اللغات الإفريقية الكبرى، وهي قبيلة رسخت جذورها في الإسلام منذ أمد بعيد، والدولة التي أسستها هذه القبيلة، خير شاهد على ذلك، وهي مملكة مالي.

بناءً على هذه العلاقة الدينية والتاريخية، التي تجمع بين اللغة العربية واللغات الإفريقية، اقتبست هذه اللغات كثيراً من مفرداتها، من اللغة العربية. والماندنكية، استفادت من هذا الاقتباس.

يمكن الإشارة إلى بعض العوامل الرئيسة، التي أدت إلى تأثير اللغة العربية، في اللغات الإفريقية على النحو التالي:



مانزا موسى أبرز ملوك مالي

1 - **الهجرات البشرية**: يرى الباحثون أن بعض القبائل العربية، نزحت من الجزيرة العربية، قبل الإسلام إلى إفريقيا، وحطت فيها رحالها، مثل سلالات كنعانية، نزحت من العراق، ونزحت بعضها من اليمن، وسلالات صنهاجية[5]، هذه القبائل العربية، التي هاجرت إلى إفريقيا، امتزجت بشعوب هذه القارة وتصاهرت معها.

2 - **الإسلام**: لقد هاجر العرب إلى إفريقيا فاتحين ،منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، فكان فتح مصر، ثم تواصلت الفتوحات في إفريقيا، في عهد عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وما بعده، وسرعان ما تحولت الشعوب والقبائل، التي تقطن شمال إفريقيا، وجزءاً من شرقها وغربها، إلى شعوب مستعربة، اتخذت اللغة العربية، لا لغة عبادة فحسب، وإنما لغة خطاب وتواصل بينهم، وبدخول هؤلاء الفاتحين إلى القارة، والدور الذي لعبه التجار العرب الدعاة، تم ذلك التأثير البالغ للغة العربية، في اللغات الإفريقية.

3 - **التجارة عبر الصحراء**: كانت التجارة بين شمال الصحراء، التي يسكن فيها العرب، وبين جنوبها، حيث تسكن القبائل الإفريقية، وظهرت طرق

4 - المرجع السابق ص 27.

5 المرجع السابق ص 40.

تجارية شرقية، متجهة إلى ليبيا، عن طريق فزان، وإلى مصر، ربطت التجارة بالطريق الغربي، المؤدي إلى بلاد التكرور. عن طريق تافيلاليت. وقد أفادت هذه التجارة، من قوة إمبراطورية مالي، وما ساد عصرها من آمان.

هكذا نرى أن التجارة، هي العامل الآخر، الذي أسهم في إدخال المفردات العربية، إلى اللغات الإفريقية. سيتضح ذلك عند المقارنة هذه العوامل التي سبق ذكرها، وغيرها مع العوامل الأخرى، هي التي أدت إلى التأثير والتواصل الثقافي، بين اللغة العربية، واللغات الإفريقية، التي من بينها لغة الماندينغو، التي أريد عقد مقارنة، بينها وبين العربية في هذا البحث.

نظرًا لوجود فروق، في نطق بعض المفردات، بين فروع قبيلة الماندينغو، من بلد إلى آخر، فإني أعتمد على نطق قبيلة الماندينغو، في غامبيا، عند عقد هذه المقارنة.

المفردات الدينية :

الماندينغو	العربية
ألا	الله
أَنْتَبِيمُّو	نبي
وَحْيُو	وحي
مَلاَيِكو	ملائكة
كتابو	كتاب
القيامه(القيام لع)	القيامة(يوم القيامة)
صراة	صراط
أرجنه	الجنة
جهنم	جهنم
قبرو	قبر
قرو	قمر
صلو	صلاة
ركع	ركوع
سجدو	سجود
قرآ	قراءة
القرنو	القرآن
الفاتيو	الفاتحة
سورو	سورة
جزء	جزء
حزبو	حزب
آيو	آية
دوا	دعاء
سلام عليكم	السلام عليكم
تيا	تحيات (للتشهد في الصلاة)
ألمامو	الإمام
مسرو	مسجد
جامع	جامع
محرابو	محراب
منبرو	منبر
كتبو	خطبة
حرام كبرو	تكبيرة الإحرام
آمين	آمين
حجو	الحج
عمره	عمرة
الكاب	الكعبة
توافو	الطواف
زكو	الزكاة
هديو	هدية
صدا	صدقة
مودو	مد
صوبا	الصبح
لنصرو	العصر
فرلو	فرض
نافلو	نافلة
سنو	سنة
واجبو	واجب

المفردات الاجتماعية والتجارية:

الماندينغو	العربية
أرجمو	الجمعة
سبتو	السبت
لحدو	الأحد
تنن	الاثنين
تلاتو	الثلاثاء
أربو	الأربعاء
أرامسو	الخميس
أراجبو	رجب (شهر رجب)
كيرو	خير
حاجو	حاجة
حقو	حق
حرامو	حرام
نيمو	نعمة
آدو	عادة
درجو	درجة
جمانو	زمان
سببو	سبب
كافورا	كافور
تمرو	تمر
سجادو	سجادة
واتو	وقت
حرمو	حرمة
سنرو	سترة
جنابو	جنابة
سلو	سبيل
حينو	حنو
بركو	بركة
جنو	جن
سيتانو	شيطان
حقلو	عقل

لم يقتصر تأثر لغة الماندينغو، باللغة العربية، على الكلمات المفردة فحسب، بل تجاوزها إلى نظم الأبيات الشعرية، حيث إن الشعر في لغة الماندينغو، ينظم على غرار نظم الشعر العربي، من حيث الوزن والقافية، كما يتفقان أيضاً في الأغراض، من وصف، ومديح، وهجاء..

واليك بعض الأمثلة، كنموذج من أبيات أحد العلماء في غامبيا (كان خليفة جابي)، في مجزوء الكامل، في المعاني الدينية:

1 ـ كورو سيا تبيتلو   سومسيا ونسلو
2 ـ فنيا كفو ونكلو   ولسالبندكوسرا
3 ـ كوم يمسفلومرا   ولنا تمسسبومرا
4 ـ حني سبويمتر   نمبتا كريسرا
5 ـ موروتل كنابدل   إلدوفلي أكنكدل
6 ـ إلدوفلي أكجاسي   ألكيتتا ل كوسرا

تقطيع البيت الأول:

كوروسيا تبيتلو   سومنسياوننسلو
مستفعلن متفعلن   مستفعلن متفعلن

وقال أحدهم في رثاء شيخه (كان سيديا دابو) في البحر الطويل بلغة الماندينغو:

1 ـ ألا يـا رسـول الله يـا سـيـد لـورى
إسـنـجـو بـلـنـدا يسـسـنـد إيـيـفـتـا
2 ـ لـؤومـنـنـبـابـا فـوبـنـن كسـامـيـن
جـمـالـن لسـوتـولانـرول لـيـنـكـتـا
3 ـ نـرول لـجـيـلادوم يـحـيـى تـكـمـربـا
يـحـيـى يـنـروجـي أكـدتـا ألـمـبـتـا

تقطيع البيت الأول:

ألا يـارسـول الله يـا سـيـدلـورى
إسـنـجـوبـلـنـدا يسـسـنـد إيـيـفـتـا
فـعـولـن مـفـاعـيـلـن فـعـولـن مـفـاعـلـن
فـعـولـن مـفـاعـيـلـن فـعـول مـفـاعـلـن

ب ـ التأثير والتأثر، بين لغة الماندينغو، وبعض اللغات الافريقية:

الماندينغو	السوننكي (سرنخولي)	معنى الكلمة في العربية
تيو/ تغو	تغا	الفول السوداني
دندكو/ دركو	دركي	قميص
مايو	مايو	عروس
بَرَمّو	بَرِمِي	جرح
جيو	جي	ماء
بريو/ لارع	بري	سرير
مانو	مار	أرز
ولا	ولا	لوح
كيتو	كيتي	ورقة
فتو	فتو	ثريد
جنكرو	جنكري	سقم
معو	من	شرب
مافو	مكفو	مرق
ألفنكع	ألفنكع	ذكر الله
كوتو	كوتو	ضب

الماندينغو	الفولانية	معنى الكلمة في العربية
مانو	مار	أرز
كيتو	كيت	ورقة
بابا	بابا	أب
كتو	كت	أخ كبير
لبرو/ لبر	لب	ضرب
تويرو	تويكل	ظلم
دتو	دود	مانجو
ليمنو	ليمنو	برتقال
جياتي	جياتك	مضيف
سونو	سون	شعير
سنكو	سنك	خصومة
جاكلو	جاكل	حيرة

حروف لغة الماندينغو، وقواعدها:

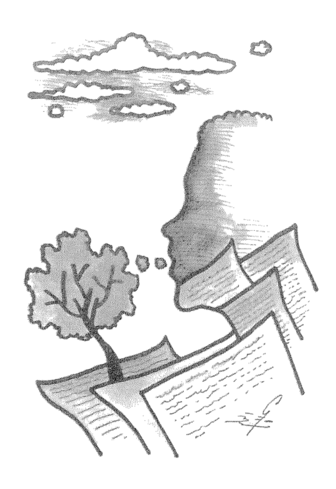
لغة الماندينغو هي كغيرها، من كثير من اللغات الإفريقية، التي تكتب بالحروف العربية، مثل السواحلية، والهوسا، والفولانية وغيرها، أما بعد ما وطأ الاستعمار قدمه، على الأراضي الإفريقية، وما عقب ذلك من استقلال ضمني لدول القارة، فإن الوضع تغير كثيرا، في كتابة هذه اللغات، من الحروف العربية إلى كتابتها بالحروف اللاتينية، بتمويل من المستعمرين الغربيين، لتحل الحروف اللاتينية، محل الحروف العربية، التي كانت رمزاً لهذه الأصوات الإفريقية، لكن هذا لا يعني أن كتابة هذه اللغات بالحروف العربية قد تلاشت، بل إن الشيوخ المعروفين بـ(الكتاتيب)، لا يزالون يكتبون اللغات الإفريقية، بالحروف العربية، التي كانت رمزا لها، قبل الاستعمار.

إن في هذا البحث المتواضع، أرى ضرورة ذكر بعض الجهود الجبارة، التي قدمها بعض علماء قبيلة الماندينغو في غامبيا، ولا يزالون يقدمونها، من ترجمة بعض الكتب الدينية، والشعرية، إلى لغة الماندينغو، مكتوبة بالحروف العربية، من أولئك العلماء الأجلاء، كان خليفة جابي، الذي ترجم كتاب البردة، في مدح النبي ﷺ للبصيري، إلى لغة الماندينغو، ولم تقتصر جهود هذا الشيخ، على الترجمة فحسب، بل إنه نظم أبياتاً، بلغة الماندينغو، على نمط الأبيات العربية، من وزن وقافية وغرض.. كما أشرت إلى بعض أبياته، في المبحث السابق. توفي هذا العالم (رحمه الله) عام 1957م.

ومن علماء قبيلة الماندينغو في غامبيا أيضاً، الحاج بشير إبراهيم دابو (حفظه الله)، الذي قدم كثيراً، ويقدم أعمالاً جديرة بالتقدير، منها ترجمة بعض الكتب الفقهية، على مذهب الإمام مالك (رحمه الله)، إلى لغة الماندينغو، مكتوبة بالحروف العربية، مثل كتاب (الأخضري)، و(العشماوي)، كما ترجم أيضاً، تفسير الجلالين، إلى لغة الماندينغو، لكن

للأسف الشديد، أن هذه الجهود الجبارة، التي قدمها هؤلاء، ما زالت مخطوطة، وهي في حاجة إلى الطباعة.

اخترع عبقري من قبيلة الماندينغو، في غينيا كوناكري، حروفًا وأرقامًا، تكتب بها لغة الماندينغو، وهي منتشرة في غينيا الآن.



قواعد في لغة الماندينغو:

من المؤكد أن لكل لغة نحوها، لأن اللغة لا تفهم بدون النحو، لذلك أود الإشارة، إلى القواعد الأساسية، التي تخضع لها لغة الماندينغو، وهي على النحو التالي:

1 ـ الكلام في لغة الماندينغو، يتكون من اسم وفعل وحرف جر، والفعل ينقسم إلى متعد ولازم[6]. عند تركيب الجملة الاسم يسبق الفعل دائما، وحرف الجر يتأخر دائما، إذا كان الفعل لازماً. من حروف الجر في الماندينغو (كًا) بمعنى على، و(كن) بمعنى في، و(بتَ) بمعنى من. مثال الجملة: محمد سيتَ سِيره كا، بمعنى جلس محمد على الكرسي أو محمد جلس على الكرسي، وفي لغة الماندينغو، لا بد أن يتقدم الاسم في هذه الجملة على الفعل في الكلام الفصيح.

2 ـ لغة الماندينغو تراعي الترتيب في تركيب الجمل، فتبدأ بالفاعل ثم المفعول، مثال ذلك: أبو بكري ولولب، بمعنى ضرب أبو بكر الكلب، أو ضرب الكلب أبوبكر، في العربية. أما في الماندينغو فالترتيب ضروري.

3 ـ في لغة الماندينغو يتقدم الموصوف على الصفة كالعربية، مثال ذلك: كرندٍ كتلا، بمعنى طالب مجد. الموصوف في لغة الماندينغو، لا يجمع إنما تجمع الصفة إذا أراد المتكلم أن يعبر عن جمع الموصوف.

4 ـ علامة الجمع في لغة الماندينغو واحدة عند جميع الأحوال، وهي (لُ) إذا أردت جمع كل كلمة في الماندينغو، تضيف هذا الحرف إلى المفرد، فيصبح جمعا، مثال ذلك: كرمو، بمعنى أستاذ، عند الجمع تقول: كرمولُ، بمعنى أساتذة. ولا توجد علامة للمثنى إلا بذكر العدد.

5 ـ في لغة الماندينغو لا فرق بين المذكر والمؤنث.

6 ـ الفعل في لغة الماندينغو، ينقسم إلى الأزمنة الثلاثة، الماضي والمضارع والأمر.

---

6. هذا هو الأفصح في لغة الماندينغو.



كيفية اشتقاق اسمي الفاعل والمفعول، في لغة الماندينغو:

1ـ يشتق اسم الفاعل في لغة الماندينغو، من المصدر، وذلك بزيادة حرف (نا) إلى بعض المصادر، وحرف (لا) إلى البعض، بمعنى أن لاسم الفاعل شكلين في لغة الماندينغو، مثال الأول: كرأ، مصدر بمعنى القراءة، واسم الفاعل منه (كرّنا) بمعنى القارئ. ومثال الثاني (تامو) مصدر بمعنى سفر، واسم الفاعل منه (تاملا) بمعنى مسافر.

2 ـ يشتق اسم المفعول أيضاً في لغة الماندينغو، من المصدر، وله شكل واحد فقط، وهو زيادة حرف (فع) إلى المصدر، مثال ذلك: (كرّفع) بمعنى مقروء، و(دمرفع) بمعنى مأكول، و(مِنفع) بمعنى مشروب.

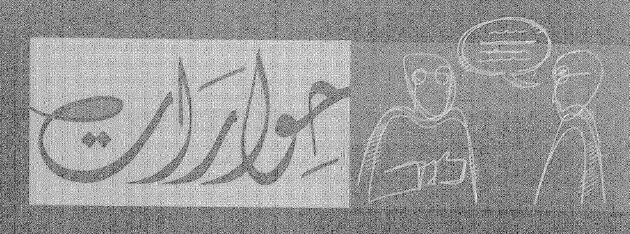
ملاحظة: حرف (فع) يكون كلمة، وعندئذ تعني معنى آخر وهو (شيء) في العربية.

الخاتمـة

الحمد لله الذي هداني إلى الوصول إلى هذه المعلومات القيمة في هذا البحث المتواضع، وهنا أشجع وأوصي المشرفين بتشجيع هذه الأبحاث، وفي مواضيع مقارنة كهذه، وذلك لما رأيته في هذه المقارنة، بين العربية والماندينغو، حيث إن اللغات الإنسانية تتشابه في كثير من الأمور، وتختلف أيضاً في كثير، والمقارنة هي التي تكشف لنا ذلك التشابه أو الاختلاف، الأمر الذي يؤدي إلى سهولة دراسة أي لغة، من اللغات الإنسانية.

استنتجت من هذه المقارنة، أن لغة الماندينغو، قد اقترضت مفردات كثيرة، من اللغة العربية، وإن كان لبعض هذه المفردات المقترضة، اسم خالص في لغة الماندينغو، لكنه كاد ينسى، كما اكتشفت أن لغة الماندينغو، تشارك بعض اللغات الإفريقية، في مفردات كثيرة.

من حيث التشابه بين اللغة العربية والماندنغية، رأيت أنهما تتفقان في تقديم الموصوف على الصفة، ومن حيث الاختلاف، رأيت أن الموصوف لا يجمع في لغة الماندينغو، بينما في العربية يجمع، كما أدركت أن تركيب الجمل والاشتقاق في الماندينغو، لهما كيفية محدودة، أما في العربية، فهي متعددة ومتنوعة.



الكاتبة الصحفية الفرنسية

جينيفيف شوفال:

الغرب لا يعرف حقيقة العرب.

إنصاف صلاح الدين

واعجاب بعائشة أم المؤمنين.

الكاتبة الصحفية الفرنسية جينيفيف شوفال:
الغرب لا يعرف حقيقة العرب
إنصاف صلاح الدين وإعجاب بعائشة أم المؤمنين

حاورها بالإسبانية: د. عبد العاطي محمد عبد الجليل*
نقله إلى العربية: د. الهادي المبروك سالم**



جينيفيف شوفال Genivieve Chauval صحفية وكاتبة فرنسية معروفة، من نخب ورموز إعلامية غربية، تفاعلت مع التحولات الثورية، والنهوض الاجتماعي للوطن العربي، قبل عقود من الزمن، لتعطي اليوم من ثمار هذا التفاعل، شهادات وتقويمات مختزنة بالوجدان والذاكرة، لقائد ثورة الفاتح معمر القذافي، وقد واكبت مسيرته في سنواتها الأولى، واحتفظت للتاريخ من تلك السنوات، بشريط من الذكريات والمواقف، يحلو لها بعد عقود من الزمن، العودة إليها، مع زيارة نفس الأماكن التي كانت تزورها في ليبيا.

في هذا الحوار، الذي جرى مع (شوفال) دون إعداد مسبق، ودون التزام بالشكل التقليدي للمحاورة الصحفية، (تبادرني بالسؤال قبل أن أبدأ، وأحياناً توضح أمراً يخطر بذهني في سياق الحوار) كان لها سرد شيق للجذور العائلية والأسرية، وجوانب من سيرتها الذاتية، وهى - في هذه الجزئية - تثير قدراً كبيراً من الدهشة، حين نرى أن حياة هذه المواطنة الفرنسية توزعت، منذ الطفولة والصبا، ما بين الجزائر وسورية وفرنسا، وتعددت عطاءاتها المهنية بآلة التصوير (الكاميرا) والقلم معاً، يعزز ذلك إتقانها عدة لغات، من بينها الإنجليزية والإسبانية والإيطالية - بالإضافة إلى الفرنسية طبعاً- وهي حالياً تتعلم العربية، وبهذه الإمكانات والأدوات الحرفية،

* كاتب وصحفي وأستاذ جامعي / ليبيا.
** أستاذ جامعي / ليبيا.



صورة القائد القذافي في سنة 1973 / تصوير شوفال

استطاعت القيام بتغطية الكثير من الأحداث في رحلاتها وأسفارها، التي جاوزت بها قلب وأطراف الوطن العربي، إلى العديد من بلدان آسيا وإفريقيا في عقدي السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، وكانت حركات التحرر الوطني في ذروة مدها، وتتواتر أخبارها وإنجازاتها من أنجولا وموزمبيق وجنوب إفريقيا إلى أمريكا اللاتينية، كما قامت بتغطية بعض معارك التحرير في فيتنام، وغينيا البرتغالية.

قالت: هل تصدقون أن في أرشيفي الخاص العديد من الصور التاريخية للقائد معمر القذافي؟

قلت: أية صور تعنين؟

قالت: حديث الصور يطول، كان ذلك في العام 1973، بعد قيام ثورة الفاتح بسنوات قليلة، وكنت وقتئذ التقيت القائد مع فريق «تلفزيوني» فرنسي، رفقة زوجي، الذي كان يعمل محرراً بصحيفة (لو فيجارو) الفرنسية، وكنت موفدة مع الفريق بتكليف خاص من وكالة (سيغما)، وهي من كبريات وكالات التصوير الصحفي في باريس، حيث كنت أعمل مستقلة عن عمل زوجي.

كان لقاؤنا بالقائد، يمثل حدثاً عظيماً بالنسبة لي شخصياً، والتقطت له صوراً كثيرة في مدينة بنغازي وكذلك في المدينة الرياضية هناك، وكنت أشعر بسعادة عندما أستطيع التقاط صور للقائد وهو كعادته يتحدث إلى الناس العاديين، وينصت إلى مطالبهم وأحلامهم، ثم التقينا به في الصحراء والتقطنا له تلك (الصورة الشهيرة) التي أعتز بها، وكانت لنا زيارة إلى بيته في طرابلس، الذي تعرض للغارة الأمريكية في مثل هذا اليوم (الخامس عشر من أبريل عام 1986م)، وهناك صورة للقائد وهو يقود سيارته الصغيرة (الفولكس واجن) الموجودة الآن في البهو الداخلي لمبنى متاحف (السراي الحمراء) في طرابلس، والتقينا القائد وسط الجماهير في الساحات والمدارس والمساجد، يتحدث دائماً للناس جميعاً وللطلاب.

سني الطفولة الأولى في دير الزور والجزائر

قلت: العلاقة مع الوطن العربي كيف كانت بالنسبة لمسيرتك المهنية؟

تساءلت: العلاقة بين العالم العربي والغرب؟

أوضحت: لا، بل أقصد علاقتك الشخصية بالوطن العربي.

قالت: بالنسبة لشخصي لديَّ علاقة قريبة جداً، فعلى الرغم من أنني لم أولد في الجزائر بل ولدت في جنوب فرنسا، إلا أنني كنت كمن ولدت في الجزائر، كانت عائلتي من جهة أمي ومن جهة أبي من الفرنسيين المستوطنين، يعيشون في الجزائر منذ بداية الاحتلال والاستيطان تقريباً، وكانت لجدي من أمي مزرعة كبيرة بالقرب من منطقة سطيف بمدينة قسنطينة، وأبي كان تاجر دقيق ثم بعد ذلك عمل قاضياً يحقق العدالة بالتعاون مع مشايخ القبائل، كان يتحدث العربية الفصحى، وكذلك اللهجة المحلية. إنها ذكريات طيبة، وبعد ميلادي بثلاث سنوات رافقت أبي الذي كان ضابطاً بالجيش الفرنسي إلى سورية، ذهبنا معه أنا وأمي، مكثنا هناك ثلاث سنوات ثم عدنا إلى الجزائر، والسنوات الثلاث الأولى في عمر الإنسان هي من أهم السنوات، كانت إقامتنا في مدينة (دير الزور)، قريباً من نهر الفرات، تلك السنوات تركت انطباعاً جيداً في نفسي، لم يظهر في بداية الحياة ولكنه ظهر فيما بعد، وجعلني أهتم بالوطن العربي، وقد درست في الجزائر القانون السياسي والتجاري والقانون العام.



صور من فيتنام سنة 1973 / تصوير شوفال

سألتها: هل كل تلك الدراسات كانت في الجزائر؟

أجابت: نعم، كانت أولاً في الجزائر ثم بعد ذلك في فرنسا. تزوجت في العام 1961 من صحفي مشهور بصحيفة (لو فيجارو)، كان زوجي كثير الأسفار إلى العالم العربي، وكان يتركني في المنزل، وفي يوم قلت له إما أن يأخذني معه في سفرياته، أو ننفصل.

قلت: هل كل رحلاته كانت للوطن العربي؟

أوضحت: كان يذهب إلى مصر وكردستان واليمن والأردن ويعتذر لي بحجة أن الصحفي ليس بوسعه اصطحاب زوجته.

في إحدى المرات اصطحبني زوجي معه لكنه حاول تركي بالفندق، فقلت له كيف أبقى بالفندق وأنتَ تجري مقابلات مع الرؤساء والوزراء وغيرهم، هل هذه ديمقراطية؟ أريد أن أفعل شيئاً يشبه عملك ويكمله، فالصحفيون يحتاجون دائماً إلى مصور لالتقاط صور المقابلات، وأنا أريد أن أشتغل بمهنة التصوير، قال إنه ليست لي خبرة، وأصبح يعدد الأعذار، لكنه في النهاية سلمني آلة التصوير التي كانت معه: وتلك كانت البداية. تعلمت أن الصورة الجيدة في الصحافة لا تحتاج إلى تعليق، فبمجرد النظر إليها تتعرف على مضمونها، والذي حدث أنني ذهبت إلى بعض الأساتذة في الوطن العربي لاكتساب المزيد من الخبرة!

في العام 1967م ذهبنا إلى أنجولا وموزمبيق، المستعمرات البرتغالية، ثم ذهبنا إلى ڤيتنام في العام 1968، ومن (هانوي) كان أول تحقيق صحفي أجريه وأغطي بعض معارك التحرير في هانوي، بعد ذلك أصبحت متخصصة في التحقيقات الصحفية الحربية، كما قمت بتغطية حرب (الأيام الستة)، ذهبنا أيضا إلى غينيا البرتغالية والتقينا الثوار، وهكذا بدأت عملي

مع وكالة (غاما) الفرنسية ثم انتقلت إلى وكالة (سيغما).

البداية كانت زيارتي إلى ليبيا

قلت: إنها إنجازات مهنية جيدة...

قالت: نعم لقد تخصصت في عمل الاستطلاعات الصحفية، وكانت البداية زيارتي الأولى إلى ليبيا عام 1973م[1]، بعد هذه الزيارة كنت ألتقي الرؤساء والناس المهمين في الوطن العربي، وقمت بتغطية معارك أكتوبر، وعبور القوات المصرية قناة السويس.

تساءلت: هل يمكن القول أنك متخصصة في قضايا الوطن العربي مصورة وصحفية؟

أجابت: نعم، لأنني كنت مصورة وصحفية عندما ذهبنا إلى حرب السويس، كنت هناك بصفة صحفية مع (فريق تلفزيوني)، ثم بعد ذلك بدأت أكتب المقالات، وبعد عشرين سنة توقفت بعض الشيء بسبب وفاة زوجي، ثم استأنفت الكتابة وبدأت تأليف الكتب، كان أول كتاب فكرت فيه هو كتابي (صلاح الدين)، الذي حاولت من خلاله إبانة المواجهة بين المسيحية والإسلام، وبما أنني مسيحية أظهرت كيف يتقبل المسيحيون المسلمين، وهذا الكتاب تمت ترجمته إلى العربية، وتحصل على جائزة (فخر الدين) في لبنان، لأنه أول كتاب يقدمه شخص ليس عربياً وليس مسلماً، محاولاً فيه التعريف بالثقافة العربية الإسلامية.

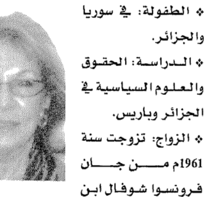
صلاح الدين الأيوبي بين الحقائق والمزاعم

سألتها: لماذا الكتابة عن (صلاح الدين)؟

أجابت: لأنني فكرت أنه في العالم الغربي لا يوجد

(1) شهد عام 1973 مسيحي حدثاً مهماً في إطار فتح نوافذ الحوار مع المفكرين والباحثين في أوروبا، وكانت البداية في باريس، عندما نظم عدد من المشاهير الفرنسيين ندوة عقدت خصيصاً لاستضافة معمر القذافي يوم 1973/11/25، مسيحي استقطبت أعداداً كبيرة من الكتاب والصحفيين ومندوبي وكالات الأنباء (التحرير).

جنيفيف شوفال:




❖ الطفولة: في سوريا والجزائر.
❖ الدراسة: الحقوق والعلوم السياسية في الجزائر وباريس.
❖ الزواج: تزوجت سنة 1961م من جان فرونسوا شوفال ابن السفير جان شوفال.. وكان صحفياً مشهوراً.

المهنة: صحفية، كاتبة، منتجة مجلة إخبارية على موقع القناة الثالثة المرئية والقناة الفضائية (ت ف1).

التصوير الصحفي والتحقيقات الصحفية المهمة:

❖ عملت في الفترة من 1967 إلى 1982م مع وكالتي (غاما) و (سيغما).
❖ غطت حروب: ڤيتنام، أنغولا، الموزمبيق، غينيا، بيافرا، حرب (الأيام الستة) 1967م من سوريا والأردن، أحداث سبتمبر (أيلول الأسود) من عمان والأراضي الفلسطينية المحتلة.
❖ نشرت صورها التي التقطتها في عدد من الصحف والمجلات العالمية، مثل: (التايم، نيوزويك، باري ماتش، لوبوان، الإكسبريس، اشتيرن).
❖ التقطت صوراً مهمة ومشهورة لعدد من الرؤساء والقادة والزعماء، من بينهم: معمر القذافي، الرئيس الڤيتنامي، ملك اليونان، هيلا سيلاسي (امبراطور الحبشة)، الملك حسين (ملك الأردن)، أمراء الخليج، وغيرهم...
❖ تقيم معارض لصورها منذ سنة 1979 م.
❖ صحفية ومنتجة برامج مرئية (1973 / 1981م).
❖ أجرت عدة مقابلات مع عدد من الرؤساء والملوك والزعماء من مختلف دول العالم.
❖ عملت مع وكالة (سيبا بريس) 1983 / 1985م.
❖ اتجهت للتأليف، ولها عدة كتب رومانسية وتاريخية في صياغات روائية.



أمين تحرير (التواصل) وجينيفيف شوفال

الكثيرون ممن يعرفون العالم العربي وحقيقة الإسلام، وأنا أريد التوضيح بأننا متساوون، وأننا ننتمي إلى ديانات متشابهة في المبادئ الأساسية، واليوم يتوجب علينا العمل، جنباً إلى جنب متحدين من أجل السلام، ومن أجل العمل معا يجب أن أفهمك وتفهمني، لأنك إذا تعرفت على الطرف الآخر في ديانته وثقافته تهيأت فرصة التخاطب والتعاون في العمل المشترك.

اخترت (صلاح الدين) لأنه بعد عشرين سنة من العيش في المشرق العربي، والتعرف على كثير من الرؤساء العرب، والكثير من الناس، فكرت أنه بالإمكان أن نقدم للعالم شرحاً وتوضيحاً للنظرة العربية حول العالم الغربي، فمن خلال (الحروب الصليبية) وما قرأته عنها، يجب القول إن الغربيين لم يكونوا دائماً أبرياء، ولا العرب كانوا الأكثر قسوة.

صلاح الدين بطل بالنسبة لنا أيضاً

سألتها: (صلاح الدين) بالنسبة للعرب والمسلمين بطل تاريخي، فكيف هو بالنسبة لكم؟

قالت بتلقائية: وبالنسبة لنا أيضاً هو بطل، صحيح أن بعض الناس يعتقدون أنه غادر وظالم، ويزعمون أنه قتل الكثير من المسيحيين.

قلت بهدوء: (صلاح الدين) لم يقتل المسيحيين.

أجابت وكأنها تستدرك شيئاً ربما لم توصله لي بشكل واضح: لا لا، إنها الحرب التي بدأها الغربيون وهذه محاولة لتصحيح التاريخ.

وقلت: قصة (صلاح الدين والملك ريتشارد) مشهورة جداً.

علقت بهدوء: نعم، إنها مشهورة، لكن الناس يقولون أشياء كثيرة غير صحيحة، وأنا أحاول إظهار الحقيقة، وذلك من خلال أخذ المعلومات من المراجع المسيحية والعربية الموجودة لدينا في المكتبة الوطنية في باريس، حيث توجد لدينا مراجع لا بأس بها باللغة العربية، وكذلك الكتب المترجمة.

قلت: أشكرك كثيراً على هذا الجهد.

مشكلة العرب

ثم حاولت أن أغير دفة الحديث فقلت: تحدثت عن الحرب في الوطن العربي، والمشاكل المعاشة في هذا الجزء من العالم، هؤلاء البشر من الناس العاديين البسطاء، ومنذ أكثر من مائتي سنة وهم يعانون من الآثار المتخلفة عن الاستعمار... لماذا؟ ما هي الدوافع؟ من المسؤول عن ذلك ؟ هل هم الغربيون؟

قالت: أعتقد أنه بالنسبة للغرب لا نستطيع نفي

تلك العقلية الاستعمارية التي كانت سائدة، فقد كانت الإمبراطورية الإنجليزية في تلك الفترة - واليوم الأمريكان - يحملون نفس العقلية، حيث يعتقدون أنهم وُجدوا لقيادة هذا العالم، والسيطرة على الشعوب في ثقافتها ودينها، وأنهم يفكرون في نقل حضارتهم للعالم.

قاطعتها بهدوء، وقلت: نقل الحضارة للعالم أو تحضيره أو العمل على تقدمه شيء إيجابي، ولكن لا يجب أن يكون ذلك بواسطة الحرب والدمار.

قالت بهدوء واضح: نعم، ولكن في تلك الفترة - أعني فترة الاستعمار وقبل قرنين من الزمان - كان هذا هو تفكيرهم، لأن عقليتهم في تلك الفترة كانت مبنية هكذا.

قلت: ولكن هذا ما زال مستمراً حسب ظواهر الأحداث.

حاولت الإيضاح بقولها: لننظر في العقلية قبل قرنين من الزمان كيف كانت، وكيف كانوا يفكرون؟ كانوا يفكرون في استعمار الشعوب والتحكم فيها، وجلب ثقافتهم ودينهم إلى العالم. الوطن العربي في تلك الفترة كان محتلاً من قبل الإمبراطورية العثمانية وتغيرت كثير من الأشياء بعد سقوط هذه الإمبراطورية عام 1920، بعد الحرب العالمية الأولى ففي هذه الفترة قام الفرنسيون والإنجليز بتقاسم الدول العربية فيما بينهم، ظهر ذلك في معاهدة (سايكس/بيكو)، والمصيبة الكبرى بالنسبة للدول العربية تمثلت في (وعد بلفور)، بعدها تغير التاريخ بالكامل، لأن ما كان يريده اليهود ليس بعض المزارع الصغيرة في فلسطين فقط، بل أرادوا بلدا، والآن يريدون المنطقة بكاملها...

قلت: (إسرائيل) كيان ليس له حدود مرسومة ومحددة، بل حدود مفتوحة، وهذا ربما يتوافق وما



صورة الراحل ياسر عرفات / تصوير شوفال

ذهبت إليه حين قلت أن السعي الآن هو احتواء كل الأراضي العربية...

قالت: مشكلة العرب تكمن في التفرق، لكن ما سمعته أمس في الندوة التي حملت عنوان: (المسلمون إلى أين؟) شيء مهم[2]، فما يريدون الحصول عليه لا يمكن أن يكون بالحرب، إنها غير مجدية وغير ممكنة، فهم يمتلكون أسلحة ومعدات حربية، ولكنها أمام الطرف الآخر ربما لا تساوي شيئاً، ومهما امتلكت من قوة فإنه يوجد من هو أقوى منك، الحرب تجلب الدمار والخراب لجزء كبير من هذا العالم، لذلك فإن ما قيل حول إيجاد طريقة أخرى للدفاع، ألا وهو: (الطريق الثالث) الذي أشار إليه معمر القذافي أعتقد أنه جيد جداً، وما قيل حول الثقافة الإسلامية والدين والقرآن أراه جيداً أيضاً، ذلك أن الدين يعني السلام والرحمة، إذا وجدت هذه الحركة الموحدة القوية، ولكن هذا غير موجود في هذه الفترة، انظر مثلاً إلى ما يحدث في(...)[3] وهذا يزكم الأنوف.

انتقلت إلى موضوع آخر وقلت: هناك وضع غير واضح للجميع، فالإسلام لا يعني العرب فقط.

شوفال: نعم، إنه منتشر في كل العالم: يوجد

---

(2) إشارة إلى الندوة التي عقدت صباح يوم 1375/4/15 من وفاة الرسول ﷺ، 2007 مسيحي، بقاعة المحاضرات بالمجمع الاستثماري بجمعية الدعوة الإسلامية العالمية بمشاركة عدد من الباحثين والمثقفين من عدد من بلدان العالم، وكانت شوفال من بين الحضور. (التحرير)

(3) ذكرت (جينيفيف) أسماء بعض الدول العربية.

المسلم الهندي والباكستاني والاندونيسي وغيرهم فهو يعني جميع البشر.

الدين والجغرافيا

قلت: من هنا أستطيع طرح السؤال التالي: (الإسلام والغرب) مصطلح يستعمل في الصحافة والسياسة وبالنسبة لي لم أستطع فهم هذا المصطلح، ذلك أن (الإسلام) دين، و(الغرب) في تصنيفه يكون إما جغرافيا أو ثقافة، إذن لماذا نضع (الإسلام) في مواجهة الجغرافيا أو الثقافة، فالإسلام ليس بلداً في الشرق، كما أن الغرب لا يعني أوروبا أو أمريكا فقط، فإذا كنا نتحدث عن الثقافة فنحن غربيون في ملبسنا ومأكلنا وأثاث بيوتنا، ولن أدخل في نمط التفكير السائد، أما إذا كان (الغرب) يعني الجغرافيا فالإسلام ليس بلداً ولا منطقة، الناس في هذا المصطلح فكرتهم غير واضحة وهذا يدفعنا إلى التساؤل: لماذا الإصرار على استخدام هذا المصطلح في وسائل الإعلام وفي الخطاب السياسي؟

اليوم في (الغرب) وأقول (الغرب) بين قوسين لأنني في الشرق، وأعبّر عن الجانب المقابل للغرب، ذلك أن موقع الإنسان الجغرافي هو الذي يحدد الشرق والغرب بالنسبة له، إنكم في الغرب تقولون: (الغرب والإسلام)، (الغرب والعالم العربي)، لا تقولون مثلاً: (المسيحية أو اليهودية أو الإسلام) لأن الإسلام دين، والعرب قوم يعيشون في وطن يعرف بالوطن العربي، تقولون: (الشرق الأكبر) وتعنون: الإسلام، أما الغرب فهي كلمة تشير إلى مكان، موضع، لماذا هذا التعبير الذي يخلط بين الدين والجغرافيا، أو يضع الدين في مواجهة مع الجغرافيا، أو في مواجهة الثقافة؟

الأمريكان ليست لديهم أي فكرة واضحة عن العرب

قشور الحضارة

وخيّل لي أنني أطلت كثيراً، لكن محدثتي اختارت أن تتناول الموضوع من جانب آخر، ليس بعيداً عما طرحته، لكنه أيضاً ليس قريباً، فقالت: في الغرب وخصوصاً في الولايات المتحدة الأمريكية، لا يعرفون التاريخ، طبعاً نستثني منهم المستشرقين، فالأمريكان ليست لديهم أي فكرة واضحة عن العرب، العرب ليست لديهم شركة مقاهي (ماكدونالد)، ولا المشروب (كوكا كولا).

قلت مقاطعاً: لكل شعب عاداته وتقاليده، من بينها أكله الخاص وأشياؤه الخاصة، ونحن كذلك لنا أكلنا وأشياؤنا الخاصة.

قالت: وهم أناس أقوياء...

قلت: لا يمكن إرغامنا على الأكل في (ماكدونالد) بالقوة، هذا غير معقول.

قالت: لكن ما يحدث هو أننا نُدفع نحو المسميات الأمريكية، وقشور الحضارة الأمريكية، وهذا يحدث في فرنسا أيضاً، وهو غير صحيح، هذه ليست حضارة، وأنا هنا عندما أستعرض القنوات «التلفزيونية» في الفندق لا أجد محطات فرنسية وإنجليزية، ما نشاهده هو بعض «الأفلام» التافهة والهابطة جداً، نظرة الغرب إلى العالم العربي نظرة خاطئة وهابطة.

تساءلت: من المسؤول عن هذا؟

أجابت: أعتقد أن الأمريكان هم الذين يسوّقون هذه الترهات غير المعقولة، التي لا يمكن تسويقها في موطن آخر غير الوطن العربي.

قلت: أين هو الدور أو التأثير الفرنسي والتأثير الإسباني؟ الفرنسيون والإسبان - على سبيل المثال - لِمَ لا يكون لهم دور مهم على الأقل في المنطقة المحيطة بهم؟ فهم من مجموعة دول البحر المتوسط ولهم

مصالحهم في المنطقة وبإمكانهم التأثير إيجابياً....

قالت: أنا لا أعرف لماذا لا يفعلون!!

قلت في نفسي لعلها تعرف أكثر من سبب، لكنها آثرت أن تبتعد عن المنطقة الأشد سخونة، لذا استطردت وقلت: إنه سؤال مفتوح على أية حال، وأفكار ربما ليست واضحة. نحن بشر نجاهد من أجل أن نعيش حياة هادئة إيجابية. لكننا الآن نبني عالما غير واضح المعالم، العرب والغربيون والأفارقة والآسيويون يسعون بجد للحصول على شيء إيجابي، لكننا لا نعرف هل نستطيع ذلك أم لا؟

قالت: يجب بذل مجهود قوي في جميع الجوانب لأجل التعاون، الحرب ليست حلاً، هناك أشياء كثيرة نستطيع عرضها للآخرين، وإيجاد التعاون بين العرب والغرب، والعرب والإسبان، وبين الإسبان والفرنسيين، ولهذا أنا أهتم كثيراً بلغة الحوار، وأعود إلى القول: إن كتابي (صلاح الدين) يتحدث عن الحوار، وأنا غربية أنظر إلى الوطن العربي واضعة نصب عيني كل ما يمكن التعاون بشأنه، نحن مترابطون، خصوصاً في المنطق الديني، أعتقد أن لدينا الفكرة نفسها، البابا (يوحنا بولس الثاني) قال: يجب علينا أن نتقبل أن الديانة المسيحية هي ابنة للديانة اليهودية، وأعتقد أنه سيأتي اليوم الذي نصل فيه إلى قناعة أن (إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد) رسل من رب واحد، وفي كتابي الثاني الذي أقوم بإعداده حول (عائشة) أتحدث عن مسيرة الدين منذ (إبراهيم) وحتى (محمد)، والجديد الذي جاء به (محمد)، إنني أحاول إعطاء فكرة واضحة عن (محمد) وليس كما يسميه الآخرون (ماهوما)[4] أو (موهامات)، فهو (محمد) هذا هو الاسم الصحيح.

قلت: تحدثنا كثيرا عن نظرة من يطلقون على أنفسهم (الغرب)، كيف ترين نظرة العرب لهذا (الغرب)؟



من فيتنام 1973 / تصوير شوفال

قالت: أعتقد أن العرب أيضاً ينظرون إلى الغرب بمنظور ضيق وتسيطر عليهم عقدة النقص، على العرب الاعتزاز بثقافتهم وحضارتهم وتاريخهم، فالحضارة العربية مهمة جدا، ولولاها لما وصل الغرب إلى ما وصل إليه الآن.

حاولت أن ألتقط خيط هذه النقلة، وقلت: لقد تأسست أولى المدارس في أوروبا في الأندلس، والتي كان يأتيها طلاب العلم من كل مكان للتعلم.

ويبدو أن جينيفيف أرادت أن توضح أكثر فقالت: نعم، لقد كانت الأندلس مدرسة، ثم ينبغي ألا ننسى (الحروب الصليبية)، ذلك أنه حين أتى المسيحيون من أوروبا من إيطاليا وفرنسا وألمانيا وغيرها لاحتلال القدس توقفوا هناك، وأسسوا دولاً ومناطق لأجل العيش، وكانوا من شرائح المجتمع المختلفة، منهم الأمراء والملوك والحكام، وقد استفادوا كثيراً من وجودهم هناك، الأمر الذي كان له أثر واضح على الحضارة في أوروبا، صحيح أن إسبانيا لم تبعث جنوداً، لكنها كانت تريد (الحصان الأخضر)[5] و(صلاح الدين) أيضاً كان مهتماً بهذا (الحصان)، وكان يريد الحصول عليه بالقوة.

---

(4) (ماهوما)، اسم يطلقه الإسبان على الرسول محمدﷺ، وهي كلمة تعطي إيحاءات سلبية. (التحرير)

(5) (الحصان الأخضر) مذكور في (سفر الرؤيا)، ويرمز إلى أن من يفوز به سيسيطر على ربع العالم. (التحرير)

قلت: لكن إسبانيا كانت شيئاً آخر، فبينما كانت تدور رحى الحروب الصليبية في الشرق كانت الحرب قائمة ضد المسلمين في الأندلس، ولكن بطريقة أخرى، هذا تاريخ لا نستطيع نسيانه، ولكن الغالبية لا تريد الدخول فيه.

الهجرة

حاولت أن تنتقل إلى موضوع آخر فقالت: نعم، أنظر الآن إلى كل المهاجرين الآتين للعيش في فرنسا وإيطاليا وغيرهما، أحياناً يكونون مرفوضين، نعم، أحياناً لا يمكن قبول الجميع، لكن ما أفكر فيه اليوم هو أن أفضل طريقة يتبعها الأوروبيون لعدم استقبال كثير من المهاجرين، هي العمل على إيجاد حلول لهم في بلدانهم، وفتح مجال شغل لهم، لأن ذلك يعطيهم الاستقرار.

تساءلت: البلدان الإفريقية في حقيقة أمرها غنية، ولكن شعوبها فقيرة، في رأيك إلى أي سبب يا ترى يعود ذلك؟

أجابت: لقد أعطت فرنسا - مثلاً - الكثير من الأموال إلى الحكام الأفارقة بعد الاستقلال، ولكنهم لم يقوموا بصرفها على شعوبهم، بل احتفظوا بها لأنفسهم، وصرفوها على مصالحهم الشخصية، في الوقت الذي كان فيه من الواجب عليهم بناء اقتصاد بلدانهم حتى تستطيع شعوبهم العيش، ويجد الأفراد مواطن شغل يرتزقون منها.

... المسلمون الأوروبيون

قلت: لعله من الصعب التحدث عن (التاريخ) دون أن يجرفنا تيار (السياسة)، أو أن نتحدث عن (الثقافة) دون الحديث عن (التاريخ) كل هذه

قالت:

إسمي: Genivieve Chaoval (جينيفيف شوفال)، درست القانون في الجزائر ثم بعد ذلك في باريس، تزوجت سنة 1961 من صحفي مشهور، وذهبت معه للعمل صحفية، كنا دائماً نذهب إلى البلدان العربية، مثل: ليبيا، الأردن، سوريا، الإمارات العربية، وغيرها. أول الكتب التي نشرتها كان بعنوان (صلاح الدين)، ثم نشرت بعد ذلك كثيراً من الكتب حول بولونيا وفرنسا والإمبراطورة (أوخينيا) و(نابليون) و(قناة السويس) و(لوسريثيا بورجيا)، وفي هذا الكتاب أردت قول الحقيقة حول الإشاعات التي تقول أنها كانت على خلاف مع (البابا)، وأنها كانت تقتل محبيها بالسم، وهي قصة ليست حقيقية، وهذا الكتاب حول (أبوجيا) كانت له أهمية كبرى في إسبانيا، لأنه ترجم إلى

من مؤلفاتها

رسام الملكة



الأولمب



ملكة بالحب

القضايا متداخلة، وأنت صحفية وكاتبة تعرفين الكثير عن الوطن العربي. لكنني أود أن أنتقل إلى موضوع آراه مهما، ويشكل تحدياً ثقافياً واجتماعياً، وأعني: المسلمين الأوروبيين، لماذا لا ينظر إليهم باعتبارهم مسلمين أوروبيين؟ لماذا يقال: (المسلمون في أوروبا) وليس (المسلمون الأوروبيون)؟ هناك فرق كبير في المعنى، أليس ذلك؟.

قالت: في السابق كانت الديانة السائدة في أوروبا هي المسيحية، واليوم يقولون أوروبا العلمانية.

وحتى لا نبحر في محيط لا ساحل له اخترت أن أحصر الحديث في النقطة التي تمت إثارتها، وقلت: هذا كلام فقط، الواقع هو عكس ذلك تماما، إذا كانت أوروبا علمانية (لايكية) فلم لا تطبق مبدأ تعايش الأديان والعقائد؟.

يبدو أن جينيفيف اختارت أن تكون صحفية سياسية. ولذا انتقلت من شاطئ إلى آخر. ربما لتثبت أمراً ما. ولذا قالت: كذلك نستطيع القول في مصر هم مسلمون وفي ليبيا هم مسلمون. وإذا أردنا أن نقارن ففي فرنسا ولندن شيد الكثير من المساجد. بينما في العالم العربي لا توجد كنائس كثيرة.

قلت: الأمر بسيط وواضح للغاية، أولاً: الكنائس منتشرة في معظم أرجاء الوطن العربي، ولا ننس ثانياً أن الأمر برمته مرتبط بعدد أتباع هذه العقيدة أو تلك.

المسيحيون والاضطهاد

يبدو أن محدثتي بدأت تأخذ الزمام في هذا الحوار، وتحولت دون قصد، أو بقصد، لا أدري، إلى محاورة سياسية فقالت: المسيحيون اليوم في العراق وفي لبنان مضطهدون.

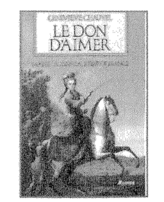
اللغة الإسبانية، كذلك كتبت حول الرسامة (فيجي لوبغان) التي كانت رسامة الملكة (ماريا أنطونيتا).

سألتها: هل نستطيع الاطلاع على هذه الكتب؟

أجابت: نعم، ستجدونها في شبكة المعلومات الدولية. أما أحدث الكتب فهو حول (العراق) و(الصحراء)، وفي شهر أكتوبر سيصدر كتابي الذي حدثتك عنه حول (عائشة)، وهذا الكتاب مهم جداً بالنسبة لي.

استأذنتها: هل بإمكاننا أن نستخدم بعضاً من الصور التي قمت بالتقاطها في مجلتنا؟

قالت مرحبة: نعم، وبإمكانكم إن أردتم استخدام أعمالي التصويرية حول المشاهير والقائد معمر القذافي ...



موهبة الحب

أوجيني: امبراطورة فرنسا



لوكريس بورجي



صلاح الدين

يخيل إليّ أنني أدركت بعض ما ترمي إليه، **فقلت:** هذا ليس صحيحاً، وإن حدث ذلك فإن السياسة لعبت دورها، وأعني بها سياسة الدول التي تدخلت في المنطقة، بدليل أن المسيحيين في الوطن العربي يعيشون بكل هدوء، ولكن عندما دخل (الغربيون) إلى العراق والمنطقة كلها وبدأت الحرب، انقلبت الموازين.

يبدو أن محدثتي أدركت ما أرمي إليه فقالت: نعم، هذا صحيح، في الحقيقة أنه قبل الحرب كان المسيحيون يتمتعون بحقوقهم وكان مستوى معيشتهم جيداً.

قلت: وما يحدث الآن ليس ذنبنا نحن المسلمين، مع تحفظي الكامل حول القول إن المسيحيين في الوطن العربي يعيشون وضعاً قلقاً، ولا ننسى أن المسيحيين العرب من مكونات المجتمع العربي الأساسية.

قالت: نعم، لقد لاحظت هذا في عدد من البلدان العربية، إنهم يعيشون حياة جيدة وعلى العموم يجب علينا عدم الدخول في هذا الموضوع الجدلي لأنه ليس أساس لقائنا.

أدركت أن القضية برمتها كانت مجرد اختبار، ولذا قلت معلقا على محاولة هروبها: نحن نتحدث بكل حرية، ونطل من نافذة واحدة، إنها النافذة المفتوحة.

قالت: وأنا يعجبني هذا.

(عائشة) أم المؤمنين

انتقلت بشكل مفاجئ إلى موضوع آخر وقالت متسائلة: هل تعلم أنني سوف أقوم بنشر كتاب خلال شهر أكتوبر القادم يتحدث عن (عائشة) زوج النبي محمد ﷺ.

علقت بقولي: هذا جيد، ولكن من أي منظور ستكتبين عنها؟.

قالت وهي تتحدث بدفء واضح: إنها رمز للمرأة والحب، ورغم الفارق الكبير عمرياً بينها وبين زوجها محمد إلا أنه كان بينهما حب كبير.

ومع علمي المسبق بوجهة النظر حيال هذا الأمر **سألتها:** كيف ترين ذلك الزواج رغم الفارق العمري بينهما، هل كان أمراً منطقياً؟

أجابت بوضوح: في تلك الفترة، وفي تلك المنطقة يعتبر منطقيًا، لقد رأيت بأم عيني في اليمن رجلاً تجاوز الخمسين وهو أحد شيوخ الصحراء، إلتقاه زوجي وطلب ذلك الشيخ من زوجي زيارته في بيته ليريه كنزاً، تساءلنا ماذا عساه يكون ذلك الكنز الذي يقصده الرجل؟ وعندما ذهبنا رأينا فتاة تصغره كثيراً، وقال لنا: هذه ستصبح زوجتي.

قلت: هذا لم يعد منطقياً في تلك المنطقة؟

قالت: من الواضح أنه غير منطقي الآن، ولكنه كان منطقياً في السابق، وهذا يحصل دائمًا حتى في العالم المتحضر، وقد كان طبيعياً في العصور الوسطى في فرنسا وإسبانيا وغيرهما، فزواج البنات في سن مبكرة مثل الحادية عشرة أو الثانية عشرة كان متعارفاً عليه. هم بشر مثلنا، والدين متعمق في العالم العربي، نحن اليوم في العالم الغربي أضعنا الشعور بالقدسية الدينية، وهذا ما أتحدث عنه في كتابي الذي سأنشره عن حياة (السيدة) عائشة.

❖❖❖

في ختام هذا الحوار الذي لامس نقاطاً عديدة قلت: إنها المرة الأولى التي تزورين فيها جمعية الدعوة الإسلامية العالمية..

أجابت: نعم إنها المرة الأولى.

علقت على ذلك بقولي: أتمنى تكرار الزيارة حتى تتمكني من التعرف أكثر على نشاطاتنا.

بدأ الهدوء يخيم على الحوار، وهذا ما لمسته من قولها: ما أراه يدل فعلاً على نشاط فعال في ليبيا، ولا غرابة في ذلك، فالحرية والمظاهر الحضارية سمة عربية من حيث الاهتمام بالثقافة ونشر الكتاب واكتشاف الجديد.

قلت للزميلة شوفال وأنا أهم بتوديعها: أشكركِ كثيراً وأكرر ترحيبي بكِ في (صحيفة الدعوة الإسلامية) ومجلة (التواصل).

استطلاعات

أغاديس

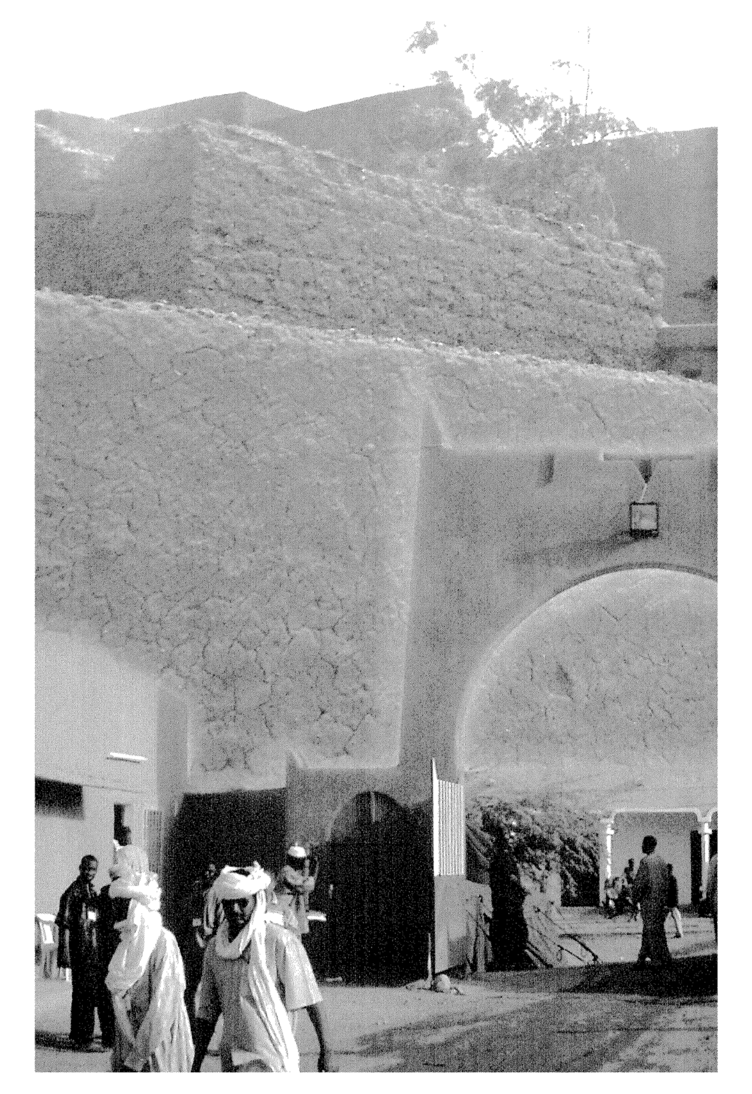
مدينة الأسوار المفتوحة

أغاديس

مدينة الأسوار المفتوحة

إعداد: جمال الدين محمد*
تصوير: م. اسكوديرو
ع. كاراسكو
س. مانويل

* باحث / النيجر



اسم أغاديس:

م

من المفيد جداً، أن ألقي الضوء في مستهل حديثي حول تاريخ أغاديس. على كلمة أغاديس ومعناها. ولقد شاعت بين الطوارق الأوليميدين "Ouillimidin" سكان الشرق، ويعنون بها: الأسرة أو التجمع، إلا أن بعض الأغاديسيين يقولون، إن الاسم مأخوذ من الكلمة الطوارقية «تغدس» وتعنى الزيارة، فتكون أغاديس حسب قولهم، مكان الزيارة، ولعلهم على صواب فيما ذهبوا إليه، إذ أن الطوارق يفدون إليها من ضواحيها وقراهم وأماكنهم المتاخمة للصحراء، فيقابلون أميرهم سلطان أغاديس.

الموقع الجغرافي:

تقع منطقة أغاديس في أقصى شمال دولة النيجر الحالية، وتبعد عن العاصمة نيامي بحوالي ألف كلم، وتمثل أحد حواجز إفريقيا فيما وراء الصحراء. قال عنها مارمول: (إنها تقع إلى الغرب من إقليم جوبر) [1] كما قال عنها التنبكتي، بأنها بلدة قريبة من بلاد السودان، وهي معمورة من قبائل صنهاجة [2] أما محمد بلو [3] فهو أدق تحديداً لأغاديس (آيير) حيث ذكر أنها بلاد واسعة، وقيعان ممتدة، يُعمّرها الطوارق وبقايا صنهاجة وبقايا السودان، وأضاف: إن الإسلام انتشر في هذا الإقليم كثيراً، وظهرت في أهله البركة



منزل في أغاديس

1 ـ انظر: مارمول كرنجال. إفريقية ترجمة محمد حجي ومحمد زنيبر وآخرون، الرباط، ص 207/206.

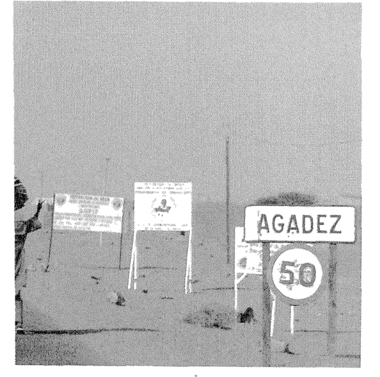
2 ـ انظر: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكتي، ص 353.

3 ـ انظر: إنفاق الميسور، محمد بلو، الفصل السادس في حديثه عن أهير (أغاديس).

جزء من مدينة أغاديس

والخير، وكان منهم العلماء والأولياء ممن لا يحصيهم إلا الله، وضاعت أسماءمعظمهم، لعدم تسجيل التاريخ في هذه البلاد، ولكن سأتحدث عن بعضهم إن شاء الله.

وأغاديس اليوم تضم أهم المدن والمراكز التاريخية والإسلامية، في إفريقيا ما وراء الصحراء، وأهمها مدينة أغاديس الحالية، ويطلق عليها آيير(Aïr) نسبة إلى الجبل المشهور، وهي الجوهرة الثمينة والمعلمة الحضارية، التي أفرزتها العلاقات العربية الإفريقية في بلاد ماوراء الصحراء، وتضم بين أجنحتها واحة «بلما» (Bilma) التي هي جزء من أغاديس متاخم لليبيا، وبها أيضاً تجدّة (Tigida) و«أرليت» و«تشغزرن» وغيرها من الأماكن التاريخية، وتقدر مساحتها بحوالي 60٪ من مجموع الأراضي التابعة لدولة النيجر الحديثة، وتتوسط طاوا وزندر[4] ولها حدود مع ليبيا والجزائر، وأراضيها صحراوية، وجوها صحراوي جاف، ودرجة الحرارة فيها مرتفعة، كما أنها في أيام الشتاء شديدة البرودة، وبها مرتفعات جبلية عملاقة،



في الطريق إلى أغاديس

نذكر منها: «بغزن» (Bagzan 2020m) و«آيير»(Aïr) و«تمغك» (Tamghak) وغيرها من المرتفعات، ومن أبرز المدن التي يتكون منها إقليم آيير اليوم: أغاديس وأرليت وتشيغزرن وإفروان وتشميا وغيرهم...

4 انظر مجلة العربي، العدد 282 مايو 1982م ص 102 إلى123، نقلاً عن موسوعة المدن الإسلامية، يحيى شابي ص 397.

أغاديس وسكانها:

توصف في الكتب القديمة بأنها مدينة مسورة، بناها الملوك المحدثون على تخوم ليبيا[5] وهي مدينة السود، التي تكاد تكون أبهى من مدن البيض، باستثناء «ولاتة»[6]، ودُورها متقنة البناء جداً، وجميع سكانها تقريباً من التجار والأجانب، وأهل البلاد فيها قليلون، وهم الطوارق، قبل تأسيس السلطنة، وأمغيسن بعدها، وسكانها يعملون صُنّاعاً حتى هذه اللحظة، أو جنوداً للملك أغاديس قديما، وهي مركز تجاري قديم ومهم، من مراكز التجارة في وسط بلاد الطوارق وفي قلب الصحراء، وقد كانت مقر السلطان، وعدد سكانها كثير، بالإضافة إلى كونها مركزاً إسلامياً هاماً، وبها المسجد الشهير بمئذنته التاريخية، وهي مقصد الزوار والرحالة.

تعد أغاديس من حواضر إفريقيا الهامة، فيما وراء الصحراء، إذ كانت ملتقى للقوافل التجارية القادمة من الشمال الإفريقي، مما جعلها تتبوأ موقعها المرموق، ويذيع صيتها بين المدن كمركز تجاري حي، إذ من النادر أن يمر يوم إلا وقد قدمت قافلة أو غادرت أخرى، واشتهرت بالعديد من



متجر صغير في أغاديس

5 ـ انظر وصف إفريقية للوزان ج/2 ص 171.

6 ـ انظر تراجم علماء باغرام، مخطوط بمكتبة الباحث الليبي، الدكتور الهادي مبروك الدالي، تصنيف 8. وإنفاق الميسور محمد بلو الفصل السادس (أهير).



طوارق من أغاديس

الصناعات التقليدية التي ما زالت تجذب انتباه السياح وتستهوي قلوبهم، منها: السرج والرحل وغيرها من المنسوجات الجلدية التي تفوّق فيها سكان أغاديس.

وازدادت شهرة في القرن الخامس عشر الميلادي فنالت اهتمام كتّاب العرب ورحالتهم، أمثال: ابن بطوطة وغيره.

التركيبة السكانية:

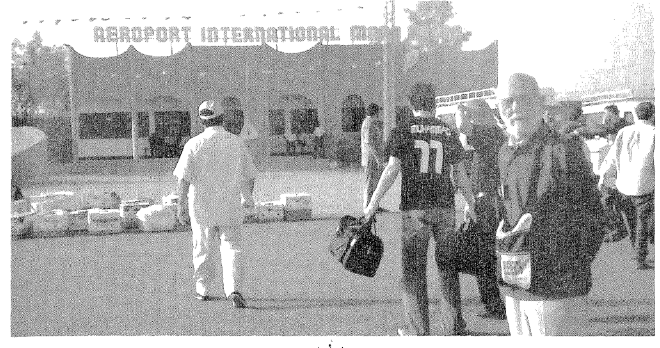
النسيج الاجتماعي لسكان أغاديس، خليط من الطوارق والتيبو والهوسا، ويرجع السبب في ذلك إلى التواصل العريق الممتد الجذور في أعماق التاريخ، وقد أفرزه الجو الصحراوي النقي بمظاهره الطبيعية الخلابة، فبنت هذه الشعوب الطاهرة علاقات أخوية مجسدة الآية الكريمة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحجرات، الآية: 13]

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن هناك قبائل ليبية مشهورة سكنت أغاديس، ويذكر أنها خمس قبائل من مدينة أوجلة، وهي: أمكيتا وتملك، وسندار، واكدال، واجدارنين. كما توجد أسر مغربية ترجع أصولها إلى سلالة العلماء المغاربة، الذين وفدوا إليها لنشر الإسلام واللغة العربية، ولم تكن الجزائر هي الأخرى بمنأى عن هذا التواصل الممتد، فانصهرت في بوتقة النسيج الاجتماعي الأغاديسي عبر التاريخ، حيث زار علماؤها أغاديس، ومنهم من هاجر إليها وأقام فيها مع أسرته إلى اليوم.

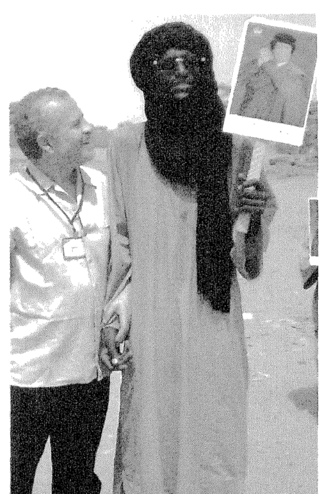
اللغة المتداولة:

اللغة المتداولة في هذه المدينة تعبر عن الشعوب التي تقطنها، إذ هي خليط من الطوارقية والعربية والتركية، والهوسا، التي تغلب عليها، لما عرف عن قبائل الهوسا من تأثير في أغاديس، بسبب التجارة وغيرها، وتسمى (أغدسستتشي) نسبة إلى أغاديس،



مطار أغاديس

ويكفي أن تتبين حقيقة ذلك، من خلال الألفاظ الطوارقية القديمة التي يستعملها سكان أغاديس في معاملاتهم اليومية، بالإضافة إلى الخصوصية التي يتميز بها لسان الأغاديسيين، في نطق بعض الألفاظ الهوسوية.



أسكوديرو يسار، وأحد أبناء أغاديس

إمارة أو سلطنة أغاديس:

القبائل المؤسسة لأغاديس، شعرت بخطورة الصراعات التي تمليها الاتجاهات القومية والقبلية عند تعارض المصالح الاجتماعية والقومية، فاضطرت منذ البداية إلى تأسيس إمارة مختصة بفض النزاعات وإصلاح ذات البين، وقد أفاد (مارمول) بأن حكام أغاديس من قبيلة ونزريكة، نسبة إلى بلدة ونزريك إحدى المدن الليبية، ويمتلك أميرها قصراً جميلاً وسط المدينة، ويقيم على حراسة شديدة[7]، إلا أن لهذه القبائل الحق في عزله، إذا خرج عن الخط المرسوم للإمارة، ويستخلص أميرها مبالغ مالية هامة، من الضرائب على البضائع المستوردة.

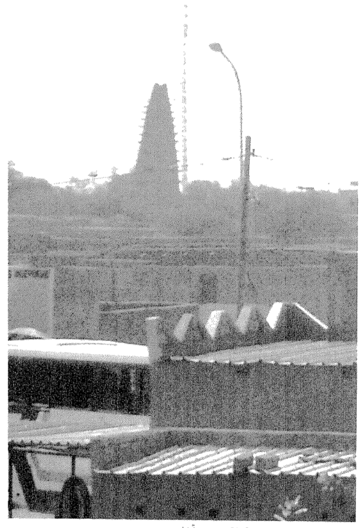
7 ـ انظر إفريقيا مارمول ص 206/ 207.

ولقد شهدت إمارة آغاديس تطوراً ملحوظاً حينما تحولت إلى سلطنة دينية، يرجع تاريخها إلى أن الطوارق استنجدوا بالخلافة الإسلامية في تركيا، لتزودهم بسلطان محايد، يقيم بينهم لنزع فتيل التوتر الذي يحدث بينهم من وقت وآخر. وتم لهم ذلك، فكان أول سلطان يأتي من اسطنبول بتركيا، اسمه «يونس» مصحوباً بمجموعة من آقاربه وأصدقائه وهم الذين يسمون اليوم «أغدسساوا».


راحلة قرب أغاديس

قصر سلطان أغاديس:

سلطان أغاديس جاء من إسطنبول، وتذكر الرواية التي نقلت خبر الطوارق الذين خرجوا إلى بلاد تركيا في طلبه، تذكرأنهم كانوا خمسمائة رجل، وصل منهم إلى إسطنبول سبعون فقط، وهذا ما جعل سلطان اسطنبول يترأف بهم ويقدم لهم ابنه ليكون سلطاناً عليهم، وقبل وصولهم إلى أغاديس رموا سهماً من بعيد، ولم يعثر عليه إلا بعد مسيرة سبعة أيام، ولقد تم بناء قصر ملك أغاديس الحالي في مكانه.


مئذنة مسجد أغاديس

الحياة الاقتصادية:

المدينة مركز تجاري عريق ومهم، وهو أحد المراكز التجارية في الصحراء وسط بلاد السودان، ويعتبر ملتقى للقوافل التجارية القادمة من الشمال الإفريقي عبر الطرق الآتية:

- ❖ طريق القيروان، توات، أغاديس، زندر، كانو، النجيمي.
- ❖ وطريق غدامس إلى بلاد الهوسا، عن طريق غات و(آيير) أغاديس.

والطابع العام الذي يغلب على المدينة هو غدو ورواح القوافل، حيث لا يخلو يوماً إلا وقد جاءت قافلة

أو غادرت أخرى، ولقد اشتهرت أغاديس بموارد اقتصادية جمة منها:

الصناعات التقليدية

وتضم المصنوعات الجلدية مثل السرج والرحل «وبلكا» و«استفر» وغيرها، كما تزخر بمنسوجات مختلفة تزدحم بها أسواق أغاديس، ويشترك في صناعتها الرجال والنساء، ويؤيده ما ألمح إليه حسن الوزان في قوله: إن أهلها يعملون صُنّاعاً، وتختص النساء بصناعة الحصير والصناديق والحقائب المصنوعة باليد.

الصياغة والحدادة

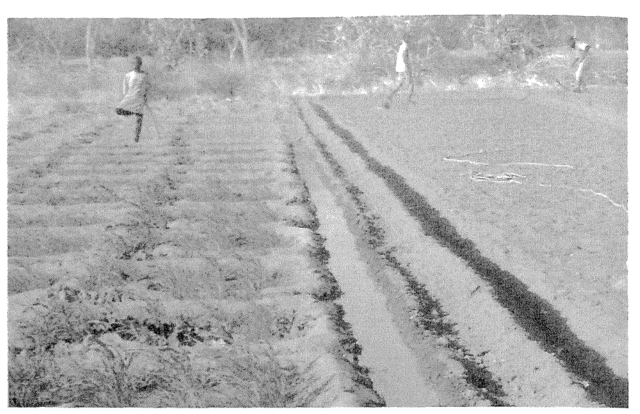
أسهمت الحدادة في تنشيط اقتصاد أغاديس، حيث تفوّق حدادوها بإبداعاتهم الساحرة، في صياغة الذهب والفضة والسكاكين والسيوف والحلي وغيرها، ولقد جلبت هذه الصناعة لأغاديس تدفق السياح من مختلف بلدان العالم لاقتناء ما يناسبهم منها.




أطفال من أغاديس




سوق صغيرة في أغاديس



حقول في أغاديس



الزراعة

نسبة الأمطار قليلة جداً في الصحراء وأغاديس جزء منها، إلا أنها غنية بالمياه الجوفية العذبة، ويستغل سكانها هذه المياه في إنتاج المحاصيل الزراعية، منها الخضراوات بمختلف أنواعها، وفي «إنغل» و«بلما» مثلاً أشجار النخيل ذات التمور اللذيذة، كما توجد في «تشميا» و«تابيلوت» بساتين مكتظة بأشجار الرمان والعنب والليمون والمانغا...

الرعي

تغلب الصبغة البدوية على الطابع العام لسكان أغاديس المنحدرين من الصحراء، حيث اشتهروا بالرعي، ولا تكاد تجد بيتاً في أغاديس إلا ويمتلك أصحابه رؤوساً من المواشي التي يستفيدون من حليبها ولحومها، وفي المناطق الجبلية الواقعة في ضواحيها التي لم تتأثر بالمدنية مازالوا يمتلكون آلاف الجمال والأغنام والحمير، بخيامهم يمارسون الرعي ويتنقلون في الصحراء.

مناجم الملح

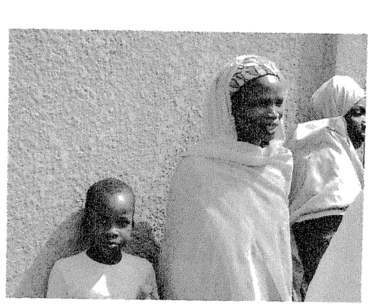
تضم واحة أغاديس أراض ملحية مثل «بلما وتجدة» ولقد ساعد الملح في تطورها الاقتصادي قديماً وحديثاً كما يستغله سكان المنطقة في الطبخ والرعي.

اليورانيوم والفحم

اليورانيوم الذي تعتمد عليه دولة النيجر في اقتصادها الوطني، يوجد في أغاديس، بالتحديد في أرليت (Arlit) ويقوم بالعمل فيه شركتان.

تحضير الشواء للعرس في أغاديس

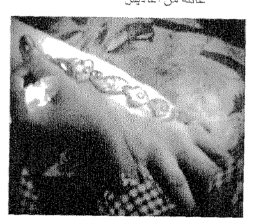
أما الفحم فيوجد في «تشغزرن» وتتولى العمل فيه شركة متخصصة. وتستغله منطقة أغاديس في إنتاج الكهرباء، وتذكر السلطات أنه تم اكتشاف النفط في المنطقة، ويتوقع مزيد من الاكتشافات مستقبلاً.



عائلة من أغاديس

النشاط الاجتماعي:

الزواج وحفلاته: يعتبر الزواج من أهم الأفراح، وقد اهتم به سكان أغاديس قديماً وحديثاً، وإن بدت فيه بعض التغييرات الطفيفة التي لا تلمس جوهره، حيث تتزاحم فيه الحفلات، وهذا ما يجعل المرء يقف منبهراً أمام الكم الهائل من المصروفات التي تنفقها الأسرة التي تزوج ابنها أو بنتها، ومن أهم هذه الحفلات:



حفلة عقد الزواج

وتبدأ منذ ليلة عقد الزواج في بيت أسرة العريس، حيث تقوم نساء الحي والأقرباء بالمشاركة الفعالة في إعداد الكعك والكسكوس والخبز، وهى أصناف من

الطعام الشعبي لسكان آغاديس، بالإضافة إلى بعض الأشربة التي منها «تشقبس» وتصنع من القمح أو الحبوب المخلوطة بعجين التمر والجبن، كما تطبخ اللحوم وتشوى بتفنن، وبعد عقد الزواج يجتمع الناس في بيت العريس، للأكل والشرب في أمسية شعبية حافلة بالمطارحات الشعرية، وغالبًا ما تكون من القصيدة المنفرجة التي يحفظها علماء المدينة، بالإضافة إلى نشاطات متنوعة تهز الوجدان والمشاعر.

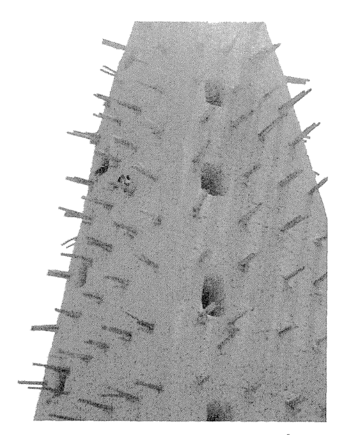
حفلة بركا

نلمس في كلمة «بركا» معناها العربي الذي يقصد به الأغاديسيون المشاركة الشعبية في أفراح الأسر التي تزوج أبناءها، وفي هذا اليوم التاريخي المشهودتخصص ساحة يجتمع فيها ممثلو الأسرتين بعد صلاة العصر، رجالاً ونساء يصحبهم فيها العروسان. بعد آن يتم تزيينهما بالزينات الشعبية الزاهية. والكل يرتدي الزي الشعبي، فترى النساء يلبسن قميصاً فضفاضاً. أسود أو أبيض اللون، مطرزاً بالخيوط الحمراء والخضراء وعلى رؤوسهن الخمار الأسود المسمى (تركدي)، وقد يتزيّن بالذهب.

أما الرجال، فهم أيضاً يتزينون بالملابس الفضفاضة مزدوجة اللون كالأسود والأبيض أو الأبيض والأزرق وعلى رؤوسهم عمائم، وهدف هذا الملتقى هو التعارف بين الأسرتين ، وهو يوم تناول العسل، الذي تحمله ثلاث نسوة سمان جميلات، من أسرة العروس ليطعمنه لثلاث نساء نحيفات من أسرة العريس، وموجة من الزغاريد المعبرة عن الحب وتعزيز العلاقات والروابط الاجتماعية



استراحة في خيمة بأغاديس





الإبل: وسيلة من وسائل المواصلات

الأعياد الدينية:

اشتهرت أغاديس بأعيادها المختلفة، منها الموروث الذي أفرزته الحياة الصحراوية بعطائها الفياض، ومنها غير ذلك وسنوجز القول فيها كالآتي:

عيد بيان (Bianou)

وهو مستوحى من السيرة النبوية، عن استقبال أهل المدينة المنورة الرسول عليه الصلاة والسلام حينما حل بها مهاجراً، فجعل أهل أغاديس هذا الحدث الإسلامي عيداً يحتفلون به في كل سنة، فيخرجون أطفالاً ونساء، شباباً وشيوخاً، وقد ارتدوا أحسن ملابسهم وأبهى زينتهم، يضربون الطبول ويرددون الأناشيد الحماسية، ويرقصون بأيديهم رماح وسيوف وسعف من جريد النخل (تشزدي)، ولرقصاتهم وقع وأثر كبير في النفس تستهوي المشاهدين، ويستغرق هذا العيد ثلاثة أيام متتالية، يبدأ من الصباح إلى غروب الشمس، ويوافق الآن يوم عاشوراء في كل عام.

عيد كرسلي

وهو خاص برعاة منطقة أغاديس ومزارعيها، يقام في «إنغل» التي تبعد من أغاديس حوالي مائتي كيلومتراً، فيلتقي فيها هؤلاء للتعارف وعرض منتجاتهم وخبراتهم، وتتخلله عروض شعبية ممزوجة بالأغاني والرقصات الطوارقية الساحرة، وأهمية هذا العيد تكمن في أن جميع سلطنات الطوارق الشمالية تشارك فيه ومن خلاله يجرون مباحثات حول القضايا المشتركة، وتتخذ بعض القرارات والتوصيات التي تكون في صالحهم، وينضوون أثناء هذا الملتقى تحت لواء واحد وهو «أمغر» الطوارق (قائدهم).

الأعياد الإسلامية

وتضم عيد الفطر والأضحى والمولد النبوي الشريف، وفي هذه الأعياد يجتمع سكان أغاديس وضواحيها وأريافها في قصر سلطانهم لتهنئته بالعيد، فتضرب الطبول مصحوبة بالمزامير التقليدية ليمتطي سلطان أغاديس فرسه الذي تم تزيينه، فيصحبه

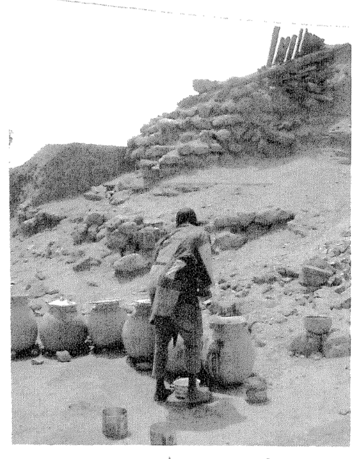
مسجد أغاديس

موكب من الخيول الماثلة ليتجول في المدينة ويتفقد أحوال سكانها كما يطلع على الأماكن التاريخية فيها، وهو اليوم الوحيد الذي يغادر فيه السلطان قصره طيلة السنة.

❖ دخول الإسلام في أغاديس:

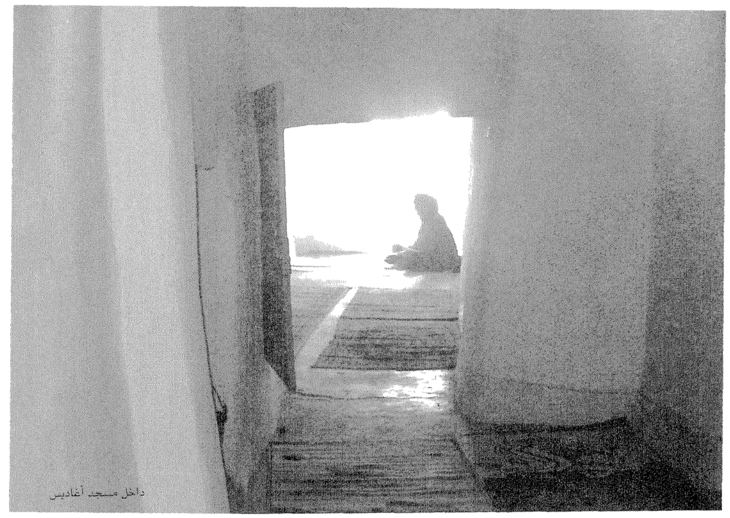
إذا كانت الغريزة الدينية مشتركة بين البشر جميعاً، والاهتمام بالقوة الإلهية وما وراء الطبيعة لتسيير الحياة وحماية البشر والكون، مشتركة بين الناس، فشأن سكان أغاديس لا يختلف البتة عن بقية البشر، إذ كانوا وثنيين، ولا دينيين، يقدمون القرابين حسب معتقداتهم - طلباً للحماية ودفعاً للشر الذي يتربص بهم قبل مجيء الإسلام.

و أغاديس هي البوابة التي دخل منها الإسلام بلاد النيجر في القرن السابع الميلادي، الأول الهجري، بعد وصول القائد العربي عقبة بن نافع إليها، فهو الذي فتح فزان وكاوار[8]، وهي المنطقة الأولى التي



آنية للوضوء في مسجد أغاديس

8- انظر :النيجر اليوم، منشورات جون أفريك، المكتب العربي للترجمة ص 20.


داخل مسجد أغاديس

دخلها الإسلام واللغة العربية في النيجر، وهي تقع في أقصى الشمال حالياً، وتتبع مدينة أغاديس بالقرب من حدودها مع ليبيا وتشاد، وأهم مدنها: (بلما) [9] و(دركو) [10].

و يعزز هذا الوصول المبكر للدين الإسلامي إلى منطقة أغاديس، حقيقة أن الصحراء لم تكن دائماً حاجزاً بين المنطقتين في الشمال منها والجنوب، بل كانت أحياناً همزة وصل ووسيلة ارتباط متينة، فإذا بقطريها كالجسد الواحد إذا اشكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحمى.

❖ انتشار الإسلام في آيير:

يطلق آيير على الرقعة الجغرافية التي تضم (أغاديس وبلما وتجدة) وغيرها نسبة إلى جبل آيير المشهور، وقد انتشر فيها الإسلام وازدهر في القرن العاشر الميلادي وذلك للأسباب التالية:

- طبيعة الموقع الجغرافي، كجسر للإسلام إلى هذه البلاد من الشمال الإفريقي، ولا يستغرب في هذا الانتشار إذ أن الصحراء التي تفصل بلدان شمال إفريقيا وبلاد النيجر متصلة ببعضها.
- جاذبية العقيدة الإسلامية، إذ أن شعار الوحدة والتجانس والتعاون واحترام حقوق الإنسان الذي تتمتع به العقيدة الإسلامية تجتذب غير المسلمين نحوه، إذ يتقاسم جميع المسلمين عقيدة واحدة وعبادات متحدة لا تختلف في أصولها، مهما تباين مكان وزمان معتنقيها، ومهما تباعدت أصول أتباعها ولغاتهم وألوانهم وظروف حياتهم.
- سهولة الإسلام وبساطته: لأنه دين فطري يوافق

---

9 ـ واحة من مجموعات الواحات التي أطلق عليها الغرب (كاوار)، دائرة المعارف الإسلامية ج/4 ص 115.

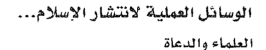
10 ـ انظر: امبراطورية البرنو الإسلامية، إبراهيم علي طرفان، ص 145.

الفطرة الإنسانية حيث لا يكلف الله نفسا بما لا تطيق القيام به، قال تعالى:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾
[سورة البقرة، الآية: 286]

وساهم ذلك في انتشار الإسلام بسرعة مذهلة في أنحاء آيير.

- التفوق الاجتماعي الذي يضمنه الإسلام لأتباعه، إذ يهيئ للفرد المسلم نوعاً من التفتح على العالم الخارجي، بما يزوده من استعداد فكري ونفسي، ويدفعه إلى التطلع لحياة أرقى وأفضل ويخرجه من وضع اجتماعي وثقافي واقتصادي مفض به إلى وضع أرقى وأسمى.



الوسائل العملية لانتشار الإسلام...

العلماء والدعاة

نظراً إلى الحرص الشديد الذي التزم به الفاتحون، في تثبيت دعائم العقيدة الإسلامية في نفوس سكان الأماكن المفتوحة، فقد بقيت منهم مجموعة من الدعاة في هذه المناطق لتعليم الناس وتثقيفهم، بالإضافة إلى العلماء الزوار الوافدين من

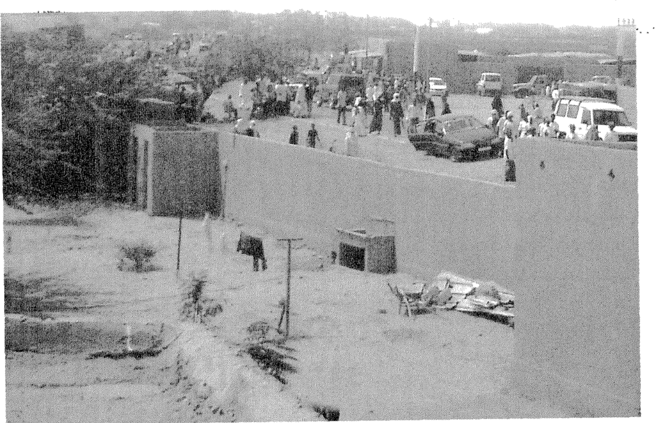


بعض من أهالي أغاديس

المغرب العربي، خصوصاً من ليبيا والمغرب والجزائر، وقد تخرج على أيدي هؤلاء العلماء شيوخ أجلاء، نالوا شهرة علمية لا يشق لها غبار، فواصلوا المشوار لرفع راية الإسلام في المنطقة وغيرها.

المراكز الدينية: (المدن)

تضم أغاديس مراكز أساسية ومهمة بالنسبة للإسلام واللغة العربية، أمثال: كاوار وتجدة، التي ذكرها ابن بطوطة في رحلته المشهورة، حيث يقول: إنها

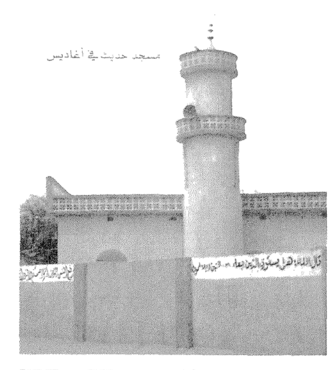


التزكيتي وغيرهم، وقد انتشر الإسلام في هذا الإقليم انتشاراً واسعاً، بعزيمة هؤلاء الدعاة، فظهر في أهله البركة والخير، فكان منهم شيوخ وأولياء.

الجوامع والمساجد

وأشهر المساجد التي رمت بسهم وافر في انتشار الإسلام بأغاديس، يرجع تاريخ تأسيسها استناداً إلى الروايات المتداولة بين سكان وأهالي المدينة، وأثبتها بما لا يدع مجالاً للشك الشيخ بخاري تانودى الأغدسي في مؤلفه القيم (تاريخ مدينة أغاديس ومسجدها العتيد) فذكر الشيخ أن الطوارق سكان أغاديس حينما أحبوا الإسلام وأفرطوا في حبه اشرأبت أعناقهم إلى منافسة العرب الفاتحين في هذه الرسالة الإنسانية، فوجهوا طلباً رسمياً إلى ملك فاس بالمغرب، يلتمسون منه تزويدهم بعلماء يثقفونهم ويستفتونهم في شؤون دينهم، فلبى طلبهم وأوفد إليهم مجموعة من العلماء بصحبة بعض تلاميذهم. ولقد انتشر هؤلاء العلماء في أحياء أغاديس، فبنوا مساجد للعبادة وحلقات الدرس وأشهر هذه المساجد، مسجد (أمريوت) ومسجد (الرفيعة) ومسجد (أمدت) ومسجد (حسنة) ومسجد (أبوتارا) وغيرها من المساجد التي لا يتسع المجال لذكرها.

كما أن للعلماء الليبيين الوافدين في أغاديس، قصب السبق في بناء مساجد لا تزال تعرف بأسمائهم كمسجد حي (فونيمي) وترجع أصول أفراد هذا الحي إلى سلالة عالم ليبي من مدينة أوجلة[11] وكذلك مسجد محمد البخاري حمود، الذي شيده بعد قدومه من ليبيا في القرن العاشر الهجري، ليكون منارة علم وعبادة، وقد أبدع في بنائه أيما إبداع، حيث اختلف عن سابقيه من المساجد، بشكله الداخلي القريب من



مسجد حديث في أغاديس



أطفال من أغاديس

لم تبلغ أوج ازدهارها الديني والثقافي إلا في نهاية القرن الخامس عشر، وهو التاريخ الذي صادف وصول المصلح الجزائري، أبو عبدالله بن عبد الكريم المغيلي التلمساني توفي 909هـ/1504م، ولقد تخرج على يديه علماء وفقهاء تجداويون، أمثال الشيخ العاقب بن عبد الله الأنوسماني المسوفي، والشيخ شمس الدين النجيب محمد التجداوي، والشيخ محمد بن أحمد

11 ـ انظر: تاريخ مدينة أغاديس ومسجدها العتيد، الشيخ بخاري تانودي الأغدسي.

12 ـ انظر: إفريقيا فيما وراء الصحراء، دراسة وثائقية، الهادي مبروك الدالي، ص 134.


فصل دراسي في أغاديس

البناء الحالي، وخاصة في الأعمدة الحلزونية المطلية بمادة بيضاء، وقد درس فيه نخبة متميزة من العلماء، أمثال الشيخ عثمان بن أبي بكر الحضيري الفزاني في عام 1009هـ الذي شغل منصب الإمامة فيه، والجدير بالذكر أن الشيخ عثمان بن فودي الفلاني المشهور، قد تعلم أيضاً في هذا المسجد العريق[12] ومسجد محمد ابن عبد الكريم المغيلي، وغيرها من المساجد العريقة التي أسسها العلماء الوافدون والمهاجرون.

ولهذه المساجد دور مهم في نشر وترسيخ دعائم الإسلام في أغاديس وضواحيها، يؤمها العلماء ويقصدها الطلاب، حيث يتلقون العلوم الإسلامية والعربية معا وأهم ما يدرس فيها:

حفظ القرآن الكريم وتفسيره، والفقه الإسلامي والعقيدة والميراث، وعلوم اللغة العربية كالنحو والصرف والبلاغة وغيرها.

أسلوب الدراسة

وأسلوب الدراسة، هو أن يجلس العالم في زاوية مخصصة بالمسجد، فيحيط به الطلاب كل مع كتبه يقرأ والشيخ يشرح ويوضح، ولهذا الأسلوب فوائد لا يستهان بها، إذ أن الطالب المنتبه يستفيد من الكتب التي يقرؤها غيره فيوفر لنفسه الوقت والجهد في التحصيل.

الدهاليز والكتاتيب

لا نبالغ إذا قلنا بأن الغالبية العظمى من سكان أغاديس، يمتلكون دهاليز تحتوي على مكتبات ثرية في بيوتهم، يستقبلون فيها الطلاب الوافدين من الأقاليم المجاورة للتلمذ على أيديهم، إذ كانت أغاديس شبيهة بالجامعة التي يفد إليها طلاب العلم، فيوفرون لهم السكن والمطعم، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾
[سورة الإنسان، الآية 9]

ولا تزال هذه الصبغة الجليلة والأريحية تغلب على أصحاب الدهاليز المتبقية في الأحياء القديمة للمدينة، مثل دهليز (مدحة)، ودهليز الشيخ بخاري تانودي ودهليز الشيخ يوسف (بأوبتارا) وغيرها من الدهاليز.

وقد يوسع البعض دهليزه ويضيف إليه مدرسة كتاتيبية، تدرس مبادئ العربية وتركز أكثر على تحفيظ القرآن.



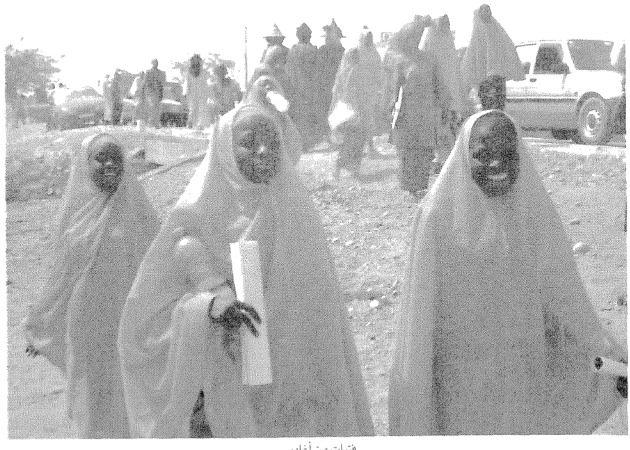
نشر الإسلام

عن طريق المراكز التجارية والأسواق

كانت الأسواق هي الأخرى ملتقى للصفقات التجارية والعلم، حيث ذكرت آنفاً أن أغاديس كانت وما زالت مركزاً تجارياً وطريقاً للقوافل، التي تعبر الصحراء قادمة من مصر فليبيا إلى منطقة بحيرة تشاد مروراً بأغاديس، والتي هي موضع تقاطع الطريق التجاري بين شمال إفريقيا والبحيرة، وبمجهودات هؤلاء التجار القادمين من الشمال الإفريقي، انتشرت الثقافة الإسلامية والعربية في المنطقة بأسرها، حيث يحمل هؤلاء التجار كتبهم، وقد يرافقهم علماء يعلمون الناس، فيمكن إدراك أن هؤلاء عملوا في نشر العلوم، حيث وصلت بضاعتهم، فيقيمون أياماً أو أشهراً قبل تحرك القافلة، وإلى يومنا هذا نجد في أسواق أغاديس خياماً وغرفاً، فيها العلماء والمكتبات الثمينة تحتوي الكثير من الكتب القديمة والمخطوطات.

بعض علماء أغاديس

اشتهرت هذه المدينة العريقة بأنها موطن لعدد من العلماء الأفذاذ، الذين كان لهم دور مهم في تجذير قواعد الثقافة العربية الإسلامية بتلك الربوع، إلى جانب دورهم الهام في ترسيخ العقيدة الإسلامية في المنطقة وغيرها، وأول من يقابلنا في طليعة هؤلاء العلماء الشيخ جبريل بن عمر، وهو من سلالة أولئك الدعاة الذين هاجروا من شمال إفريقيا إلى (أغاديس) منذ أيام الفتح الإسلامي، وداعية من أكبر دعاة الإسلام الذين شهدتهم منطقة السودان الغربي في القرن الثاني عشر الهجري ، فقد ولد في المنطقة ونشأ فيها وترعرع، مستهلاً دراسته على أيدي علمائها، فدرس على الإمام العلاّمة الشيخ علي جبو والشيخ المتفنن محمد بن الحاج، كما أخذ العلم عن الشيخين الأخوين: أبي بكر بن عثمان وعلي بن عثمان، ثم رحل الشيخ جبريل إلى بلاد الحجاز والمشرق



فتيات من أغاديس

مرتين، وتلقى العلم في المرة الأولى عن الشيخ يوسف الحفناوي، كما تلقى كثيراً من المعارف والعلوم في المرة الثانية عن أستاذه المصري الشيخ محمد المرتضى الحسيني الواسطي، ولقد أجازه الشيخ المرتضى، فضلاً عن ذلك جميع مؤلفاته ومروياته.

وتتلمذ على يديه عثمان بن فودي، الذي لقبه بأبي الأمانة وأخوه عبدالله بن فودي.

وكانت وفاة الشيخ جبريل رحمه الله، في العقد الأول من القرن الثالث عشر الهجري، إلا أنني لم أقف على من تحدث عن مؤلفاته، ولعل السبب في ذلك راجع إلى ما ذكره محمد بلو، في أنهم لم يهتموا بالكتابة.

ومن علماء أغاديس الشيخ الجليل، العالم النحرير الفهامة، فريد وقته علما وديانة «ودرفن بن فقيه محمد الشهير بإنطمنت» وقد أجاز العالم هارون بن جبريل جميع مروياته، والذي هو الآخر أجازها للعالم الفهامة محمد بن صلة الغدامسي رحمه الله.

ومنهم أيضاً الشيخ العاقب عبد الله الأنوسماني المسوفي، التلميذ الوفي للمغيلي وقد عرف بالفقه والذكاء، وقاد الخاطر، تفرغ للعلم وفي لسانه حكم، وله مؤلفات عدة منها:

1 - «أجوبة الفقير عن أسئلة الأمير»، وهو كتاب يضم أجوبة عن أسئلة سألها السلطان أسكيا محمد سلطان صنغاي.

2 - «الصواب المجدود عن أسئلة القاضي محمد بن محمود»، وهو كتاب ألفه لإجابة عن أسئلة وضعها قاضي تمبكتو.

3 - «وجوب الجمعة بقرية أنوسمان»، وهو الكتاب الذي ألفه رداً على الذين عارضوا إقامة صلاة الجمعة في مدينته (انسمان) وقد دار بينهم جدل قوي حتى تدخل الأزهر في القضية بعد أن وافق علماؤها رأي الشيخ العاقب.

4 - وتعليق على قول الخليل «وخصصت نية الحالف».



ومنهم شمس الدين النجيب محمد التجداوي الأنوسماني ووصفه أحمد بابا التنبكتي بقوله «أحد شيوخ عصره، معه فقه وصلاح، شرح مختصر خليل بشرحين كبير في أربعة أسفار، وصغير في سفرين... وله أيضاً على ما قيل تعليق على المعجزات الكبرى للسيوطي، وله تعليق على تخميس عشرينيات الفازازي لابن مهيب في مدحهﷺ، ولقد توفي بأغاديس، ومحمد ابن أحمد التزكيتي والولي الجليل أغنبل والشيخ محمد الشمباكي وأحمد بايزيد وأحمد نسلا إن كنتكي والشيخ زكريا الذي بنى عددا من المساجد، ومنهم الشيخ سيدي محمد البغدادي الإمام العالم الرباني ذو المناقب الكثيرة، والكرامة الأثيرة.

ومن بقايا هؤلاءالعلماء القدامى، الشيخ بخاري تانودي الأغاديسي، أستاذ الأجيال الذي نهض بحمل الدفاع عن الإسلام ونشر عقيدته السمحة، فقد كان مثلاً وأسوة لدعاة الصحراء، حيث انكب على الدراسة منذ نعومة أظفاره، فلزم شيوخ أغاديس الذين نالوا شهرة واسعة، واستقى جل معلوماته ومعارفه منهم، ثم رحل إلى «كانو» بنجيريا فدرس على الشيوخ المصريين الذين تولوا التدريس هناك، فأتاحت له هذه الرحلة العلمية أن يجمع بين الأسلوبين القديم والحديث في الدراسات الإسلامية، وله مؤلفات عدة اشتهر بها، نذكر منها:

1 ـ تاريخ مدينة أغاديس ومسجدها العتيق.

2 ـ حفلة بيان في مدينة أغاديس.

3 ـ مواهب الجليل شرح مرشدة العقيدة أهل السنة.

وقد ترجم الشيخ باسمه في كتابه مواهب الجليل حيث قال: (أنا بخاري تانودي أغاديسي نيجري مولداً ونشأة).

معالم الحضارة الاسلامية في أغاديس

من أشهر معالم الحضارة التي بناها الإسلام في أغاديس، البيوت السكنية في أحيائها القديمة. والتي بنيت بالطين المخلوط بالتبن، وتجسد فيها فن العمارة الإسلامية في أروع صوره، لا تزال تحتفظ بهذا طابع التقليدي العريق إلى اليوم.



وأكبر معلمة إسلامية في هذه المدينة التاريخية مسجد الحاج أسكيا محمد، الذي أمر ببنائه عندما كان في طريق عودته من الحج، إذ لاحظ أثناء إقامته بأغاديس، أن مساجد المدينة لا تتسع للمصلين وتلاميذ القرآن والعلوم الإسلامية، فساهم بهذا المسجد الذي نفذه أحد الفنانين المسلمين، يدعى زكريا، في عام 1515م، والمسجد بالرغم من أنه مبنيٌ بالطين المخلوط بالتبن قصير البنيان ومسقوف بالخشب، ليست له نوافذ وعرض الصف فيه لا يتجاوز ثلاثة أذرع، وتراه مظلماً ضيقاً، إلا أنه يتسع لأكثر من خمسمائة مصلٍّ.

والجدير بالملاحظة، أن إعادة بنائه قد تمت على يد العالم محمد أبوبكر الشريف الغدامسي، وله منارة شبيهة بمنارة مسجد تمبكتو، وطولها يتراوح بين خمسة عشر وعشرين متراً، ومئذنته هذه لا تزال محل إعجاب السياح الغربيين والزوار والمؤرخين عرباً وعجماً.

ولقد قال المؤرخ النيجري «بوب حما» في حديث مفاده تأكيد قيمة هذا المسجد: (إذا حُق لمالي أن تفخر بتمبكتو فيحق للنيجر أن تفخر بأغاديس).

أضرحة الأولياء والزوايا الصوفية

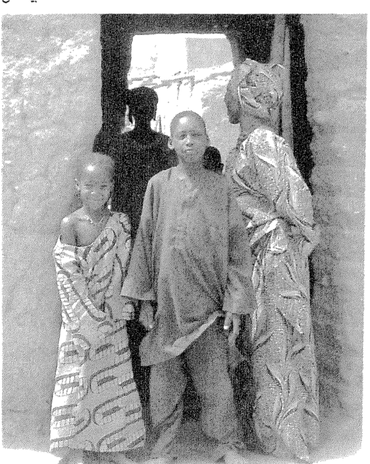
تزخر مدينة أغاديس بمراقد الأولياء والصالحين، إذ تجدها منتشرة في أحيائها القديمة، لها جدران من الطين على هيئة مربع غير مسقوف، تزار في أيام الجمعة للدعاء ووضع الصدقات، فهي التي يسميها الطوارق (البنبن).

كما نجد فيها أيضاً مقبرة (تانبيري) ويذكر أهالي المدينة بأن فيها مراقد لتسعة وتسعين وليّاً إضافة إلى أضرحة (أغزرمدرن) وما جاورها من المراقد، التي بها ضريح الولي المشهور «أغنبل» ونجد



بيت من بيوت أغاديس

في قراها المجاورة نفس مقابر الأولياء والصالحين في (أغندول وأبتول وجيكت وشغزرن وتكريزت وأوزورو) و«تجدة» التي فيها مراقد يرجع تاريخها إلى880م، وقد نشهد بعض أهالي المدينة يتخذون من هذه الأضرحة أماكن للخلوة والتقرب إلى الله.



أطفال من أغاديس

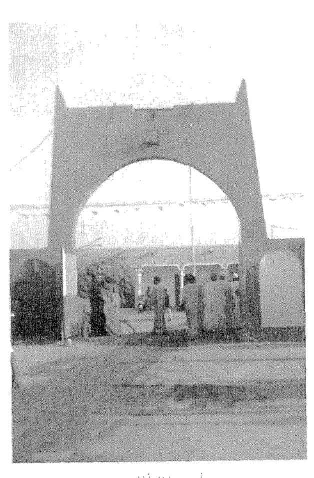
علاقة أغاديس بالمغرب العربي والممالك الإسلامية الإفريقية

الجدير بالذكر أن أغاديس دائماً تشارك الممالك الإسلامية الإفريقية بمالها وعلمائها، وبحكم موقعها الإستراتيجي في قلب الصحراء، تتطلع إليها سائر الممالك الإسلامية، التي تأسست بإفريقيا على امتداد تاريخها المتدفق بالعطاء، ابتداء بإمبراطورية كانم إلى صنغاي، ولنا حديث حولها فيما بعد.

علاقتها مع المغرب العربي

تربط أغاديس بالمغرب العربي (ليبيا المغرب تونس

الجزائر...) علاقات موغلة في القدم، وأثبتتها هذه الشعوب في تاريخها الثقافي، أغاديس وغيرها من الشعوب الإفريقية، وجدت نفسها في جو من التواصل بينها وبين التجار العرب، الذين يعبرون الصحراء منذ أيام الفينيقيين، إذ كانت القوافل المتسلسلة تتقاطر في هذا الخط التجاري، الذي كان للتجار الليبيين قدم راسخة فيه، وقد شهدت هذه العلاقة تطورات ملموسة بعد وصول الإسلام، فحدث التزاوج والمصاهرة بين الجانبين، فازدهرت الثقافة الإسلامية في أغاديس وفتح باب العلم على مصراعيه، فتنقل العلماء والطلاب بعزيمة وحرية، يشقون بطون الرمال والقفار، فانتشرت الكتب المغاربية في المدينة [13] والتي عكف علماء أغاديس على دراستها وشرحها والتعليق عليها، بل منهم من هاجر إلى المغرب العربي، فنال شهرة علمية عظيمة، أمثال: جبريل بن عمر، الذي نال إجازات علمية من مصر وغيرها، كما أجازها العلماء في الشمال الإفريقي، منهم علماء غدامس بليبيا، كما

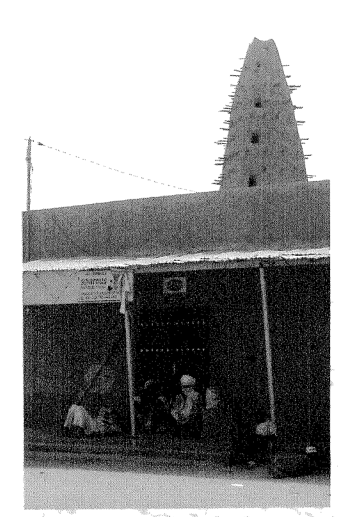

أحد مداخل أغاديس


أطفال من أغاديس

13 ـ انظر: التفاعل العلمي والمعرفي في الغرب الإسلامي والسودان الأوسط، مجلة مجمع اللغة العربية ـ ليبيا، العدد الرابع، ص 158.



زي تقليدي



أن شيوع المذهب المالكي في المنطقة أكبر دليل على هذا العلاقة.

ولم تتوقف هذه العلاقات الروحية والعرقية بين هذه الشعوب، مع أن المستعمر حاول بكل ما لديه من أساليب المكر والخداع، أن يحول دونها، فوقفت شامخة أمام هذا التيار الجارف والهدام، بل أنجبت ابناً مغواراً يدعى «كاوسان»، سنة 1880م.

ومن مظاهر هذا الصمود، يمكنني هنا أن أنوه بالجهود الجبارة والمتواصلة، التي تبذلها ليبيا عن طريق جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، التي اهتمت بتعزيز هذه العلاقات والروابط، خاصة في المجال الثقافي، فهي التي تبني المساجد وتشجع التعليم العربي الإسلامي في النيجر بوجه عام، وفي أغاديس على وجه الخصوص، فساهمت في توفير المعلمين النيجريين والليبيين ليباشروا التعليم العربي، تحت إشراف دولة النيجر، وعقدت دورات التكوين لهم ووفرت الكتب ونظمت المسابقات في مجال حفظ القرآن الكريم، بالإضافة إلى المنح الدراسية في الجماهيرية وغيرها.



علاقتها مع إمبراطورية كانم برنو

لعل أفضل ما يمكن أن ننبه إليه حول هذه العلاقة ،هو أن إمبراطورية (برنو) أسهمت، بحكم سبقها إلى الإسلام، في التأثير في تجار أغاديس الذين يرحلون إليها، لما نالته من شهرة عظيمة في الدين والسياسة والتجارة، ولقد لعبت قبائل التوبو القاطنة في كاوار، التي هي جزء من أغاديس حالياً، دوراً بارزاً في توطيد العلاقات بين الجانبين ، فتواصلوا فيما بينهم اقتصاديا ودينياً وثقافياً، بل كانت أغاديس تابعة لإمبراطورية برنو أيام ازدهارها.

ولقد ألمح حسن الوزان في كتابه القيم (وصف إفريقيا)، إلى هذه العلاقة في معرض حديثه عن مملكة أغاديس، إلى عراقة تواصل أغاديس وبرنو.

كما أن مشاركة كاوسان الأغاديسي في معركة ضد الفرنسيين في كانم عام 1909م تدل دلالة واضحة على هذه العلاقة.

علاقتها مع إمبراطورية صنغاي

بلغت أغاديس أوج ازدهارها التجاري والثقافي في القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلادي، فاحتلها المنافس الكبير ملك صنغاي الحاج أسكيا محمد، حينما طرد القبائل التي أسست المدينة فلجأت نحو «أزواغ» ومن ثم تحولت المدينة إلى مستعمرة تابعة لإمبراطورية صنغاي نحو قرن من الزمن.

وأفاد حسن الوزان، بأن سلطان أغاديس يحصل على مورد هام من الإتاوات على البضائع الأجنبية ومنتجات البلاد، لكنه يؤدي نحو مائة وخمسين ألف مثقال كخراج للك تمبكتو. أضف إلى ذلك أن علماء أغاديس أسهموا بعلومهم وفقههم في الإفتاء بتمبكتو، كما أن المسائل الدينية الشائكة ترسل إلى علماء أغاديس ليجيبوا عنها، وإن كتاب (الصواب المجدود عن أسئلة القاضي محمد بن محمود) للشيخ العاقب بن عبدالله الأنوسماني التجداوي، خير شاهد على ذلك.

فالعلاقة بين أغاديس وتمبكتو، علاقة جسد وروح، فهما نفس واحدة، قتل الاستعمار معنوياتها، وأحياها الثائر المسلم القائد معمر القذافي، من خلال تظاهرتي التحدي الإسلامية، اللتين شهدتهما الشقيقتان: أغاديس وتمبكتو.

الاستعمار الفرنسي لأغاديس

كانت الصحراء وما زالت، محل أطماع المستعمرين الأوروبيين، وذلك لما تتمتع به من مظاهر طبيعية ساحرة وثروات هائلة، وأفضل من كل ذلك، ما تجسد في رجل الصحراء من قيم الخير وطهارة النفس وغيرها، أضف إلى ذلك الموقع الاستراتيجي الذي تتمتع به أغاديس في المنطقة، فتشابكت هذه العوامل جميعاً لتجعل فرنسا الغازية، تحتل أغاديس وصحراءها بجيوشها عام 1906م، ولم يقف سكان أغاديس مكتوفي الأيدي أمام هذه الظاهرة المشينة، فقد قوبلت فرنسا بمعارضة شديدة من قبل سكان أغاديس، وعلى رأسهم «كاوسان» وسلطان أغاديس «تغاما»، فخاض كاوسان مع أعوانه معارك طاحنة ضد الفرنسيين، خلال العامين 1916 ـ 1917م، ولقد توفي رحمه الله عام 1919م في مرزق بليبيا.

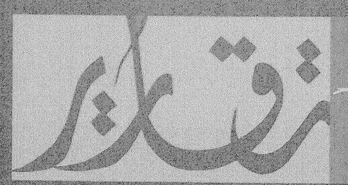
المصادر والمراجع:

- وصف إفريقيا/ حسن الوزان
- الموسوعة العربية العالمية

H. Clauots Touareg:exilet resistqce in revue dumonde musulman et de la mediterrane edisud enprovence 1991

- أعمال دورتي مدرسي اللغة العربية والثقافة الإسلامية والحلقة الدراسية الثقافية اللتين أقيمتا في نيامي خلال الفترة من 5/13 حتى 2000/5/27م المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم و جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.
- التفاعل العلمي والمعرفي في الغرب الإسلامي والسودان الأوسط، مجلة مجمع اللغة العربية بليبيا، العدد الرابع.
- إنفاق الميسور/ محمد بلو/ الفصل السادس (أهير).
- مواهب الجليل شرح مرشدة وعقيدة أهل السنة، الشيخ بخاري تانودي .
- أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء أيام 15 ـ 17 محرم 1428 ميلاد الرسول ﷺ الموافق 12 ـ 14 (الماء5) 1998 م.
- تاريخ مدينة أغاديس ومسجدها العتيد/ الشيخ بخاري تانودي الأغدسي .
- صحيفة التواصل النيجرية العدد 51 ـ ديسمبر 2006م .
- تزيين الورقات،عبدالله بن فودي The Sokoto Caliphate. Murrylast
- تاريخ إفريقيا فيما وراء الصحراء/ الهادي مبروك الدالي.
- النيجر اليوم، منشورات جون أفريك، المكتب العربي للترجمة .
- دائرة المعارف الإسلامية.
- امبراطورية البرنو الإسلامية، إبراهيم علي طرفان.
- تراجم علماء باغرام، مخطوط بمكتبة الدكتور الهادي مبروك الدالي. طرابلس / ليبيا.
- إفريقيا/ مارمول كرنجال / ترجمة محمد حجي ومحمد زنيبر وآخرون، الرباط.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج/ أحمد بابا التنبكتي.
- مجلة العربي، العدد 282 مايو 1982م ص 102 إلى123 نقلا عن موسوعة المدن الإسلامية / يحيى شابي.





- **افتتاح المقر الجديد لصحيفة «الدعوة الإسلامية» ومجلة «التواصل»**

- **«إعلان جنيف»**

دعوة إلى تصحيح صورة «الآخر» لدى كل العقائد

أمين اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام بالجماهيرية يزيح الستارة عن اللوحة التذكارية

التذكارية

افتتاح المقر الجديد لصحيفة (الدعوة الإسلامية) ومجلة (التواصل)

في يوم الخامس عشر من شهر الطير (إبريل) 1375 من وفاة الرسول ﷺ (2007 مسيحي) أقيم احتفال بافتتاح المقر الجديد لصحيفة الدعوة الإسلامية ومجلة التواصل، بحضور الأخ أمين الجمعية، ومقرر المجلس العالمي للدعوة الإسلامية، وأمين اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام، وعدد من الوزراء الأجانب، وثلة من الفعاليات الإسلامية والعلماء والمفكرين، وعدد من الشخصيات العربية والعالمية: كتابا وصحفيين ومثقفين وأساتذة جامعات، المشاركين في الانطلاق الرسمي لاحتفالية (طرابلس عاصمة الثقافة الإسلامية)، فضلا عن مندوبي وسائل الإعلام المرئية والمسموعة. وقد جاء هذا الاحتفال ليعكس جانبا من الاهتمام المتواصل الذي توليه الجمعية لنشر المعرفة الحقيقية والصحيحة بين المسلمين، وتعميق أواصر التواصل بين المجتمعات الإنسانية.



أمين الجمعية وأمين اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام بالجماهيرية يقصان الشريط التقليدي

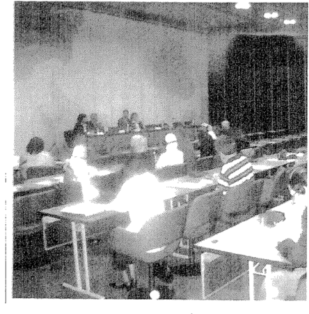
«إعلان جنيف»
دعوة إلى تصحيح صورة «الآخر» لدى كل العقائد

إعداد: التحرير

دعت منسقة مؤتمر «دور المرأة في السلام من خلال التعليم» الدكتورة فوزية العشماوي، إلى تصحيح صورة المسلم المشوهة، في المناهج الدراسية، في الدول الأوروبية. كما دعت في كلمة لها في المؤتمر، إلى تصحيح صورة «الآخر» اليهودي أو المسيحي المشوهة أيضاً، في كتب التاريخ المدرسية، في الدول العربية والإسلامية، وإدراج تربية السلام والتعايش السلمي، وحقوق الإنسان، في هذه المناهج.

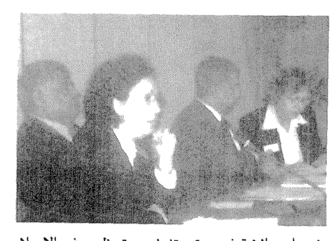
جاء ذلك في مؤتمر نظمه «منتدى المرأة الأوروبية المسلمة»، بالتعاون مع «القيادة الشعبية الإسلامية العالمية»، بمقر مركز المؤتمرات بالأمم المتحدة، في 27 و28 الطير (أبريل/نيسان) 2007م، في مقر جامعة جنيف بسويسرا، وقد حضره لفيف من علماء المسلمين والمسلمات، من مختلف أنحاء العالم، من الدول الأوروبية، والدول العربية والإسلامية، وعدد من ممثلي السفارات العربية، ومنظمة العالم الإسلامي، ورابطة الجامعات الإسلامية، وممثلون عن الجمعيات غير الحكومية، المعتمدة لدى الأمم المتحدة في جنيف.

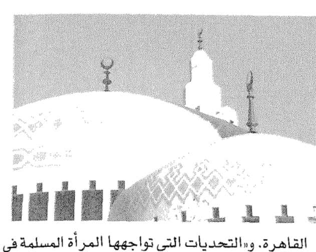
وأضافت الدكتورة العشماوي، أن مؤلفي كتب التاريخ المدرسية الأوروبيون، يصدرون أحكاماً خاطئة، وهم يعرضون للأحداث التاريخية الخاصة



بالإسلام، وأنه غالباً ما يكون شرح هؤلاء المؤلفين لهذه الأحداث، عبارة عن أحكام تقديرية مسبقة، تعكس وجهة نظرهم وموقفهم المسبق، المتعنت تجاه الإسلام، ومدى تحيزهم وفقدانهم لروح الموضوعية، والأمانة العلمية.

كما أوضحت المتدخلة، أن مؤلفي كتب التاريخ في مدارس الدول العربية والإسلامية، يقدمون عرضًا للثقافة وللحضارة المسيحية الأوروبية، ولا يقدمون للتلاميذ عرضاً محايداً، أو حتى مجرد تلميح، إلى أن للمسيحيين واليهود اعتقادات مختلفة، وثقافة وتقاليد أخرى، يجب احترامها، مضيفة أن هذه المناهج تستخدم أساليب إنشائية، ومصطلحات وتعبيرات،





فيها مبالغة شديدة، وتفخيم وتعظيم في الإسلام والمسلمين، وتقديم صورة للمسلمين، وكأنهم سادة العالم، وأفضل بكثير من الأوروبيين والأمريكان، الذين يعيشون في فراغ روحي، وتمزق أسري واجتماعي.

وشهد المؤتمر، تنظيم ثلاث جلسات، تطرقت لعدة قضايا حيوية هامة بالبحث، وتم عرض ومناقشة الأوراق والبحوث، التي تقدم بها حوالي عشرين باحثاً. كما أرسل الأستاذ إبراهيم الغويل، الأمين العام المساعد، لجمعية الدعوة الإسلامية العالمية، رسالة إلى المؤتمر، أعرب فيها عن رأيه، بشأن موضوع المؤتمر، وهي المداخلة التي اعتبرها المشاركون، إحدى وثائق المؤتمر.

بالنسبة لمداخلات المشاركين، والتي ألقيت بثلاث لغات: العربية والفرنسية والإنجليزية، فقد جاءت تحت العناوين التالية: «حقوق المرأة في الإسلام، مقارنة بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان»، ألقاها جعفر عبد السلام، أمين عام رابطة الجامعات الإسلامية، القاهرة. و«دور النساء في تربية السلام، للجيل الثاني من المسلمين في أوروبا» صافيا جورو، من مركز الجالية المسلمة في روما. و«المناهج الدراسية تدرس تربية السلام أم الحروب؟ فوزية العشماوي، رئيسة منتدى المرأة الأوروبية المسلمة، وخبيرة لدى اليونسكو لمراجعة المناهج الدراسية. و«السلام والحرب والجهاد في المناهج الدراسية الأوروبية» مصطفى الحلوجي، جامعة الأزهر، القاهرة. و«التحديات التي تواجهها المرأة المسلمة في الدول الأوروبية» زهرة كريستيان جيوم، صحفية فرنسية. و«دور المرأة المسلمة في المجتمعات الأوروبية خالد عبدالكريم، مركز الفيدرالية الشعبية في فرنسا، باريس. و«النساء المسلمات في النمسا: نموذج للاندماج» كارلا أمينة باجاياتي، عن الهيئة الدينية الإسلامية الرسمية في النمسا. و«المرأة الأوروبية المسلمة: شهادة وتجارب» نورا كارازاجي، الجمعية الثقافية للنساء، ألبانيا، تيرانا. و«مستقبل الإسلام والمسلمين في فرنسا وفي أوروبا» محمد بشاري، رئيس الفيدرالية العامة لمسلمي فرنسا، والأمين العام للمؤتمر الإسلامي الأوروبي، ومقره فرنسا. و«العالم إما خيار الحرب أو السلام» رندة رزق، مستشارة وزير التضامن بمصر ورئيسة جمعية فتيات الغد عن الأديان. و«أهمية تربية السلام في حوار الأديان» إبتسام أوشي، رئيسة فيدرالية المدارس العربية، بريطانيا. و«صورة الإسلام في المناهج الدراسية الأوروبية» مصطفى الحلوجي، جامعة الأزهر، القاهرة. وأخيراً، «تربية السلام وحوار الأديان في المناهج الدراسية» فوزية العشماوي.

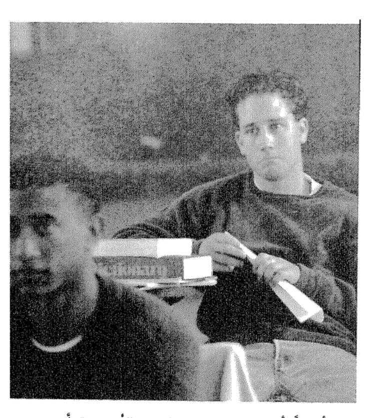
بالنسبة لتوصيات المؤتمر، فقد دعت المرأة المسلمة، التي تعيش في الغرب، إلى أن تقوم بدور مهم في التعريف بقيم الإسلام، والتي تتمثل في العدالة والإنصاف، والوسطية والتسامح، واحترام الآخر، وأن تبذل جهوداً كبيرة، في التوفيق بين مقتضيات عملها،

وواجبات أسرتها، وتعليم أبنائها أحكام دينهم. وأن تضرب لهم المثل في القدوة، وفي حسن التعامل مع الآخر، واحترام الكلمة والخلق الحسن. وتربيتهم تربية السلام وحب الآخر، ومعاملة الآخر بالتي هي أحسن.

كما نصت التوصيات، على ضرورة أن تكون المرأة المسلمة، التي تعيش في الغرب، عضوًا فعالاً في مجتمعها، بأن تتخذ كافة الوسائل، التي تستمد منها عناصر القوة والقدرة، في المجتمعات الغربية، وأكد المشاركون بخصوص هذه الجزئية بالذات، على أهمية دراسة سلوك النماذج المضيئة للمرأة المسلمة، ودورها في التاريخ الإسلامي، كما تم التطرق إلى دور المنظمات وهيئات المجتمع المدني، في الدول الإسلامية، فيما يتعلق بالتفاعل مع «منتدى المرأة الأوروبية المسلمة» في جنيف، بأن تمده بمختلف الوسائل الكفيلة بمعاونته، على الحوار مع المواطنين في الغرب، وأن تقيم التواصل المستمر مع المنتدى.

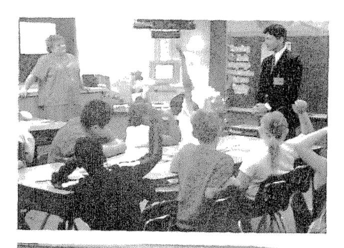
كما توقف المشاركون عند الدور الحيوي، الذي يقوم به العلماء المسلمون في الغرب، للتقريب بين المسلمين وغير المسلمين، عن طريق تنقية المناهج الدراسة، مما يشوبها من مغالطات، وأنماط وقوالب وأفكار مسبقة، مهيبين بالدول والمنظمات الإسلامية أن تبارك هذه الجهود، والإسهام في مراجعة صورة الإسلام والمسلمين، في المناهج الدراسية في الدول الأوروبية، ومهيبين أيضاً بوسائل الإعلام، أن تقيم جسورا للتواصل، بين البشر في الشرق والغرب، وألا تقيم حواجز بين أصحاب الأديان، وأن تكف عن ما تبثه من إساءات للأديان، ومن أكاذيب ومبالغة في تحليل الأحداث.

كما أوصى المؤتمر، المرأة المسلمة في العالم بأسره، بأن لا تكون العلاقة بينها وبين الرجل، قائمة على الصراع والمواجهة، وإنما على ما أوصى به القرآن الكريم، من المودة والرحمة، وتكامل الأدوار والاحترام المتبادل، وأن تكون أحكام الإسلام وتعاليمه، هي الحاكمة للعلاقات بينهما.



وأخيراً، أهاب المشاركون بالدول الأوروبية، أن تعترف بالإسلام، أسوة بالنمسا، وبلجيكا، وكرواتيا، وإسبانيا، بأن تمنح المسلمين كافة حقوق المواطنة، وأن تسمح بتعليمهم مبادئ الإسلام -كما يحددها أولياء الأمور- في المدارس الأوروبية، وأن تراعي متطلبات واحتياجات المرأة المسلمة، التي تعيش في أوروبا.

جدير بالذكر، أن هذا المؤتمر، يأتي تزكية لما جاء في خلاصات أشغال الندوة الأولى، لمنتدى المرأة الأوروبية المسلمة في باريس، يومي 9 و10 الربيع (مارس/ آذار) 2007م، والذي تم بدعوة من «المؤتمر الإسلامي الأوروبي»، وبتعاون مع «جمعية الدعوة الإسلامية العالمية»، والتي انعقدت بناء على التوصية السادسة، من توصيات ندوة المرأة المسلمة، وحقوق الإنسان، والتي أقيمت في قصر الأمم المتحدة، بمدينة جنيف (سويسرا)، يوم 2 الطير (أبريل/ نيسان) 2004م، والتي أوصت بتشكيل فريق عمل من النساء المسلمات، برئاسة الدكتورة فوزية العشماوي، الأمين العام المساعد لشؤون المرأة، بالمؤتمر





الإسلامي الأوروبي، لتتولى معالجة القضايا، التي تخص المرأة المسلمة في الغرب».

وكانت الندوة قد تميزت، بحضور عمدة بلدية كليشي الفرنسية، وأعضاء مكتبه، ولفيف من الشخصيات والفعاليات الدينية والفكرية والسياسية، ووسائل الإعلام، وقد تحدث في جلسة الافتتاح، كل من: عمدة كليشي، محمد بشاري، فوزية العشماوي، رئيسة المنتدى، وإبتسام أوجي، رئيسة إتحاد المدارس العربية في بريطانيا، وحليمة بومدين، عضو مجلس الشيوخ في فرنسا، وفوزية الطلحاوي، عضو مجلس الشيوخ في بلجيكا.

وخلصت المداخلات إلى التأكيد، على عدم تعارض المفاهيم الإسلامية الأساسية، مع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ودعوة المؤسسات الإسلامية، لإظهار مكانة المرأة واحترامها، وحقوق الطفل، كما نص عليها الإسلام، كما وجهت الدعوة إلى المؤسسات الإعلامية الغربية، بهدف توخي الإنصاف والعدل، عند تناولها قضايا المرأة المسلمة، بشكل خاص، والإسلام بشكل عام، ودعوة المؤسسات الإسلامية المتخصصة في أوروبا، بإمداد وسائل الإعلام الغربية، بالدراسات التوضيحية، عن وضع المرأة في الإسلام، ودعوة المؤسسات العاملة في مجال حقوق الإنسان في الغرب، إلى التعامل مع قضايا المرأة المسلمة بتعقل وإنصاف، ومراعاة للخصوصيات الثقافية والعقائدية، انطلاقًا من ميثاق الأمن والتعاون الأوروبي، الذي ينص في أحد بنوده، على ضرورة الحفاظ على الهوية الثقافية للأقليات الدينية والعرقية.

وتم في الجلسة الختامية، انتخاب المكتب التنفيذي الجديد، برئاسة الدكتورة فوزية العشماوي، وقد روعي التوزيع الجغرافي، في تكوين المكتب، على النحو التالي: ابتسام أوجي من بريطانيا، وفوزية العشماوي من سويسرا، ونورا كوتشي ندريتشيمة من ألبانيا، وحفصة الأنصاري من فرنسا، وياسمينة القصيبي من هولندا، وصفية جوراند من إيطاليا، وفوزية طلحاوي من بلجيكا.

كما تم تعيين أعضاء مجلس الأمناء، من السيدات الممثلات لمختلف دول أوروبا، على النحو التالي: لينا لارسن من الدول الاسكندينافية، وأسماء عبد الحميد من الدانمارك، وكارلا أمينة من النمسا، وسوسن شحرور من ألمانيا، وممثلة عن مؤسسة الخوئي من بريطانيا، وممثلة عن المسلمات التركيات، وحليمة بومدين من فرنسا ممثلة عن إسبانيا.



● الأبيض والأسود في ديوان العرب...

الأبيض والأسود في ديوان العرب..

إذا كان الشعر ديوان العرب، فهو أيضا بمثابة (المرايا) للشعراء الذين أبدعوه، واليوم نستطيع . مع قراءة متأنية لهذه القصيدة . أن نرى الشاعر أبا الطيب أحمد بن الحسين المعروف بالمتنبي، وهو في شرخ الشباب، تعيرّه مليحات البادية بالشيب الذي خط شعر رأسه قبل الأوان! وكان في ذلك يقول متأملا: . ماذا لو بدأنا الحياة ولون شعر رؤوسنا هو الأبيض ليدركه السواد في أرذل العمر، فهل نعيّر حينئذ بالشعر الأسود؟

أما عن الواقعة التي دفعت المتنبي إلي تلك الرؤية الفلسفية، فقد بدأت عندما استضافه أحد أصدقائه من فرسان الأمير سيف الدولة، ممن كانوا رحماء بينهم أشداء على أعدائهم، وهناك بالمضيفة، التقت عينا المتنبي بعيني إحدى المليحات فصدته بقوة، وربما هتفت: . دونك الموت عني أيها الأشيب! وحين يعلم الشاعر أن المليحة شقيقة مضيفه، يغادر، مطلقا لجوادم العنان حيث فاضت قريحته بهذه القصيدة، التي تصنف ضمن أعماله الشبابية:



٤ ـ الشرف الرفيع

لِـهـوى الـنـفـوسِ سـريـرةٌ لا تُـعْـلـمُ ... عـرضـا نـظـرتُ وخِلتُ أنّـي أسْـلـمُ.
يـا أخت مـعـتـنـق الـفـوارسِ في الـوغـى ... لآخـوك، ثـمَ، أرقّ مـنـك وأرحَـمُ.
راعـتكِ رائِـعَـةُ الـبـيـاضِ بمفـرقـي ... ولـو أنـهـا الأولى لـراع الأسْـحَـمُ!
لـو كـان يمكنـنـي سفـرتُ عـن الصـبـي ... فـالشـيـب مـن قـبـل الأوان تَـلـثُّـمُ!!

❖❖❖❖

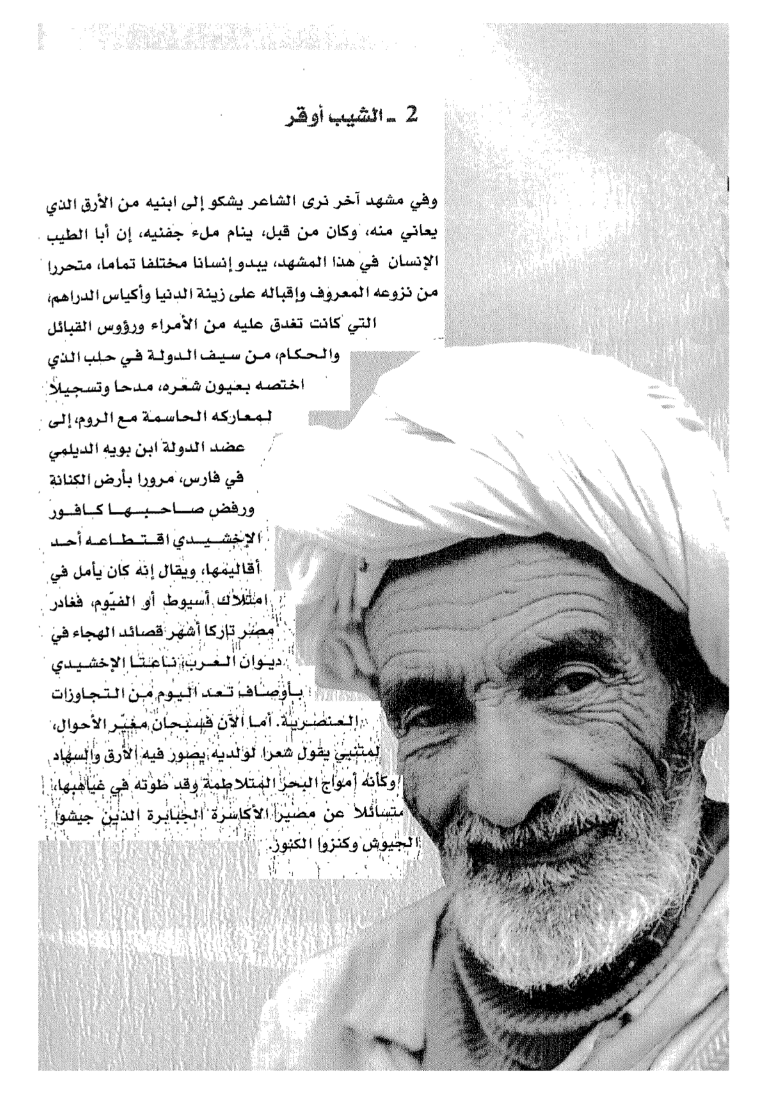
ولـقـد رأيت الحادثـاتِ، فـلا أرى ... يـقـقـاً يُـمـيتُ، ولا سـواداً يَـعْـصِـمُ
والـهـم يـخترمُ الجسـيـمَ نـحـافـةً ... ويُـشـيـب نـاصـيـة الصـبـي ويُـهْـرِمُ
ذو الـعـقـل يَـشـقـى في الـنـعـيـم بعـقـلـه ... وأخـو الجهـالـة في الشـقـاوة يَـنْـعَـمُ
والـنـاسُ قـد نـبـذوا الحِـفـاظَ فـمـطـلَقٌ ... يـنـسـى الـذي يُـولَـى، وعـافٍ يَـنْـدَمُ

❖❖❖❖

لا يـخـدعـنـك مـن عـدو دمـعَـه ... وأرحـم شـبـابك مـن عـدوٍ تـرحَـمُ
لا يسـلـم الشـرف الـرفـيـع مـن الأذى ... حـتـى يـراقَ عـلـى جـوانـبـه الـدمُ
يـؤذي الـقـلـيـلُ مـن الـلـئـام بطبعه، ... مـن لا يـقـلّ، كـمـا يـقـل، ويَـلْـؤمُ
والـظـلـم مـن شـيـم الـنـفـوس، فإن تجد ... ذا عـفـةٍ، فـلـعـلـةٍ لا يَـظْـلِـمُ
ومـن الـبـلـيـة عَـذْلُ مـن لا يـرعـوي ... عـن جـهـلـه، وخطـابُ مـن لا يَـفْـهَـمُ!!

❖❖❖❖

❖ يققٌ: اليققُ شدة بياض الشعر الناصع والمتناهي في البياض (التحرير).



2 ـ الشيب أوقر

وفي مشهد آخر نرى الشاعر يشكو إلى ابنيه من الأرق الذي يعاني منه، وكان من قبل، ينام ملء جفنيه، إن أبا الطيب الإنسان في هذا المشهد، يبدو إنسانا مختلفا تماما، متحررا من نزوعه المعروف وإقباله على زينة الدنيا وأكياس الدراهم، التي كانت تغدق عليه من الأمراء ورؤوس القبائل والحكام، من سيف الدولة في حلب الذي اختصه بعيون شعره، مدحا وتسجيلا لمعاركه الحاسمة مع الروم، إلى عضد الدولة ابن بويه الديلمي في فارس، مرورا بأرض الكنانة ورفض صاحبها كافور الإخشيدي اقتطاعه أحد أقاليمها، ويقال إنه كان يأمل في امتلاك أسيوط أو الفيّوم، فغادر مصر تاركا أشهر قصائد الهجاء في ديوان العرب، ناعتا الإخشيدي بأوصاف تعد اليوم من التجاوزات العنصرية. أما الآن فسبحان مغيّر الأحوال، لمتنبي يقول شعرا لولديه يصور فيه الأرق والسهاد وكأنه أمواج البحر المتلاطمة وقد طوته في غياهبها، متسائلا عن مصير الأكاسرة الجبابرة الذين جيشوا الجيوش وكنزوا الكنوز.

أرقٌ على أرقٍ ومثلي يأرقُ ... وجوى يزيد وعبرةٌ تترقرقُ

جهدُ الصبابةِ أن تكون كما أُرَى ... عينٌ مسهدةٌ وقلبٌ يَخْفِقُ

ما لاح برقٌ أو ترنم طائرٌ ... إلا إنثنيتُ ولي فؤادٌ شيقُ

جربت من نار الهوى ما تنطفي ... نارُ الغضا وتكل عما يُحْرِقُ

وعذلت أهلَ العشقِ حتى ذقتُهُ ... فعجبت كيف يموتُ من لا يَعشَقُ

وعذرتهم وعرفت ذنبي أنني ... عَيّرتهُم فلقيت منه ما لقوا

نبكي على الدنيا وما من معشر ... جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا

أبَني أبينا نحن أهل منازل ... أبدا غراب البين فيها ينعق

أين الأكاسرةُ الجبابرةُ الأُولى ... كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا

مِن كل من ضاقَ الفضاءُ بجيشه ... حتى ثوى فحواه لحدٌ ضيقُ

❖❖❖❖

خرسٌ إذا نودوا كأن لم يعلموا ... أن الكلام لهم حلالٌ مطلق

فالموت آتٍ والنفوسُ نفائسٌ ... والمستغزُ بما لديه الأحمقُ

والمرء يأمل والحياة شهية ... والشيبُ أوقرُ والشبيبةُ أنزقُ

ولقد بكيت على الشباب ولمتي ... مسودةٌ ولَماءِ وجهي رونقُ

حذرا عليه قبل يوم فراقِه ... حتى لكدتُ بماء جفني أشرَقُ

❖❖❖❖

3 ـ العبد الأمير

مالي تملك قلبي عبدٌ على عبسٍ أمير..

كالليل إلا أنه في عيني القمر المنير

بهذا البيت من الشعر (في مسرحية عنترة للشاعر أحمد شوقي) ومن الأخبار المتواترة في ديوان العرب، نرى عبلة ابنة مالك العبسي، وهى تتغنى بابن عمها الفارس المغوار عنترة بن شداد، وكان والدها مالك وأبناؤه يبغضون عنترة، ويعيرونه بأمه زبيبة العبدة، وكان عنترة يدافع عن لون بشرته في اعتزاز كبير (البيتان من أشعاره):

لئن أكُ أسوداً فالمسكُ لوني ... وما لسواد جلدي من دواءِ

ولكن تبْعُدُ الفحشاءُ عني ... كبُعْدِ الأرضِ عن جوّ السماء

ةُ معلقته التي يقول في مطلعها ،، هل غادر الشعراءُ من متردم،، تتلاشي تماما خيوط الأبيض والأس ملامح الشاعر والفارس معا، وتتفجر الأشواق للحبيبة ولدارها:

يا دار عبلة بالجواء تكلمي ... وعمي صباحا دار عبلة واسلمي

إنْ كُنْتِ أزْمَعْتِ الفراقَ فإنما ... زُمّتْ رِكابُكُم بليْلٍ مظلمِ

أثْني عليَّ بما علمتِ فإنني ... سَمْحٌ مخالقتي إذا لم أُظلمِ

فإذا ظُلمتُ فإن ظلمي باسل ... مُرٌّ مَذاقَتُهُ كطعمِ العلقمِ

هلاَّ سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالك ... إنْ كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي

يخبرك من شهد الوقيعة أنني ... أغشى الوغى وأعف عند المغنمِ

يأتي البيتان الشهيران لعنترة)

ولقد ذكرتك والرماح نواهلٌ ... مني وبيضُ الهندِ تقطرُ من دمي

فوددت تقبيلَ السيوفِ لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المتبسم



- الجمهورية، الأديان، الأمل
رؤية ساركوزي للإسلام والمسلمين
- قراءة في كتاب: لكي نفهم الإسلام
- الحضارات القديمة في الصحراء الليبية

الجمهورية، الأديان، الأمل

رؤية ساركوزي للإسلام والمسلمين

الكاتب: **نيكولا ساركوزي***

عرض وتقديم: **محمد صلاح الدين المستاوي****

1 «الجمهورية، الأديان، الأمل»، ذلك هو عنوان كتاب الجيب الصادر قبل فترة باللغة الفرنسية للرئيس الجديد لفرنسا: نيكولا ساركوزي.

لقد سبق وأن صدرت ونفذت طبعته الأولى التي اطلعت عليها في الإبان، واستوقفني ما في هذا الكتاب من أفكار جديدة، وعُدتُ إلى الكتاب وأنا أتابع- مثل غيري- حملة الانتخابات الفرنسية، وأعْلنت النتائج وأصبح نيكولا ساركوزي رئيسًا لفرنسا، ورئيسًا لما لا يقل عن خمسة ملايين مسلم فرنسي يعيشون في فرنسا، منهم المواطن، ومنهم المقيم للعمل أو الدراسة أو غير ذلك.

إن ساركوزي، الذي إليه آل تدبير كل شأن فرنسا، بما فيه شأن الإسلام والمسلمين فيها، يستحق منّا معاشر المسلمين، أن نتعرّف منه مباشرة وبدون واسطة، على الكيفية التي سيتعامل بها مع الإسلام والمسلمين في فرنسا قبل كلّ شيء، وهذا جانب لا يستهان به.

هذا الكتاب«الجمهورية، الأديان، الأمل» هو خير تقديم وتعريف لرؤية ساركوزي للإسلام والمسلمين، الذين يعيشون في فرنسا، وهو خلاصة تجربة وممارسةٍ لتعاملِ مسؤولٍ فرنسي رفيع المستوى، مع ملف الإسلام والمسلمين في بلاده، هذا الملف الشائك الذي ظلّ لعقود طويلة منذ بداية القرن العشرين، وفرنسا لا تزال تستعمر العديد من البلدان العربية المغاربية والإسلامية الإفريقية. ظلّ هذا الملف يؤجَّلُ النظر فيه والتعامل معه بموضوعية نسْبية على الأقل وبعقلانية إلى أن تولى نيكولا ساركوزي مسؤولية وزارة الداخلية في فرنسا، وهي الوزارة التي تدير شؤون الأديان وشعائرها في فرنسا.

يقول نيكولا ساركوزي: «إن الصدف، أو قُل تقلّبات الحياة السياسية، هي التي قادتني بين]الماء[ماي 2002م و]الربيع[مارس 2004م، لتحمل مسؤولية وزارة الداخلية في وضع اقتصادي واجتماعي، إتسم بانخرام أمني وضعف في طريقتنا للإندماج، مصحوبًا بعودة للعنف العنصري والإسلامي، والخلط المتصاعد بين الدين والتطرف، والإسلام والإرهاب على المستوى الوطني، وعلى الصعيد العالمي.

إن شغلي الشاغل، هو إعادة استتباب الأمن بطريقة فعالة وعادلة، ومحاربة الإنحراف والخلط بنفس العزيمة، وذلك بجعل الإجراءات المستعجلة،

* رئيس فرنسا الحالي

** كاتب وباحث / تونس

تكون مقترنة بسياسة طويلة المدى، يتحقق بها للفرنسيين تصالحهم مع نموذج مجتمعهم، المؤسس على الإنخراط الجماعي، في مجموعة من القيم الأساسية، مع الإحترام للاختلافات، كل ذلك أضيف إلى الوزير المكلف بالشؤون الدينية، والتي يكلف بها عادة وزير الداخلية، لتجعل من المسائل الدينية إحدى المظاهر الهامة لنشاطاتي» انظر الصفحة 11.

ويواصل نيكولا ساركوزي قائلاً: «أضيف إلى ذلك، أن تنقلاتي المتعددة الميدانية، قريبًا من أعوان الأمن وأولئك الجندرمة، الذين يواجهون بصفة مستمرة الأوضاع الأكثر مأساوية للمآسي الإنسانية، بالإضافة إلى ما دار بيني وبين الضحايا وعائلاتهم، كل ذلك قادني إلى أن يعترضني يوميًا موضوع الأمل ومعنى الوجود.

إن اللقاء بالعائلات وأقارب الأطفال والشبان، من الذكور والإناث الضائعين أو المغتصبين أو المغتالين، كل ذلك سيبقى من لحظات المعاناة الكبيرة في حياتي...

لاشك أنه كانت ستنقصني الجرأة، وسأكون اهتمامًا عند مباشرتي لمسؤولياتي، إذا لم يكن موضوع الأمل وصلاته بالدّين والمجتمع والجمهورية، إذا لم يكن ومنذ أمد بعيد بعدًا هامًا في أفكاري الشخصية.

لقد نضجت لدي قناعة، أن الحاجة إلى الأمل ملازمة للوجود الإنساني، وذلك ما يجعل من الحريّة الدينية هامة جدًا وهو ما يعني في الحقيقة الحرية في الأمل».

وتحت عنوان: العامل الديني واللائكية.

يقول نيكولا ساركوزي: لقد تحملتُ مسؤولياتي كاملة كوزير لشؤون الشعائر الدينية، وعلى خلاف بعض من سبقوني، لم أعبّر عن لا مبالاة مهذبة مجال الأديان، ولم أتملص من مسؤوليتي كوزير لشؤون الشعائر الدينية، على العكس، لقد طالبت بهذه المسؤولية. إني أعتبر أننا في السنوات الماضية بالغنا في تقدير المسائل الاجتماعية، بينما العامل الديني والمسألة الروحية هوّنا من شأنها كثيرًا.

إن المسألة الروحية وجدت بالضبط، منذ أن كان الإنسان واعيًا بقدره ككائن بشري.

إن المسألة الروحية هي الأمل، الأمل في أن يجد الإنسان بعد موته أفقًا لتكامله مع الخلود.

ومنذ أن كان الإنسان واع بقدره، كان في حاجة إلى الأمل، ورغم أهمية المسألة الإجتماعية، فإنها غير ملازمة للوجود الإنساني كملازمة المسألة الروحية» الصفحة 14.

ويقول نيكولا ساركوزي«إن المؤمنين بالأديان الكبرى لا يطلبون أكثر من حرية عيشهم لمعتقدهم، إنهم يرفضون اعتبارهم بصفة رسميّة، يمثلون خطرًا وتهديدًا.

إنهم لا يفهمون كيف يمارس التسامح الطبيعي في المجتمع لكل أنواع الجماعات، وانتماءاتها وتصرّفاتها ذات الصفة الفئوية مع الشعور بالامبالاة في مجال الأديان، إنّهم يعيشون هذا الوضع في ضيم. لكلّ هذه الأسباب أوّليتُ اهتمامًا كبيرًا لمسؤوليتي كوزير لشؤون الشعائر الدينية.

إن الأديان تمثل رهانًا هامًا لمجتمعنا، إنها الدافع للأمل، إنّ العامل الديني عنصر أساسي، يجعل الحياة في سياق لا يتوقف عند الموت، لذلك ليست عندي رؤية متعصّبة للائكية، ولا رؤية لا مبالية. أنا أؤمن بالحاجة الدينية لغالبية النساء والرجال في قرننا. إن مكان الدّين في فرنسا في بداية الألفيّة الثالثة مركزي. لكن أؤكد أن هذا المكان ليس خارج الجمهورية، مكان غير منافس للجمهورية، مكان داخل الجمهورية. الجمهورية تضمن اللائكية العامة وهو ما يعني أنه يعود إلى المسؤولين العموميين، وبصفة خاصة وزير

شؤون الشعائر الدينية التثبت من أن مجموع الأديان تستطيع أن تعيش في الجمهورية، وتعبر عن آرائها وتقدم نفسها، ولكن بمطابقة قواعد اللائكية. بمعنى بمساواة كاملة» انظر الصفحة 16.

ويبيّن ساركوزي: كيف أن اللاتكية، يمكن أن تكون في خدمة الأديان، وكيف يكون الدّين في خدمة المجتمع؟

ويقارن بين الحضور الديني لمختلف الأديان، وكيف أن بعض الكنائس تبدو خاوية، مؤكدًا أن«الدين ليس مجرّد ظاهرة ثقافية، بل هو أحد ركائز الهويّة الثقافية» الصفحة 23.

مؤكدًا بذلك مقولة آندري مالرو جاء فيها:«القرن الحادي والعشرين سيكون قرن الدّين أو لا يكون» الصفحة 23.

ويمضي ساركوزي محلّلاً لأدق القضايا الدينية، كالتفريق بين الزمني والمقدس، والتدخل في حياة الكنيسة، وهل ذلك ممكن؟ كل ذلك وغيره في الفصل الأول الذي يمتد من الصفحة 13 إلى الصفحة 66، والذي اختار له عنوان: العامل الديني واللائكية، وفي الكثير من الآراء الجديدة الجسورة، التي ساهم بها بايجابية، في ما دار ويدور في المجتمع الفرنسي من جدال واسع، حول مسألة اللائكية بمختلف أبعادها ومقتضياتها والآراء فيها.

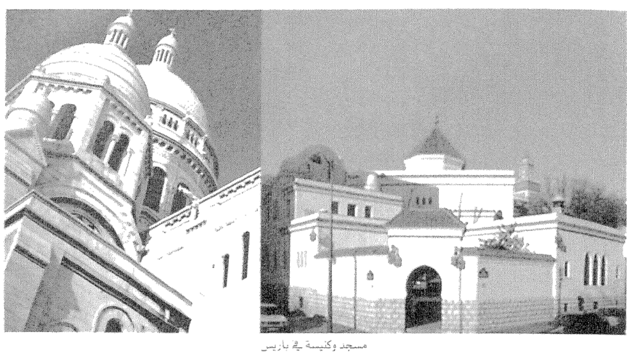
أمّا الفصل الأهم، على الأقل بالنّسبة للإسلام ولمسلمي فرنسا، وبالنسبة للمهتمين بهذا الشأن المتابعين للجديد في مجاله، وهم كثر في فرنسا وفي محيطها الأوروبي الغربي، ومحيطها المتوسطي العربي المغاربي الإسلامي.

الفصل الثاني هو: الإسلام والجمهورية، وتمتد صفحاته من الصفحة 67 إلى الصفحة 144 (77 صفحة) أي ثلث صفحات الكتاب.

في هذا الفصل يقرأ العناوين الآتية: إحداث آلية تمثيلية للشعائر الإسلامية، هل يتعارض الإسلام مع الجمهورية؟ تمشّى بونبارت، المرحلة الأساسية: ملتقي نانفيل دي روشي، دور المجلس الفرنسي للشعائر الإسلامية C.F.C.M، الحوار مع أصدقائي المسلمين، من هم مسلمو فرنسا؟ مجهود خصوصي لفائدة المسلمين ولكنه محدود في الزمن، تركه التاريخ الاستعماري، مسألة الإسلام المتطرف، استقلالية مسلمي فرنسا، وضع المرأة في الإسلام، إدماج الشباب المنحدر من الهجرة، مخاطر الطائفية، الثقة في الجمهورية، بناء المساجد، ردود الفعل على الإعتراف بإسلام فرنسا، العقيدة والثقافة الإسلامية. تلك هي عناوين المواضيع التي تطرق إليها نيكولا ساركوزي، في كتاب«الجمهورية، الأديان، الأمل»، إنها بحق قضايا هامة ودقيقة، وهي قضايا الساعة في فرنسا بالخصوص، وحتّى في غير فرنسا، وقد جاء فيها نيكولا ساركوزي، بالجديد غير المعتاد، على الأقل بالنسبة للفرنسيين وبالنسبة للمسؤولين، لقد اندمج نيكولا ساركوزي، في قضية الإسلام والمسلمين في فرنسا، باعتبارهما واقعًا فاعلاً ومؤثرًا في حياة المجتمع الفرنسي، لم يَعد مجديًا تجاهله وعدم التعامل معه، بواقعية وعقلانية وبمسؤولية، وذلك هو ما قام به بجسارة من خلال موقعه في الحكومة الفرنسية كوزير للداخلية، ووزير لشؤون الشعائر الدينية، ولا أخال أن هذا الرصيد وتلك التجربة التي اكتسبها، ستكون لها آثارها في تعامله مستقبلاً مع هذا الملف، من خلال موقعه الجديد كرئيس للجمهورية.

اندمج نيكولا ساركوزي في قضية الإسلام والمسلمين في فرنسا، باعتبارهما واقعاً فاعلاً ومؤثراً في حياة المجتمع الفرنسي

الإتيان على كل ما ورد في هذه المواضيع، من آراء وأفكار لا يتسع له هذا العرض الذي أريد منه فقط، لفت النظر والدعوة إلى إتخاذ هذه الوثيقة الهامة، كمنطلق لتحليل هذا الواقع والاستفادة من كل ما هو



مسجد وكنيسة في باريس

إيجابي، وهو كثير والحق يقال: ففي موضوع إحداث آلية تمثيلية للشعائر الإسلامية لا يدعي ساركوزي أنه أوّل من فكر في الموضوع، فقبله وفي عهد سلفه جون بيار شافافمون وقع ما أصطلح عليه الاستشارة، فساركوزي قام بدور المنشط للفكرة، والمدخل لها حيّز الفعل انطلاقًا من الواقع، إذ يعود وجود المؤسسات الدينية إلى عشرينيات القرن الماضي، عندما أذنت فرنسا بتشييد جامع المنطقة الخامسة في باريس، عربون اعتراف بالجميل من فرنسا، لرعاياها المسلمين المغاربيين والأفارة، الذين قاتلوا في صفوف جيشها، في حرب الهند الصينية.

لقد وجد ساركوزي في الساحة الفرنسية، ممثلين متعددين للإسلام، إسلام رسمي ترتاح له السلطات، يتمثل في المسجد الكبير، وما يتبعه من مصليات، وإسلام خارج عن التنظيم في تنام وازدياد، ويمكن أن يكون منطلقًا وملاذ الإسلام غير منسجم، بل خارجًا عن الأطر القانونية والإجتماعية.

يقول ساركوزي:«في الميدان تنشأ شيئًا فشيئًا مساجد في أقبية العمارات والمستودعات، بينما يتنامى على مرّ الأيام تطرف نضالي في هذه الترب الخصبة، وفي النهاية خمسة ملايين مسلم فرنسي أو مسلمين يعيشون في فرنسا، لا يرون إعترافًا لهم بحق أساسي، ألا وهو: ممارسة دينهم بحرية وعلانية، بينما هذا الحق هو من ضمن الحريات الأساسية التي ينبغي أن تضمنها الجمهورية» انظر الصفحة 70.

ويعتبر نيكولا ساركوزي، أن مجرّد إلقاء سؤال: هل يتعارض الإسلام مع الجمهورية؟ هُوَ تفكير غيْر مسؤول، إلقاء السؤال بهذه الصيغة هو قبول بأن يكون الجواب: بلا. وإذا قلنا إن الإسلام لا ينسجم مع الجمهورية، فإني ألقي بدّوري السؤال: هل يجب علينا أن نرحّل خمسة ملايين مسلم، يعيشون في فرنسا؟ هذا المشروع أخْلاقيًا لا يمكن قبوله، وعلميًا لا يمكن تحقيقه.

هل ينبغي إخراجهم من دينهم؟ باسم الحرية الشخصية مثل هذا المشروع يتعارض مباشرة مع حرية المعتقد، التي تحميها الجمهورية، هل نمنعهم من الإعتقاد؟ باسم الحرية الشخصية. (انظر الصفحة 71).

ويستعرض نيكولا ساركوزي، الطريقة التي وقع الانتهاء إليها بصفة وفاقية، في سبيل تحقيق تمثيلية

أوسع للمساجد والمصليات، والتي لاقت تجاوبًا (995 مصلى ومسجد على 1316) وكان تاريخ 19]الكانون[ديسمبر 2002م، في نانفيل لروشي، حاسمًا، حيث اعتكف ساركوزي، ثمان وأربعين ساعة مع ممثلي ونواب المساجد والجمعيات الدينية في فرنسا، ليخرج الجميع بوفاق، يقول ساركوزي:«لقد أرادت الأطراف المتعاونة أن تكون في مستوى مسؤولياتها، وفي مستوى الحدث، ونجحوا في ذلك، وبالنسبة إليّ شخصيًا فإني لا أسمح للإحباط أن يتغلب عليّ، عندما أهتم بفكرة أو مشروع عادل، أمضي فيه مهما كلّفني، إنّ فعل تخلي قليلا ما يكون من بين كلماتي التي أستعملها»، وعن مهمة المجلس الفرنسي للشعائر الإسلامية C.F.C.M، يقول ساركوزي:«ليس مهمته اصدار الفتاوي» بمعنى اعطاء المجلس للآراء الدينية في مسألة العقيدة أو الأخلاق الإسلامية.

فالتيارات الدينية متنوعة في الإسلام، بكيفية لا يتصورها أغلبية مواطنينا، وبالخصوص أنه لا توجد آليات منظمة لمن ينشؤون نظرية عامة، كما هو الحال في الكنيسة الكاثوليكية.

إن مجرّد وجود هيئة منظمة بمضمون العقيدة الإسلامية أمرٌ غريب في الثقافة الإسلامية.

هذا يمكن أن يكون عندما يتأسَّسُ معهدٌ لتكوين الأئمة في فرنسا، أعتقد أن مجلسًا للأئمة يمكن أن يجد مكانه في صلب المجلس الفرنسي للشعائر الإسلامية C.F.C.M، هذا المجلس سيكون من الطبيعي مدعوًا لدراسة المسائل الروحية والأخلاقية، رغم أن المواقف الموحدة لا يمكن أن يتوصل إليها بسرعة.

أنا مقتنع بأنّ مجلس الأئمة سيتوصل عاجلاً أم آجلاً، إلى نوع من الوفاق، وسيؤسس لقواسم مشتركة، حول النقاط الأساسية في العقيدة الإسلامية.

الرهان ليس على المستوى الوطني فقط، فالإسلام كدين كبير في بعض فترات تاريخية، كان وراء ازدهار الفنون والفلسفة والعلم، وكان مطبوعًا بالمثل الإنسانية العالمية: الحب، السلام، العدل، إحترام الحياة، بعض من تياراته تجد صعوبة في أن تتوافق معتقداتها مع التقدم.

لقد عرف الدين المسيحي مثل هذا التحدي، وباحداث المجلس الفرنسي للشعائر الإسلامية C.F.C.M، لمعهدٍ لتكوين الأمة، يُدمجُ بصفة كلّية مُسلمي فرنسا في الجمهورية، يتبيّن أنه من الممكن التأليف بين قيم ديموقراطيتنا، والعقيدة والعبادة في الدّين الإسلامي، وليعطي لمسلمي فرنسا هيكلا يمكنهم بأن يتكلموا بصوتٍ واحد. إن فرنسا يمكن أن تكون مثلا بالنسبة لكل العالم الإسلامي، ويمكنها أن تكون مثلاً لتطوير الإسلام!! وتقديم فهم أكثر علمية وأقلّ حرفيّة للقرآن، كما كان الحال بالنسبة للإنجيل في سنة 1950م، عندما تغلبت المثل الأساسية والعالمية لهذا الدين، على حساب نظريات رجعية موروثة من الماضي التاريخي. (انظر الصفحة 84).

كيف يرى ساركوزي مبادئ العلمانية الايجابية؟

من أجل مجهود خصوصي لفائدة المسلمين محدودًا في الزمن، يقول نيكولا ساركوزي:«لقد اندفعت بكليتي نحو الجالية المسلمة لأنني مقتنع أنه لا يوجد خطرٌ أشدّ يتهدد مجتمعنا، كأن نترك جزءًا منه يعتقد أنه أجنبي، باعتبار أن الحقوق التي يمكّن منها الآخرون يحرم منها هو، ينبغي علي أن أكون إلى جانب الجالية المسلمة أكثر من غيرها، لأن أفرادها ليس لهم إلى حد الآن التجذر وحتى الإمكانات المتاحة للآخرين. إنهم جدد في الجمهورية، على خلاف بقية الأديان التي يعتبر تجذرها أقدمها (زمنيًا).... (انظر الصفحة 95).

وحول تغيير مفهوم اللائكية:

يقول نيكولا ساركوزي (قواعد اللائكية ليس لها أن تتغير لفائدة هذا أو ذلك، ولكن في مقابل ذلك أقول: إنه ينبغي أن نعود إلى لائكية إيجابية وليس سلبية أو



محتشمة، لأن الأمر يتعلق بالدين، ليس عندي نظرة ضيّقة للائكية، ليس لهذا معنى؛ إلى عهد قريب عددٌ كبير من المسؤولين السياسيين والنقابيين، كانت لهم نظرة ضيقة للائكية، نظرة متأثرة بالرغبة في رد الفعل، اليوم وصلنا من حسن الحظ إلى نظرة متوازنة. (انظر الصفحة 104).

ويضيف:«لنعد إلى الواقع، هل يتصور أننا نستطيع أن طلب من مليار من المسلمين في العالم، أن يتنازلوا عن معتقداتهم؟... أعتقد من جهتي أنه ينبغي علينا أن نطمئن وشيئًا فشيئًا، نصل إلى روح من الوفاق الكبيرة والاجتماع الكبير... هل نرفض كلّ شئ؟ أمْ على العكس من ذلك، نحاور... فالإدانة لا ينتج عنها إلا التطرّف، مرة أخرى ينبغي قبول فرنسا كما هي تعددّته، لا ينبغي أن نشكك في التنوّع، ينبغي أن نجعل منه مكسبًا، الحوار، الإحترام، العزيمة على التقدم خطوة نحو الآخرين، تلك هي سُبُل المستقبل، من أجل إدْماج الجميع، (انظر الصفحة 109).

لا يمكن المضي أكثر في إيراد واستعراض كل ما ورد في كتاب (الجمهورية الأديان الأمل)، من أفكار وآراء جسورة وواقعية وبنّاءة، إنها مجرد قراءة سريعة تركنا فيها الرئيس نيكولا ساركوزي، يتحدّث لقارئه الفرنسي أولاً، والمسلم الفرنسي كذلك بما انتهى إليه بعد دراسة ملف الإسلام بفرنسا، من نتائج دافع عنها بقوة وقناعة ورغبة واضحة، في أن يكون التعامل مع الإسلام على أساسها.

إن كتاب (الجمهورية الأديان الأمل)، وثيقة جديرة بالدراسة، من طرف المعنيين بها، الذين هم أوّلاً مسلمو فرنسا بمختلف هيئاتهم، وكذلك من طرف المؤسسات الإسلامية المهتمة بأوضاع الإسلام والمسلمين، حسبنا أننا نقلنا إلى العربية، مقتطفات معبّرة، من هذا الكتاب الثريّ في مضمونه، والذي ينم عن فطنة وخبرة وموضوعية، تحسب لصاحبه، ولا شك أنه سيكون لها الأثر الإيجابي في التعامل مستقبلاً في فرنسا مع هذا الملف الهام: إسلام ومسلمي فرنسا، وكيف لا؟ وصاحب هذه الأفكار المتقدمة (بالقياس مع أفكار آخرين في نفس الميدان)، قد أصبح رئيسًا لفرنسا، حيث نأمل أن تأخذ طريقها للتنفيذ العملي، خصوصًا وهي ثمرة لعمل دؤوب جسور، قام به نيكولا ساركوزي، مع أطراف تجاوبت مع مبادراته بالأمس، وهي ولا شك مستعدة لكي تواصل معه المسيرة، من أجل مصلحة الجميع: فرنسا ومسلمي فرنسا.



قراءة في كتاب: **لكي نفهم الإسلام**

تأليف: **فريث جوف شوون***

ترجمة وعرض: **عبد الحميد غريبي****

آخر ما يمكن أن نتوقعه في هذا الزمن الصعب، هو: أن يصف بعض المتفقهين والمتفلسفين ـ من الغرباء، وحتى من بني جلدتنا ـ، الإسلام بمجافاة العقل، وهم يعلمون أن العكس هو الصحيح.

هذه شهادة قديمة جديدة، من المستشرق المجري المعروف: «فريث جوف شوون» الذي ألف العديد من الكتب عن الإسلام، والتصوف، وهو من المشهود لهم بالموضوعية، والعجيب في الأمر، أن كتابه: «كي نفهم الإسلام» يبدو وكأنه ردّ «استباقي» على الفريّة الجديدة،

هذا الكتاب ـ المهم والمقسط للإسلام ـ لم يحظ بالاهتمام الذي يستحق، نُشر في بداية القرن الماضي، ولا زال يصدر طبعات متتالية إلى يومنا هذا.

هذه محاولة لعرض ما توصل إليه «شوون» بعد دراسة معمقة للإسلام يقول «شوون» في مقدمة كتابه: الإسلام هو العلاقة ذات الاتجاهين: بين الله من أنه الذات الواجبة الوجود المطلق، وحقيقة الحقائق، والخالق والمهيمن، وبين الإنسان من حيث إنه مخلوق حر، لا يحمل خطيئة أصلية يحتاج معها إلى مخلص، ومن حيث إنه يملك ملكتين تميزانه عن غيره من المخلوقات الأخرى، وهما: العقل والحرية.

والعقل الذي أسس على «معرفة الأسماء»، هو القدرة الفطرية على استيعاب المفاهيم والعلاقات بين «المسمّيات»، لكي يكون قادرًا على تلقي كلمات الله وفهمها؛ هذه أولى معجزات خلق الإنسان، وتتمثل في كون الإنسان، أو العقل الإنساني بالأحرى، وهو المخلوق الضعيف، غير مطلق القدرات، يستطيع استيعاب كلمات الوحي الصادرة عن الله، مطلق العلم والمعرفة، لأن الوحي الإلهي لا يمكن أن يكون إلا الحق المطلق، الذي لا يشوبه نقص أو ضعف في حين أن القدرات الإنسانية نسبية ومحدودة، فكيف يمكن للنسْبي أن يعي المطلق؟.

فريث جوف شوون

يقول «شوون»، بعد عرضه لهذه الإشكالية الفلسفية: إن طبيعة العقل الإنساني ـ وهو لا يقصد الروح في هذا السياق ـ تمكنه من تلقي المعاني

* باحث ومستشرق / فرنسا

** صحفي ومترجم / ليبيا.

المجردة، ذات الصبغة السماوية ـ الماورائية ـ واستشراف المطلقات، وذلك بالرغم من عجز المُدركات الحسية عن تلقيها.

ثم يسترسل قائلاً: كل من يريد أن يفهم الإسلام فهمًا صحيحًا، عليه أن يفهم حقيقة طبيعة الإنسان ككائن، متفرد خلقه الله ليكون مستودعًا لحقيقتين إلهيتين، هما: الحقيقة الإلهية المطلقة، والنواميس المنظمة لحياته، بما فيها الشرائع والمناهج والمناسك، فالإنسان في الإسلام، يملك قدرتين: قدرة الاتصال بالسماء والحقائق المجردة، وقدرة التعامل مع الأغيار والمخلوقات الأرضية النسبية (غير المطلقة).

ومن البدهي أن يتساءل الإنسان، عن الهدف من إيداع هذه الملكات العقلية في ذات الإنسان، يقول الكاتب: إن المسلم لا ينظر إلى نفسه كدابة من الدواب، بل يؤمن بأن الله أعطاه العقل، بالمعنى الذي ذكرناه، كي يحقق خلافته على الأرض وحمل تلك الأمانة، وبأنه مخيّر في أدائها أو تضييعها، وهنا يبرز المكوّن الثاني لحقيقة الإنسان، وهو: الإرادة التي تنشأ تلقائيًا عن حرية الاختيار، ومن يقول بالإرادة والاختيار، يقول ضمنًا بالمسؤولية.

كلمة «إقرأ»، افتتح القرآن الكريم بها عصر العقل.

نلاحظ أن «شوون» ينزع في تناوله لهذه المسألة إلى المنطق، ولا يخوض في الغيبيات المطلقة، مثل: الروح والقضاء والقدر، أو «طبيعة» الذات الإلهية، وإن كان يشير بعضًا منها، في سياقات أخرى، نعرض خلاصة لها في الجزء الثاني، من هذه القراءة، إن شاء الله.

ويقارن الكاتب بين المفاهيم المسيحية والإسلامية، المتعلقة بالذات الإلهية، والطبيعة البشرية، ونوع العلاقة بينهما فيقول: إن الخاصية الأساسية التي تميّز الإسلام عما سواه من الديانات الأخرى، بما فيها المسيحية، أن وسيلة خلاص الإنسان، هي: العقل ثم الإرادة: فالعقل وحده القادر على استيعاب وحدانية الله المطلقة، وتبعية جميع المخلوقات لخالقها الأوحد، وأنه لا يمكن عقلاً أن يكون الخالق غير مطلق الوجود، فلو افترضنا جدلاً، أن يكون له كفؤ أو شريك، لنفينا عنه صفة الإطلاق، وبالتالي صفة الوحدانية، ولما كان هناك خالق ولا مخلوق.

هذا أساس التوحيد الإسلامي، كما يراه الكاتب، مؤكدًا على أن الإسلام مبني على عقيدة عقلية واضحة وبسيطة، لا تقبل التأويل أو التفلسف والمجاز، يفهمها العالم والأمي، خلافًا لما نشهده في العقائد الأخرى.

تأسيس العقيدة على العقل:

يقول «شوون» إن بوابة الإسلام، هي أن يشهد الإنسان، أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول اللهﷺ، وهاتان الشهادتان تضعان المسلم أمام إقرارين وحقيقتين، على مستويين مختلفين، ولكن مترابطين: إقرار بواقع مطلق، وهو ضرورة وجود الله الخالق والمهيمن، الآمر والناهي، وضرورة أن لا يكون له نظير أو شريك، والإقرار الثاني، يتعلق بحقيقة الإنسان ككائن متميّز على سائر المخلوقات، وإن كان يماثلها في محدودية ونسبية وجوده، المرتبط بإرادة الله وقدرته عليه، ومن ثم فهو في حاجة حيويّة دائمة، لمدد وهدي (قوامة) من خالقه لتستقيم حياته ويتحقق له الأمن، أو بعبارة أخرى، فهو محتاج إلى الرسالات الموحاة، التي تشملها رسالة النبي محمد ﷺ. ويشير الكاتب، إلى أن الإسلام يشدد على أن الوسيلة التي سنَّها الله لهداية الإنسان، هي مخاطبة عقله الذي أودعه فيه.

فالوحي والعلم النافع والمخلص، ينزلان على هيئة كلمات معقولة للإنسان، الذي لا مفر له من الإقرار بها، لأنه مجبور على القبول بها ـ وإن كارهًا ـ كمسلمات أو حقائق علمية. وهنا تكمن قوة الإسلام.

ويستطرد «شوون» قائلاً: إذا أردنا أن نقارن بين العقيدة الإسلامية والعقيدة المسيحية، يتبين لنا أنه بالإمكان الإقرار بأن الإسلام دين العقل والواقعية، التي يستدعيها العقل بالضرورة، وأن المسيحية في معتقدها الأصلي، دين المحبة والتضحية، المستمدة من تضحية المسيح - عليه السلام -، وفي حين يؤسس الإسلام لوحدانية الله المطلقة، بالحجة العقلية التي لا غموض فيها، نجد في جل العقائد، الكثير من الغموض في مسألة الألوهية والتوحيد، التي يعتبرها أتباعها، أسرارًا تستعصي عن الفهم - أي عن العقل - ويجدر بالمؤمن أن يتقبلها بقلبه المحب للخير والحق.

ويُعمّق الكاتب مقارنته بين الإسلام والمسيحية، فيقول: إن تحفّظ المسلمين إزاء أهمية المعجزات - دون نفيها من حيث المبدأ - مرده إلى ما يعتقدونه، بأنها لا تكفي بمفردها لإنشاء عقيدة قوية وثابتة، فالحب والإرادة الخيرة من الأغيار، والعواطف قابلة للتبدل ولا ترقى إلى القناعة العقلية، التي جبل الإنسان على الانحناء لها والتسليم بها، حبًا أم كرهًا؛ فالعقل حجة على الإنسان بقدر ما هو نعمة له، - ولعل إشارة «شوون» إلى التسليم العقلي بوحدانية الله، وقوامته ورسالاته (تبعاً لذلك) وتأكيده على أن قوة الإسلام تكمن في ذلك التسليم، تنعكسان في كلمة «الإسلام» كعنوان للدين كله.

ويقول الكاتب، في أفضلية العقل على المعجزات عند المسلمين: إن الإسلام لا ينفي دور المعجزات في تثبيت العقيدة، ولكنه لا يؤسسها عليها، ويسوق مثلاً لذلك، بالخوارق التي يحدثها المسيح الدجال ليثبت بها ألوهيته وقدرته على صنع المعجزات، ويقول: لو كان الدين (الإسلام) مؤسسًا على المعجزات، لما استطاع المسلم تفنيد دعاوى الدجال، ولما كانت له حجة عليه؛ ولكن صاحب العقيدة المؤسسة على العقل والتفكر (وما أكثر ورود هاتين العبارتين في القرآن الكريم، وهو المرجع الأساسي المقدس للمسلمين.

Frithjof Schuon
Comprendre l'Islam

غلاف الكتاب

خاصية ينفرد بها الإسلام:

الإسلام في فلسفة «شوون» الدينية، غير مقيد بزمان أو مكان، من حيث إنه صلة الله - الذات المطلقة الأزلية - بالإنسان المخلوق المكلف، المفطور على معرفته وعبادته بفضل ما أودع في كيانه، من الملكات العقلية القادرة على إنتاج الإيمان إذا جاءها وحي من الله، ليقدح فيها نور العلم والمعرفة بالحقائق الكامنة فيها.

وعلى عكس المسيحية، التي تُجري على الله إمكانية بل حدوث التغير في زمن محدد، ومكان محدد، عندما تجسم في عيسى - عليه السلام - ليخلص البشر من خطيئتهم، وكان قبل ذلك قد أنجب عيسى - عليه السلام - في تقاطع مكاني زماني، فكان لذلك كله قبلاً وبعداً.

فالمسلمون، يرون أن ذلك لا يجوز عقلاً، فالله لا يعتريه التغيير، ولو سلموا بحدوث ذلك أو إمكانية حدوثه، لفسدت عقيدتهم، لأن الكون كلّه بما فيه من خلائق، لا يستطيع أن يحتفظ بوجوده لحظة من زمن، بمعزل عن خالقه، الذي يمدّه بأسباب ونواميس وجوده (القيوميه) فلو سلم المسلم بإمكانية أن يغير الله طبيعته ليتجسد - ولو لثانية واحدة -، في أحد مخلوقاته، لانهارت الخليقة، وبالعقل وحده يفهم المسلم، أن الله لا يعتريه التغير، وهذا يفسر شدة استنكار المسلمين، لفكرة التثليث والتجسم؛ ويشير الكاتب هنا، إلى أن فهم الإسلام لا يكون إلا بعرفة مفاتيحه، وأهمها في مجال العقيدة: مفتاح العقل، أما

العواطف والأحوال، فهي من ثمرات الإيمان العقلي، وتحكمها بالزيادة والنقصان، عبادات وطاعات صاحبها، ويحذر الكاتب القارئ من الاعتقاد بأن الإيمان في الإسلام حالة عقلية باردة، ويؤكد على بطلان ذلك الاعتقاد، بل يدلل على حقيقة: أن الإيمان المؤسس على الاقتناع العقلي، هو الذي يخالط الوجدان والعواطف، ويتخلل جوانب النفس، كلما اجتهد المسلم في العبادة، ويستدل على ذلك قائلاً: ألسنا نرى أن المسلمين ـ على عكس غيرهم ـ لا يرتدون عن دينهم، وأن أكثرهم حريصون على عباداتهم، بالرغم من صعوبتها الظاهرة، في حين يتناقص المؤمنون في الأديان الأخرى بشكل مخيف؟

وعلى الصعيد الفلسفي الصرف، يقول «شوون»: إن المنهج المعرفي الذي يعرضه الإسلام، لحل إشكالية الإنسان الوجودية» (كنهه، خلقه، مآله) متسق مع مسلمات العقل وآلياته المنطقية والسببيّة. وهو بذلك يدخل في دائرة الممكن، وإذا ارتبط الممكن بالواقع، أو بطرف منه، أصبح ضروريًا، أي حقيقيًا، ويرى الكاتب، أن ذلك لا ينفي صحة مقاربات، قد تكون مختلفة شكلاً ومتماثلة موضوعًا، ولعلّه يريد بذلك التأكيد، على أن الإسلام لا ينفي صحة الرسالات السماوية السابقة.

قوة الإسلام تكمن في قدرته على مخاطبة العقول

طبيعة القرآن الكريم:

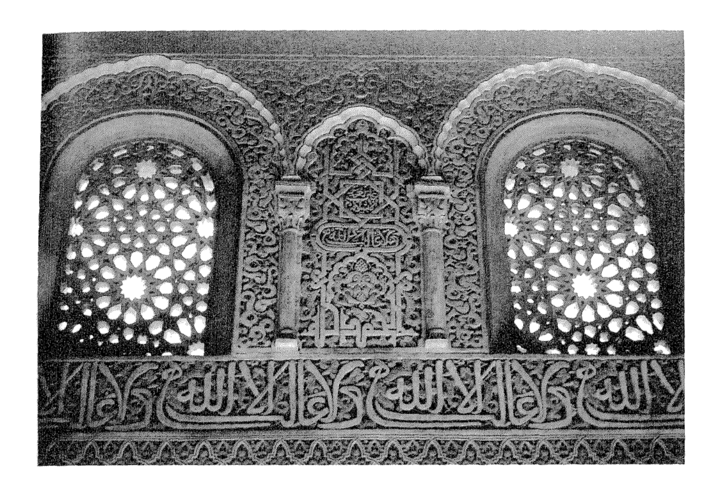
يفرد المستشرق، «فريث شوون» فصلا كاملاً، للحديث عن القرآن الكريم، يذكر بعض التوضيحات الضرورية، حول منشأ القرآن الكريم، وأغراضه ومنهجه، في تأسيس الدين الإسلامي، كعقيدة وكشريعة.

أوجز وصف للقرآن الكريم، ـ كما يقول الكاتب ـ، هو: أنه كتاب موحى به إلى محمد رسول الله ﷺ، يفرق بين الحق والباطل:

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [سورة الإسراء، الآية 81]

يقول «شوون»: إن القرآن تحدى فصحاء العرب، أن يأتوا بمثله، ولكن الكثيرين من المسلمين، حصروا الإعجاز القرآني في بيانه وأسلوبه، وجمال نسقه، في حين أن إعجاز القرآن الكريم، يكمن في مضمونه أولاً، ثم في شكله، ولقد حاول الشعراء والمتنبئين تركيب نصوص، تحاكي لغة القرآن الكريم، من حيث الشكل، ولكن لا صلة لها، من قريب أو من بعيد، بمضامين القرآن الكريم، فلم يجنوا من ذلك إلا السخرية. ومن إعجاز القرآن الكريم، عند المحللين أو المفسرين من علماء الإسلام الأوائل، أنه صياغة لفظية، تجمع بين خاصية الجمال المطلق، باعتبارها صادرة عن الله مطلق العلم والقدرة، وخاصية السهولة والرصد الضرورين لمدارك وأفهام الناس، على عمومهم. أي قدرة اللفظ ذاته، على الجمع بين صفة الإطلاق لكلام الله، وصفة النسبية الضرورية لبلوغ مدارك البشر.

ويستطرد «شوون» قائلاً: القرآن الكريم، كنص ديني صادر عن الله، يحمل بالضرورة نفحات وقوة روحية لا يمكن توصيفها، أو حتى إدراك ماهيتها، وللصوفيين كلام في ذلك، ليس هذا مجال استعراضه. ويخلص من ذلك، إلى أن القول، بأن المسلم يستشعر عظمة وروحانية القرآن في كل كلمة، وكل حرف من حروفه، باعتباره كلام الله، ولا يفرق بين الآيات التي تختص بالتوحيد والأمور العظام، وبين الآيات التي تنظم علاقات المسلمين وشؤونهم اليومية. ودليل الكاتب على أن القرآن الكريم عند المسلم مبارك ومفيد بلفظه المجرد، وإن لم يجد فيه معنى محددًا، مثل حروف فواتح السور، ولو لم يكن فيها نفع للناس، لما أنزلها الله في الكتاب.



ومن خصائص القرآن الكريم، التي يسردها الكاتب، أنه واحد، باعتباره كلام الله الواحد المطلق، ومتعدد باعتباره بيانًا للناس، يعلمهم دينهم ومناسكهم وشريعتهم، بالأمر والنهي تارة، وبالقصة والمثل تارة أخرى، ويُشبه القرآن الكريم، بالكون الواحد والمتعدد، إلا أن الكون ينزع إلى التفرق والتفتت، في حين أن القرآن يجمع ولا يفرق ويؤلف ولا يشتت.

منهج القرآن في علاج النفوس:

ومن الملاحظات الدقيقة، التي يعتقد أنها جديرة بالاهتمام، أن القرآن الكريم، لا يقدم «محاضرات» نظرية، لدعوة الناس إلى الإقرار بما يحتويه من حقائق، ولكنه يستخدم أساليب تربوية، مثل: سرد القصص وضرب الأمثال. وللكاتب رأي خاص، في مسألة فريدة، لا أعلم إن كان سبقه إليها أحد، فهو يقول: إن بعض الناس ينفرون من النصوص الدينية المنزلة، ومنها القرآن الكريم، ولا يستطيعون مواصلة قراءتها، بدعوى أنها غير مسترسلة، وتنتقل فجأة من معنى إلى آخر، دون سبب ظاهر، وأنها تحتوي على قدر كبير من التكرار؛ ويعزى ذلك ـ حسب رأيه ـ، إلى أن القرآن الكريم ـ أو غيره من الكتب السماوية ـ يبدو كذلك عند بعض الناس، لأنه يزعج نوازع الشر، وآثار عمل الشيطان في النفس البشرية، وكذلك تصدم مشاهد قيام الساعة، ويوم الحساب مخيلة القارئ، عسى أن يرتدع ويُسلم لله، فإن ثبت على القراءة، فهدايته مأمولة، وإن أعرض فهو الخاسر.

وقد يتساءل القارئ الكريم، هل أسلم البروفسور «فريث جوف شوون» الذي دعا الناس إلى فهم الإسلام على نحو ما فهمه هو؟

لا أحد يعلم على وجه اليقين، إن كان فعل أو لم يفعل، وفي كل الأحوال فإن ذلك شأن يعنيه وحده.



الحضارات القديمة في الصحراء الليبية

عرض: **علي الصادق حسنين** *

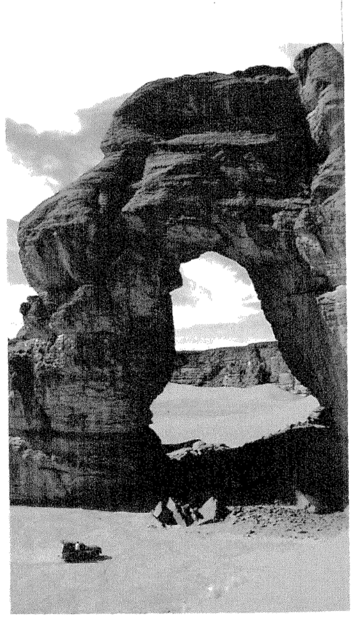


يشهد التاريخ بأن صحراءنا المترامية الأطراف، كانت في العصور القديمة مهداً لحضارات مزدهرة، ظلت موضع دراسات وبحوث تم تحريرها بلغات شتى.

إن أحدث ما ألف في هذا المضمار - على حد علمي - كتاب باللغة الإيطالية، بسيط في حجمه (160 صفحة قطعها 20 × 3،5اسم) مهم في محتواه، صدر منذ عهد قريب، عن دار الفرجاني للنشر بطرابلس عنوانه:

"Le Antiche Civilta' del Sahara Libico Un viaggio nel passato per scoprire l'alba dell'nomo"

(الحضارات القديمة في الصحراء الليبية - «رحلة في أغوار الماضي لاكتشاف نشأة الإنسان). سهرت على تأليف هذا العمل القيم سيدة إيطالية هي الدكتورة روبيرتا روكو (Roberta Ruocco)،أستاذة في علم الإنسان» والمتخصصة في الثقافة العربية/ الإسلامية، والتي سبقت لها إقامات طويلة بأقطار عربية كثيرة بحواضرها وبصحاريها، مع العلم بأنها تقيم حاليًا في ليبيا، حيث تعمل أستاذة جامعية، كما أن لها نشاطاً في مجال البحث العلمي، كان من ثماره كتاب:



* باحث / ليبيا.

"L'identita palestinese-genesi di una coscienza nazionale"

(الهُوية الفلسطينية ـ نشوء وعي وطني) وذلك فضلاً عن عديد المقالات التي نشرتها لها، بعض المجلات المتخصصة في إيطاليا.

إن الكتاب الذي نحن بصدد عرضه، أشبه ما يكون بعيون خبيرة، ترافق القارئ في سعيه الرامي إلى كشف جمال الفن، الذي ازدهر في ربوع الصحراء الليبية، إبان عصر ما قبل التاريخ، ذلك الجمال الكامن في كل من: تدرارت (أي جبل ـ باللهجة التارقية)، جبل أكاكوس،وجبل أمساك،، في ربوع فزان.

هذا وعلاوة على المدخل والخاتمة وبعض الملاحظات الوجيزة، ينطوي الكتاب على فهرس للمصادر، وبعض الجداول التوضيحية، والخرائط، وعلى وفرة من الصور الملونة وغير الملونة، لمناظر ونقوش ومشاهد صحراوية بديعة.

أما صلب النص فيتألف من الفصول الثمانية التالية:

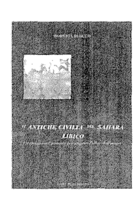
- ❖ الفصل الأول ـ أصل الإنسان.
- ❖ الفصل الثاني ـ لماذا بدأ الإنسان يصور؟
- ❖ الفصل الثالث ـ الأسلوب والتقنية.
- ❖ الفصل الرابع ـ الصور المحفورة في صخور جبل أمساك.
- ❖ الفصل الخامس ـ الصور الملونة على صخور جبل أكاكوس.
- ❖ الفصل السادس ـ الفن والدين في عصر ما قبل التاريخ.
- ❖ الفصل السابع ـ الكتابة.
- ❖ الفصل الثامن ـ التسلسل التاريخي للأعمال.

إن صفحات هذا الكتاب، تُظهر للعيان شواهد ثورة خارقة، غير مسبوقة في تاريخ البشرية.

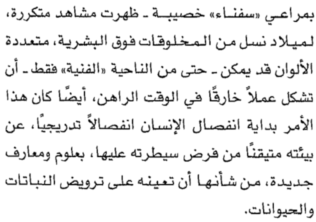
طوال مدى من الزمن، تراوح بين 15,000 و5,000 سنة خلت، شهدت «الصحراء» ـ التي تبدو اليوم إقليماً في منتهى القحالة، ويكاد يكون خالياً من السكان- ازدهار حضارات في منتهى الرقي، كان من شأنها أن أحدثت تحولات ثقافية فعالة، في منتهى الأهمية، من أجل بقاء الجنس البشري.

إن تطوراً (بيولوجياً) وثقافياً بطيئاً، دام ملايين السنين، أدّى بالإنسان إلى إدراك ومعرفة وإتقان، مهاراته وقدراته وغيّر ـ من خلال ذلك ـ وكيّف علاقاته بالطبيعة، التي كان قد عاش في كنفها ـ إلى وقت ما ـ على نحو تكافلي.

كان الوعي إذن هو الحافز الرئيسي، إلى ما حققه من إنجازات، وذلك ابتداء من تحسين الأدوات الحجرية، إلى تملك النار والسيطرة عليها، ومن «اكتشاف» الموت وحياة آخرة، إلى «اكتشاف» الصخر كمحمل لعلامات منقوشة أو مصورة، فأصبح ـ أي الصخرـ على هذا النحو، أداة جديدة غير قابلة للتلف، تُستعمل كوسيلة تواصل اجتماعي. على هذا النحو ـ ولأول مرةٍ في تاريخ العالم ـ ظهرت على صخور هذا الإقليم ـ الذي كان عصرئذ خصيباً وأشبه ما يكون



غلاف كتاب الحضارات القديمة في الصحراء الليبية



بمراعي «سفناء» خصيبة ـ ظهرت مشاهد متكررة، لميلاد نسل من المخلوقات فوق البشرية، متعددة الألوان قد يمكن ـ حتى من الناحية «الفنية» فقط ـ أن تشكل عملاً خارقاً في الوقت الراهن، أيضاً كان هذا الأمر بداية انفصال الإنسان انفصالاً تدريجياً، عن بيئته متيقناً من فرض سيطرته عليها، بعلوم ومعارف جديدة، من شأنها أن تعينه على ترويض النباتات والحيوانات.

وقد بدأ ذلك وقتئذ، انجازاً ووسيلةً للتحرر من طبيعة، كانت في بعض الأحيان قاسية.





إلا أن العالم المرتبط بهذه الحضارات المذهلة، قد اختفى فجأة، وبعد أكثر من ألف سنة فقط بقليل، أخذ يظهر السكان الجدد، الذين عمروا هذه المنطقة المترامية الأطراف، التي تحتضن الكتل الجبلية المنتصبة في وسط الصحراء الليبية.

إن هؤلاء السكان، كانوا رعاة من جنس شبه أوسطي، ذوي قوام مستقيم دقيق، باذلين جهودهم وعنايتهم بتربية قطعان كبيرة من البقر، وحاملين ثقافة مختلفة، وكانوا هم أيضًا أصحاب أعمال خالدة في النقش والتصوير.

غير أن التقلبات المناخية كانت قاسية حازمة، إذ بدأت الصحراء زحفها، ومحا الصمتُ إلى الأبد كلَّ أثر من آثار وجودهم القصي. هذا ومن جهة أخرى، يرى بعضهم أن جبهتين كبيرتين فقط، لم تنتهك حرمتهما: تتمثل إحداهما في ارتياد الفضاء، وتتمثل الأخرى في سبر أغوار الماضي.

إن تلك الخلفية المكوَّنة من الجغرافيا، والمناخ وحياة الحيوان، هي التي واكبت تطور الإنسان من حضيض ما قبل البشر إلى مستوى الإنسان، بصفته نوعًا بيولوجيًا.

وان أقدم دليل على وجود «نوعنا البشري»، يوفره ما أنجزه فنانون مجهولون، من لوحات ونقوش بديعة، على جدران الكهوف. ولا وجود لما يوثق ذلك أو يقيم الدليل عليه.

إن أحدى تيارات البحث، قد ساقت المؤلفة صوب الصحراء الليبية، وأن وجود النقوش والصور الصخرية، بجبلي أكاكوس وامساك، ليعود إليه الفضل في الدفع إلى الاعتقاد، بأن أقدم أسلافنا لم يعيش فقط، في هذا الإقليم ولكنه طور فيه أيضًا، حضارة عظيمة لم يعد لها اليوم وجود.

إن هؤلاء البشر ـ الذين ينتمون إلى عصور ما قبل التاريخ، والذين يسميهم أتباع نظرية التطور البشري الداروينية»، البربر المتوسطيِّين الأوائل، ـ يمثلون «تسلسلاً» يوصلهم بالحاضر كما يدلون ـ من خلال الشواهد، التي أرادوا تركها لنا ـ على أنهم طوروا وبذكاء فائق، نظامًا اجتماعيًا دقيقًا، منذ العصر النيوليتي ـ أي الحجري الجديد ـ (12000 سنة قبل عصرنا الحاضر)، لأجل ذلك قررت المؤلفة كتابة هذه الصفحات، حيث تعترف بفضل ليبيا، التي أعادت إلى العالم شواهد، تعتبر ضرورية لفهم التغيّرات، التي أصابت الفرد والجماعة من بني البشر.

إن إقليم فزان، يحتضن واحدًا من أكبر متاحف عصور ما قبل التاريخ، «في العراء» لا يمكن لبشر يعيشون في عصر ما بعد العصرية، وفرط التكنولوجيا أمثالنا، أن يستغنوا عن معرفته.

ومما نوصي به، من يريد زيارة هذه المواقع، أن لا ينسى أن يمشي على أطراف قدميه، قرب المواطئ، التي تكمن تحت الصخر فيها، تحفٌ مصوَّرة أو منقوشة، حتى لا يؤدِّي مرورُه إلى محو آثار أسلافه.

وتعترف الأستاذة روبيرتا روكو، بأن دافعها إلى قضاء عمرها، في البحث عن أشياء مدفونة بين طيات الماضي، ليس سوى رغبتها في معرفة «من هي» و«ما الذي صيرها إلى ما هي عليه».

هذا وتدلي المؤلفة بشهادة من الخطورة بمكان، مفادها أن ليبيا قد وفرت بيّنات في منتهى الأهمية، على عصر ما قبل التاريخ، وعلى وجود الإنسان كما هو موثق، من خلال تصنيع الحجر وابتكار أشياء من الخزف و- بالأخص- النقوش والصور الصخرية، التي ورد ذكرها في الكتاب، والتي تحتل مكانها بمتحف طرابلس، مشفوعة بقدر كاف من الشروح والإيضاحات.

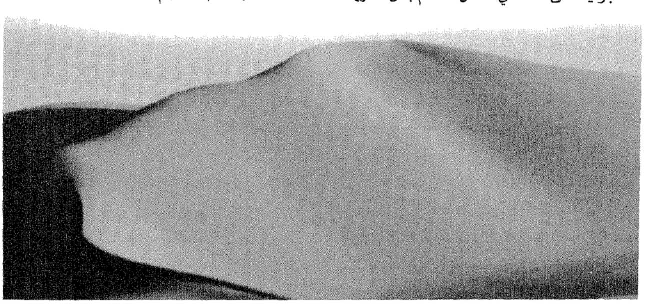
وفي النهاية، تخلص المؤلفة إلى طرح بعض التساؤلات قائلة: ما ومن هو الإنسان؟ من أين أتى؟ ما هو موقعه في العالم؟ من أي مواد تتكون السماء والأرض والبحر؟ ما هي طبيعة الآلهة؟، هذه الأسئلة حاول إنسان كل العصور الإجابة عنها، طوال آلاف السنين، وذلك بحكم حاجته لإعطاء معنى لوجوده، وإعطاء سبب لحياته على وجه البسيطة. إنه قام بذلك من خلال إعطائه الأشياء أسماء، تمكّنه من تحديد وجهته في خضم الواقع، مخترعًا وسائل للمعرفة ومحدثًا أساليب للتواصل مع بني جنسه ومنشئًا «شبكة عنكبوتية» من المعاني، تمثل العالم بكل تشريعاته ومقتبسًا بعض الصور ومبتكرًا علامات أو رموزًا، قادرة على طرد أو درء أشد المخاوف التي تعتريه، والتي تشمل خوفه من الموت. هذا وإن الإجابة عن كل هذه التساؤلات البشرية، قد أفسحت المجال أمام تكاثر واسع للواقع، الذي يكتسب فيه كل عنصر وكل موضوع معنى، وحيد الاتجاه، وغير قابل للتكرار، ومن شأنه أن يحدد هوية منشأ كل حضارة، من الحضارات المختلفة.

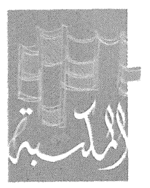
إن هذه «الشبكة العنكبوتية» من المعاني، تشكل ضربًا من التمثيل الذاتي، الذي يفرز ويميز بين كل الثقافات التي تؤدي إلى خلق شتى الحضارات.

إن هذا الإنتاج - التمثيل الذاتي الثقافي - هو الذي نسميه اليوم «أسطورة» والذي يشكل الأداة الوحيدة، التي تمكن الإنسان العصري، من النفوذ إلى مصادر تاريخ الجنس البشري، ومن فك رموزها ومن معرفتها وفهمها، حتى في أبعد عصور ما قبل التاريخ.

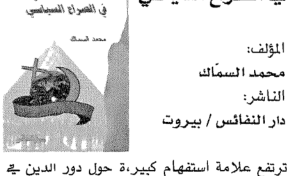
وتختم المؤلفة بقولها:«وهذا هو ما حاولنا عمله بكتابة هذه الصفحات، على أمل أن نستطيع أن نشاطر - ولو لحقبة قصيرة - ماضينا القصي، الذي هو ماض مشترك أيضًا للجنس البشري طرا.

وبانتهاء قول الدكتورة روكو، ينتهي هذا العرض المقتضب لكتابها القيم.





الاستغلال الديني في الصراع السياسي

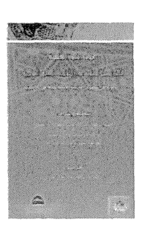


المؤلف:
محمد السمّاك
الناشر:
دار النفائس / بيروت

ترتفع علامة استفهام كبيرة حول دور الدين في الصراعات السياسية، في مناطق متعددة من العالم. ولا يخفى أن أعنف الحروب هي الحروب الدينية، وأسوأ استغلال هو استغلال الدين لمكاسب دنيوية، والمتوقع بعد أن كانت الحروب الدينية في العام 1948 مسيحي (ثلاثة) وأصبحت في العام 1992 مسيحي (ثلاثة وعشرون)، أن يعود الدين إلى الحياة في هذا القرن، بعد أن احتلت المادة مركز الصدارة في القرن العشرين. وقد تزايد الاهتمام في العالم كله بأمرين أساسيين، الأول: حول كيفية حل الصراعات التي تتفجر بعد خمود نار الحرب الباردة، والأمر الثاني: حول البعد الديني لهذه الصراعات، ويزيد تصاعد الصراعات الدينية حدة وعددا الحاجة إلى دراسة هذه الظاهرة، وكيفية استخدام الدين نفسه لمعالجتها، بدلاً من استخدامه لتأجيجها. ومن الملاحظ أنه عندما تتلاشى المسافة بين الديني والإثني، تصبح القومية الوجه الآخر للإيمان الديني. والسؤال هو: هل يتحمل الضمير الديني النتائج اللاأخلاقية للسياسة؟ في هذا الكتاب إجابة عن هذا التساؤل وغيره، من خلال بحث المؤلف ودراسته لكل ما يتعلق باستغلال الدين وتوظيفه في الصراع السياسي.

الشيخ العلاَمة عبدالله الغدامسي المغربي ودوره في تطوير التربية الإسلامية في ماليزيا

تحرير د. **عادل محمد عبد العزيز الغرياني**
منشورات: **جمعية الدعوة الإسلامية العالمية**
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية



شهدت بلاد المالايو، خلال فترات تاريخها الطويل، قدوم عدد كبير من العلماء المسلمين، من أصقاع العالم الإسلامي كافة، الذين تركوا بصمات واضحة المعالم في مشاهد الحياة الدينية والسياسية والثقافية، وساهموا مع العلماء الملاويين في تطوير المجتمع، وواجهوا جميعاً صفاً واحداً المشاكل والعقبات كافة، التي وضعها المستعمر في وجه أبناء البلد، وتحدوا الظروف كافة في أخوة وتعاضد. ومن بين أولئك العلماء الأعلام، الشيخ عبدالله أحمد الغدامسي. ويضم هذا الكتاب بين دفتيه أعمال الندوة العلمية التي نظمتها جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، وكلية دراسات القرآن والسنّة بجامعة العلوم الإسلامية الماليزية حول الشيخ الغدامسي ومساهمته في حركة النهضة العلمية ببلاد الملايو، من أجل إبراز أهم الجهود التي بذلها للنهوض بالمجتمع هناك، في مدة استمرت ما يقرب من ثلاثين سنة قضّاها مناضلاً، متنقلاً بين الجزر الماليزية داعياً، ومحرضاً، ومعلماً، مجدداً ومصلحاً.



الرؤية الإسلامية لإعلام الطفل

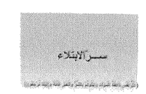
المؤلف: د. محيي الدين عبد الحليم
الناشر: المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)

إذا كانت العناية بالطفل المسلم واجبة في كل حال، فهي أوجب ما تكون في هذا الظرف، الذي يعيش فيه المجتمع الإسلامي تحت تأثيرات ثقافية وإعلامية، موجهة بإحكامٍ بالغ، ومدعومة بإمكانات هائلة، تهدف إلى فرض هيمنة ثقافية مغايرة على شعوب العالم، وإقصاء ثقافات هذه الشعوب وتهميشها. وفي هذا الكتاب القيّم، يتناول المؤلف أهم القضايا ذات الصلة بإعلام الطفل، ويعالج إشكاليات الإعلام الموجّه للطفل المسلم، ويقترح حلولاً عملية لها. ويركز المؤلف على السمات الأساس لما ينبغي أن تكون عليه الرسالة الإعلامية الموجهة للطفل، من حيث مضمونها ومجمل صفاتها، المتوافقة مع تكوين الطفل العقلي والنفسي، وكيفيات استخدام الوسيلة الإعلامية لتحقيق الأثر المطلوب، ويقدم المؤلف تصوراً مستفيضاً لإعلام الطفل في ضوء تحديات العصر، المتمثلة في الغزو الثقافي، المدعوم بإمكانات البث الفضائي المباشر، ومشكلات التخطيط الإعلامي، وفقدان النماذج القدوة في إعلام الطفل المسلم، والنقص الملحوظ في الوسائل والمختصين في مجال إعلام الطفل المسلم. ويخلص المؤلف إلى توصيات ومقترحات تمثل أساساً لانطلاقة إعلامية رشيدة، تؤمّن للطفل المسلم تربيةً وتثقيفاً يؤكدان صلته بعقيدته وتراثه، وتؤمّن له في الوقت نفسه وسائل الترويح والتنوّع، التي تمثل جزءاً أساساً من حاجاته. وتكشف هذه الدراسة عن مجموعة من الحقائق التي يمكن أن تشكل أساساً علمياً، يتم على منواله وضع إطار مرجعي للنشاط الإعلامي بصفة عامة وتتحدد من خلاله القواعد والأصول التي تحكم الرؤية الإسلامية لإعلام الطفل، وتكمن هذه الحقائق في سبع عشرة نقطة يوجزها المؤلف في خاتمة الكتاب.

الجليس.. مطبوعة تبدأ بخطى واثقة



تسلمت إدارة التحرير نسخة من العدد الأول وأخرى من العدد الثاني لمجلة (الجليس) التي تصدر عن اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام بالجماهيرية العظمى، وهي مجلة شهرية تعنى بالآداب والفنون، تتطلع إلى مزيد التواصل بين القارئ والكتاب، وتسعى إلى الإسهام في تعزيز الحوار الجاد والبناء الذي يعمق صلة القارئ بما يجري حوله، متسلحاً بالمعرفة التي تمكنه من التعاطي مع المحيط وتجاوز زيف الواقع، لكي يرى الأمور على حقيقتها. و(الجليس) تعنى أساساً بالكتاب بوصفه خير أنيس. ولعله من حسن الطالع أن تصدر هذه المطبوعة هذا العام وليبيا تعيش تدفقا غير مسبوق من الإصدارات في جميع مجالات المعرفة، من خلال تضافر جهود مختلف المؤسسات الثقافية والأكاديمية تحقيقاً لجماهيرية المعرفة. كما يأتي إصدار (الجليس) هذا العام تزامناً مع مرور نصف قرن على صدور بواكير الكتابات الليبية الحديثة في الشعر والقصة والنقد. ومن حسن الطالع أيضاً أن يتم اختيار مدينة طرابلس عاصمة للثقافة الإسلامية لهذا العام تقديراً لعراقة تاريخها وعرفاناً بدورها المتميز.

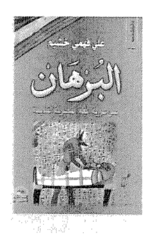


سر الابتلاء

المؤلف: د. هارون يحيى

الناشر: المؤلف نفسه

أكثر الرغبات التي نلهث وراءها في هذه الحياة الدنيا، مهما بذلنا من مشقة في سبيل تحصيلها، ما هي إلا متع زائلة. ولكن هناك حياة أخرى حقيقية دائمة ذات طيبات خالدة، حياة يزيد عطاؤها ولا ينفد، حيث ينعم الإنسان فيها بالخلود، إنها حياة ما بعد الموت، هي الحياة التي يبذل المؤمنون قصارى جهدهم للوصول إليها، ويعتبرونها أسمى أمانيهم وأهدافهم، واضعينها على الدوام نصب أعينهم. لذلك فإن هذه الحياة الدنيا هي ميدان الاختبار الذي ينبغي لبني البشر أن يجتازوه ليحددوا أية حياة خلود سوف يحيونها في الآخرة، فهذا الامتحان الذي يخضعون له في الحياة الدنيا، سيؤهلهم لدخول الحياة السرمدية في الآخرة، فما عليك والحال كذلك إلا اتباع رضوان الله عز وجل. وفي الحقيقة ما الحياة الدنيا سوى اختبار انتقالي وفترة تدريبية، وهبها الله سبحانه لكل إنسان ليكون مسؤولا عن التدبر فيها للوصول إلى معرفة الله سبحانه، وإطاعة أوامره، والعمل على كسب رضاه، والتحلي بالفضيلة والصبر ومبادئ الأخلاق، في مواجهة أي طارئ قد يحدث له طالما بقي على وجه هذه الأرض. ولا يعرف السر العظيم لهذا الامتحان سوى المؤمنين، فالمؤمن على يقين من أن كل شيء أدرج في الامتحان هو من قدر الله سبحانه ابتداءً، ليقوى على مواجهة أي طارئ برباطة جأش كبيرة، وهؤلاء الذين أدركوا هذا السر ـ وفقاً لهذه الحقيقة الخفية الجلية في آن واحد ـ سينالون نعيماً مقيماً ما له من نفاد. وهذا الكتاب يميط اللثام عن هذه الحقائق لأولئك الذين يجهلون ذلك السر العظيم، ويمضون أعمارهم دون التفكر في هذه الحقيقة الجلية، ويحثهم أن يضعوا لأنفسهم هدفاً يكون أسمى ما في هذا الوجود.



البرهان على عروبة اللغة المصرية القديمة

المؤلف:

أ.د. علي فهمي خشيم

الناشر:

مجمع اللغة العربية / طرابلس

مركز الحضارة العربية / القاهرة

عندما صدر كتابه (آلهة مصر العربية) سنة 1990 م، ضمنه الدكتور علي فهمي خشيم معجمين صغيرين مقارنين بين المصرية القديمة والعربية، ووعد بإعداد معجم مقارن أكبر وأشمل بين اللغتين الشقيقتين لإثبات ما نادى به من وحدة الثنتين في أصولهما الأولى بل وفي فروعهما على مر الزمان. وها هو الدكتور علي فهمي خشيم يفي بوعده ويقدم إلى عامة القرآء وخاصتهم كتاب (البرهان) ليسهم في إزالة بعض من الغبش الذي غطى صورة الصلة الوثيقة بين لسان أهل وادي النيل الأقدمين وبين اللسان العربي المبين، فتثبت عروبة مصر التي أراد لها البعض أن تحسب منعزلة عن محيطها، منفصلة عن جيرانها، بل أهلها. ويقدم المؤلف البرهان الصادق والساطع والواضح الذي يؤكد أن الصلة الوثقى بين حضارة وادي النيل العتيقة وما جاورها من شعوب وأقوام تثبت وتتأكد عن أهم وسيلة للإثبات والتأكيد ألا وهي (اللغة) التي تمثل كينونة الأقوام وذاتية الشعوب، وبها تعرف صلات الأمم بعضها ببعض. والكتاب حصيلة خمسة عشر عاماً من العمل الدؤوب والتحقيق والبحث والمقارنة، يلقي مزيداً من الضوء على دراسة (المصريات) بمنظور عربي جلي، ويسهم في إثراء البحث اللغوي المقارن في مجال ظل زمناً طويلاً بعيداً عن اهتمام العلماء العرب، وهم الأولى به دون غيرهم من العالمين.

التواصل

AT-TAWASUL

فصلية ثقافية شاملة



تنوع.. استفادة.. أثر طيب

○ الأخ أمين تحرير مجلة التواصل

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يسرنا أن نشعركم بأننا تسلمنا بكل غبطة وسرور نسخة من مجلتكم الغراء، ولا شك في أنها أعجبتنا جداً بمحتوياتها المتنوعة، وأن لها أثر طيباً بين الطلاب والباحثين والأساتذة، ويستفيد من محتوياتها العلمية والثقافية والفكرية والأدبية عدد كبير من طلاب العلم وعشاق الفكر والأدب.

ونود أن نفيدكم بأن مركز الإصلاح في مالابرم / كيرلا / بالهند قد أسس منذ فترة، وكان الهدف من تأسيسه إنتشال عدد كبير من الشبان المسلمين، الذين كانوا منغمسين في ملاذ الحياة الدنيا، انتشالهم وقيادتهم إلى سبيل الرشاد والإيمان، وكان من أول أعمالنا تأسيس مكتبة ثقافية فكرية لنصرفهم عن اللهو، ونأخذهم إلى القرآءة الفعالة المريحة والمفيدة، كما أن لنا مناشط أخرى في المجالات التربوية والاجتماعية والثقافية.

كما أن (الجامعة الإسلامية) هنا هي جامعة تجمع العلوم الدينية والدنيوية، وتخرج علماء الدين الملمين بالعلوم الحديثة، وتنفرد الجامعة بدوراتها المتميزة في اللغة العربية الحديثة والإنجليزية والأوردية، بقصد إعداد الدعاة لتكوين جيل قوي نشط، لمواجهة التحديات المعاصرة، وقيادة المسلمين إلى سبيل الرشاد والسلامة.

ونود أن نفيدكم بأن المجلات والصحف العربية ـ للأسف الشديد ـ لا تأتينا إلا نادراً، ونحن حريصون على وصولها إلينا، للإستفادة منها في عملنا الدعوي.

لذلك نرجو منكم التكرم بإرسال نسخ من مجلة التواصل لتكون أكبر مساعد لنا في تأدية ما نقوم به من عمل خيّر بإذن الله. ونسأل الله التوفيق والسداد لنا ولكم. والسلام عليكم ورحمة الله.

صلاح الدين. ك / أبوبكر مولاي

المكتبة الإسلامية ومركز البحوث / الجامعة الإسلامية

مالابرم كيرلا ـ الهند

المحرر: نشكركم على المبادرة بالكتابة إلينا، ونكبر فيكم هذه المشاعر الطيبة تجاه مجلة التواصل وما ينشر على صفحاتها. ونرجو نقل تحياتنا إلى كل الطلاب والباحثين والأساتذة. هذا ونفيدكم بأن طلبكم قد أحيل إلى قسم التوزيع بالمجلة. ونتمنى دوام التواصل، والكتابة إلينا مساهمة في إثراء المواد المنشورة على صفحات مجلة التواصل. تأكيداً وترسيخاً لجسور التواصل، بما يفيد كل القراء على مختلف مشاربهم وتعدد أعراقهم



ردود

الأخ الدكتور أبو بكر محمد

مدير مكتبة نادي الباحثين / كيرالا / الهند

رغم قناعتنا بمدى احتياجكم للمطبوعات الإسلامية، وبمدى حاجة رواد مكتبتكم لمجلة التواصل وما ينشر على صفحاتها؛ إلا أننا نفيدكم علماً بأننا لا نستطيع إرسال الكميات التي تطلبونها من كل عدد. وباستطاعتنا ـ فقط ـ إرسال خمس نسخ كحد أقصى، لتكون في متناول الطلاب والباحثين والأساتذة وكل رواد المكتبة. أما من يرغب في الحصول على نسخة من المجلة، خاصة به، فيمكنه ملء قسيمة الاشتراك الموجودة في كل عدد، أو مراسلتنا مباشرة، وتزويدنا باسمه كاملاً وعنوانه البريدي، مرفقاً ذلك بقيمة الاشتراك.

أما في ما يخص مقترحكم والمتعلق بتوزيع صحيفة الدعوة الإسلامية ومجلة التواصل، في منطقتكم، فإننا نعلمكم بأن المشروع المقترح قد أحيل إلى الجهة المختصة للنظر فيه، والبت في إمكانية تنفيذه من عدمها، وسنوافيكم بما يتقرر حيال ذلك.

لكم الشكر والتحية، ونرجو أن نبقى على تواصل.

○

الإخوة / جمعية الثقافة

لمسلمي بكين الشرقي/السنغال

نفيدكم بأن جميع الأعداد السابقة من مجلة التواصل قد نفدت، لذلك نأسف لعدم استطاعتنا تلبية طلبكم. أما المطبوعات الأخرى التي ترغبون الحصول عليها، فيمكنكم طلبها مباشرة من مركز البحوث والإعلام والنشر بالجمعية. وكذلك بالنسبة لعناوين المراكز والمؤسسات الإسلامية في أوروبا، فيمكنكم الحصول عليها، من خلال مراسلة المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة / الرباط / المغرب.

○

الأخ قاسمي محمود جمبا

إلورن / نيجيريا

نشكرك على ما تفضلت به من كلمات طيبة عبرت عن شعورك تجاه مجلة التواصل. ونفيدك بأن المقال الذي أرفقته برسالتك قد أحيل إلى لجنة مراجعة وتقييم النصوص ليأخذ دوره في النشر إن كان صالحا لذلك..

نجدد الترحيب بك والتحية لك، ونرجو أن نظل على تواصل.



الأخ الدكتور صلاح الدين حسن عبد الله

كلية الدراسات العربية والإسلامية / أنجامينا / تشاد

نبادلك التحية بمثلها وأفضل منها، ونرحب بك قارئا متابعا لما ينشر على صفحات التواصل..

وبخصوص البحث الذي تفضلت بإرساله إلينا نفيدك بأنه قد أحيل إلى لجنة مراجعة وتقييم النصوص ليأخذ دوره في النشر إن كان صالحا لذلك..

نشكرك مرة أخرى ونرحب بتواصلك معنا.



تنويه واعتذار

الإخوة القراء / السلام عليكم ورحمة الله

أود لفت انتباهكم إلى أن مجلة التواصل تفضلت مشكورة بنشر مقال لي في عدده الثاني عشر بعنوان (لسان المزمار مخرجا صوتيًا)، وهو العنوان المثبت في الصفحة الخامسة من المجلة، وإن كانت كلمة (مزمار) قد سقطت سهوا من العنوان فيما بعد. وقد وقع في هذا المقال بعض الأخطاء المطبعية التي لا يسمح المجال لذكرها بقدر ما يسمح للتنبيه عليها، كما وقع فيه خطأ علمي يتحمله صاحبه، وهو أنني ذكرت أن مخرج الغنة هو لسان المزمار، وما كنت أعنيه هو اللهاة لا لسان المزمار، ذلك أن اللهاة تتراجع إلى الخلف لتسمح للهواء بالمرور عبر التجويف الفموي مع الأصوات الفموية، وتتدلى إلى أسفل لتغلق التجويف الفموي سامحة للهواء بالمرور عبر التجويف الأنفي مع الأصوات الأنفية، وهذه الآلية الأخيرة هي التي تحدث مع صوت الغنة، وبناء على ذلك فإن مخرج الغنة - كما أطرحه في هذا المقال - هو اللهاة التي ينحرف عندها مجرى الهواء وليس لسان المزمار.

إنني إذ أنبه القارئ الكريم إلى هذا الخطأ؛ ألتمس منه العفو على ما وقع مني من سهو، وأعود وأقدم الشكر مجددا للإخوة الكرام العاملين بمجلة التواصل.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

د. خالد العيساوي / ليبيا



خطوة نتمنى أن تنال الرضى

لعل القارئ الكريم سيلاحظ لمسات تجديدية وتطويرية في هذه المطبوعة ابتداءً من العدد الثالث عشر، ولهذه الخطوة أسبابها ومبرراتها.

فنياً نحاول إضافة لمسة هنا ولمسة هناك بطريقة نهدف من ورائها إلى الارتقاء بالمظهر الجمالي لهذه المطبوعة. وفي الوقت ذاته نحاول إحداث تناغم بين الشكل والموضوع، بين النص والصورة والرسم بحيث يكمل كل منهما الآخر.

صحيح أن الجانب الفني لا يمكن تعليله، فهو مرتبط بالذوق قبل كل شيء، والذوق شيء شخصي، شخصي جداً، ولذا من الصعب إقناع طرف بسلامة وجودة التغيير، لكن وبشكل عام تظل اللمسات الفنية الجمالية المقبولة نسبياً.

وانطلاقاً من أن الاختلاف حول الجمال ليس وارداً، بل الاختلاف حول درجات الجمال وأشكاله فإن ما نرمي إليه من خلال ما سيلاحظه القارئ الكريم من تغيير ـ أو تطوير إن شئتم ـ يرتبط بذوق يحس الجمال ويتناغم إلى حد ما ـ من وجهة نظرنا ـ مع شخصية ومحتوى هذه المطبوعة.

من جانب آخر يظل السعي إلى التطوير والتجديد والتنويع أمراً مقبولاً ما لم يخرج بهذه المطبوعة عن شخصيتها أولاً، وما لم يدفع بها لأن تكون نسخة مكررة لغيرها من المطبوعات ثانياً. صحيح أنه ليس من الممكن أن لا تلتقي وجهات النظر حيال قضية ما، وصحيح أنه من المستحيل أن لا يحدث توارد الخواطر، لكن ذلك كله لا يبيح أن يصبح التطوير والتجديد والتنويع لذات التطوير والتجديد والتنويع، بل ينبغي أن يكون ذلك بهدف الارتفاع بمستوى المطبوعة، ويجعل منها عنواناً ـ ولو كان متواضعاً ـ لذوق رفيع.

في هذه المطبوعة التي بين أيديكم نحاول المزج بين الأصالة والعراقة والتجديد والحداثة بطريقة لا تدفعنا إلى الغرق في ماضٍ تولى وعدم الذوبان في حداثة ليست محددة الملامح، حداثة تلغي الخصوصية الايجابية ثقافياً وتاريخياً واجتماعياً.

وبدءاً من غلاف هذه المطبوعة مروراً بالأغلفة الداخلية ولمسات فنية هنا وهناك وانتهاءً بالإعلان الخاص بالتواصل نحاول أن نعطي صورة واضحة الملامح لمطبوعة واضحة الملامح، واضحة التوجه، واضحة الأهداف.

ومن باب نسبة الفضل لأهله فإننا نأمل أن تلقى هذه الخطوة قبولاً لدى القارئ الكريم فإنه من المهم التأكيد على الجهد الذي يبذله الأخوة الفنيين وبعض القراء المهتمين، والذين كانت آراؤهم وطلباتهم دافعاً لنا على المجازفة الجمالية التي نأمل أن تكون مقبولة إن لم تكن جيدة.

أمين هيئة التحرير


هل تريد ان
تواصل







مع تحيات مجلة التواصل

تنفيذ وطباعة : شركة الآن للطباعة والنشر